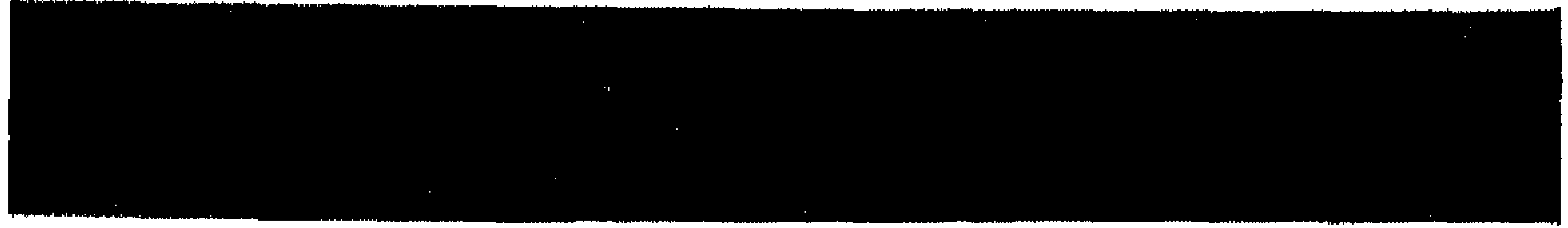
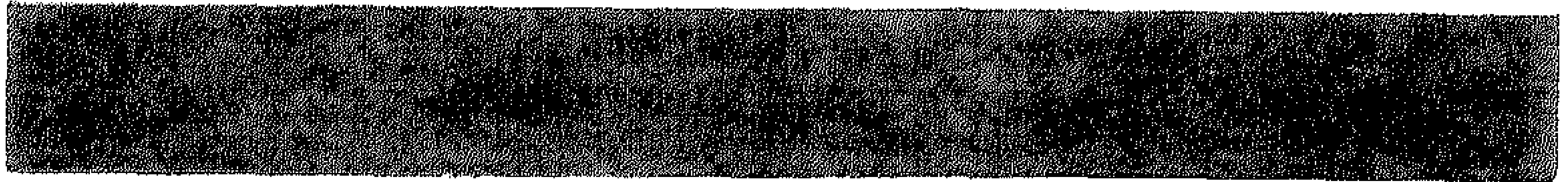
الشخصية العربية






السيد يسين

GIFTS 2004
DR.FARID EL ASHMAL
U.S.A

السيد يسين

الشخصية العربية

بين

صورة الذات ومفهوم الآخر

مكتبة مدبولي

إسم الكتاب : الشخصية العربية
إسم المؤلف : السـيد يسـين
الناشــــر : مكتبه مدبولى
الطبعـــة : الأولــى ١٩٩٣
رقم الإيداع : ١٠٣٨٨ / ٩٢

إهـــــداء

إلى الجيل العربى الشاب
الذى سيشهد تحقق الوحدة العربية

السـيد ياسـين

مقدمة الطبعة الرابعة

هذه هى الطبعة الرابعة من كتابنا «الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر» ومرور السنوات بين الطبعة الثالثة والطبعة الراهنة كان يقتضى تنقيح النص والاضافة اليه، فى ضوء الدراسات الجديدة فى الموضوع، ووضعا فى الاعتبار التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية العميقة التى أصابت بنية المجتمع العربى. والتى من شأنها ان تترك آثارها على بنية الشخصية العربية. فالشخصية العربية- شأنها فى ذلك شأن أى شخصية قومية فى العالم المعاصر- ليست بنية مصمته تتسم بجوهر ثابت لا يتغير، والا لاصبحت بنية تعيش خارج التاريخ الانسانى. بل انها- كما أكدنا فى شرحنا لمنهجنا فى تناول الموضوع- تربطها علاقة جدلية وثيقة بالبناء الاجتماعى بالمعنى الشامل للكلمة.

وأيا ما كان الامر، فالطبعة الحالية تتميز باضافة فصل جديد موضوعه «الشخصية العربية كما تجلت فى أزمة الخليج». وقد حاولنا فيه أن نرصد سلوك المثقفين والسلطة والجماهير أثناء الازمة وبعدها، فى محاولة لالقاء الضوء على تفاعلات الشخصية العربية مع حدث عالمى بالغ الخطورة، سيؤثر على التاريخ العربى سلبا وايجابا لعقود كثيرة قادمة. ونأمل ان تسد هذه الطبعة الفراغ

الموجود فى المكتبة العربية، فى هذا الموضوع الحيوى والذى يستحق أن تفرد له سلسلة من البحوث الميدانية المقارنة الواسعة المدى، حتى نستطيع فى ضوئها التحقق من صدق عديد من الفرضيات والتحليلات التى قدمناها فى ثنايا الدراسة.

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية
بالقاهرة فى ١٦ نوفمبر ١٩٩١

السيد يسين
أمين عام منتدى الفكر العربى
عمان- الاردن
مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية

مقدمة الطبعة الأولى *

لم يعد اليوم خلاف فى العالم العربى حول الأهمية العلمية والقومية لدراسة المجتمع الاسرائيلى. والحقيقة أن البداية العلمية الجادة لاستكشاف المعالم الرئيسية لهذا المجتمع العدوانى، وللتطورات التى تؤثر فى اتجاهاته، لم تر النور فى مصر، إلا مع إنشاء مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بمؤسسة الأهرام وذلك عام ١٩٦٨.

وقد كان المركز مدركا منذ بدأ العمل العلمى فيه، أهمية حشد الطاقات المصرية العلمية المتخصصة لدراسة الجوانب العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لاسرائيل. وحين دُعيت للإشراف على وحدة البحوث الاجتماعية بالمركز، أدركت أننا كباحثين إجتماعيين سنواجه تحديا ضخما يتمثل فى دراسة هذا المجتمع عن بعد، وفى ضوء تحليل المادة السوسيولوجية المنشورة لعلماء اسرائيليين وغيرهم. ولذلك حرصت وحدة البحوث الاجتماعية منذ البداية على ان تضع تخطيطا طويل المدى لسلسلة من الدراسات الوصفية التحليلية، التى كان الهدف منها فى النهاية الحصول على صورة مكتملة بقدر الامكان لبناء هذا المجتمع، ولضروب الصراعات التى تؤثر فيه، كل ذلك من خلال منظور نقدى

---

* هذه المقدمة تصدرت الطبعة الأولى من الكتاب الذى نشره عام ١٩٧٣ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية. (الناشر).

لايتخلى مطلقا عن الالتزام القومى الضرورى من ناحية، ولا عن اعتبارات الموضوعية العلمية من ناحية أخرى.

وقد دُعى لتنفيذ خطة وحدة البحوث الاجتماعية مجموعة من خيرة الباحثين العلميين المتخصصين فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية وعلم النفس والتربية. وقد روعى منذ البداية ضرورة اعتماد أسلوب المناقشة الجماعية لخطط الأبحاث وللمشكلات المعقدة المختلفة التى تثيرها الدراسة العلمية للمجتمع الاسرائيلى، ليس ذلك فقط بل اتبع المركز تقليدا علميا يقضى بالمناقشة المستفيضة لكل بحث من البحوث بعد انتهائه وقبل نشره.

من خلال هذا العمل الجماعى المخطط استطعنا إعداد مجموعة من الأبحاث الاجتماعية المتنوعة التى تدرس بعمق جانبا أو آخر من جوانب المجتمع الاسرائيلى.

غير أنه سرعان ماتبين لنا أن دراسة المجتمع الاسرائيلى ولو أنها بالغة الأهمية فى حد ذاتها، إلا أنها لابد أن تمتد لتكون دراسة شاملة للأبعاد المختلفة للصراع العربى الاسرائيلى. وحين ننتقل إلى دراسة صراع ما، فنحن نركز على طرفى الصراع معا لا على طرف واحد فقط. فى ضوء هذا المنظور قام الباحث باعداد هذا البحث عن «الشخصية العربية : بين المفهوم الاسرائيلى والمفهوم العربى». وهى دراسة نقدية للتحليل الاجتماعى الذى مارسه العلماء الاسرائيليون والعرب للصراع العربى الاسرائيلى، كل فريق من وجهة نظره.

وتبدو أهمية الموضوع فى ضرورة أن نعرف وأن نقيِّم الصورة

العربية: الشخصية والمجتمع، كما تنعكس فى المرآة الاسرائيلية. فعلى ضوء هذه الصورة الحقيقية أو المشوهة، ترسم الصفوة الحاكمة الاسرائيلية إستراتيجياتها العدوانية إزاء العالم العربى.

وفى يقيننا أننا - كباحثين ومفكرين ومواطنين بوجه عام - قد تجاوزنا مرحلة الحساسية التى كانت تمنعنا من أن نقرأ وندرس ونحلل مايكتبه العدو عنا. غير أن أهم من ذلك كله، التقييم العلمى للكتابات الاسرائيلية، وهذا مافعلناه وركّزنا عليه، ليس ذلك فقط بل تقييم مانكتبه نحن عن أنفسنا، والذى أحيانا مايكون بعيدا عن الدقة العلمية.

والحقيقة أن الكتابات العربية عن أسباب الهزيمة تثير مشكلات أخطر كثيرا من مسألة الدقة العلمية. ذلك لأنها تعكس مواقف القوى الاجتماعية المختلفة من مسار الثورة العربية المعاصرة، وبكل ماتتضمنه من نجاحات واخفاقات.

لقد بدأت بعد انتهاء المعركة العسكرية فى يونيو ١٩٦٧، ماأطلق عليه بحق الكاتب العربى كميل حوا معركة تفسير الهزيمة، التى هى معركة نظرية وسياسية فى آن واحد. لقد طُرحت فى ثنايا هذه المعركة تساؤلات، فيما يلى أمثلة بارزة لها :

«هل إشتراكية بعض الأنظمة هى المسؤولة عن الهزيمة، هل غياب التكنولوجيا لدى العرب هو المسؤول عن الهزيمة، هل افتقاد العرب لوسائل إقناع الرأى العام الغربى هو المسؤول عن الهزيمة، هل إصرار شعب فلسطين على التعجيل بالتحرير هو المسؤول عن الهزيمة، هل وجود الأحزاب هو المسؤول، هل انفتاحنا على

الشيوعية أو تحالفنا مع الاتحاد السوفيتى هو المسؤول عن الهزيمة؟».

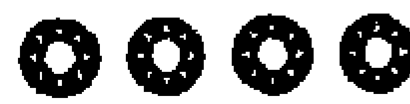
«ومَنْ الذى هُزِم : هل هُزِمتْ أمة أم مجرد طبقة أو قائد؟
هل هُزِم شعب أم هُزِمت نظرية وخط سياسى؟
هل هُزِم العرب أم هُزِم بعض العرب وانتصر «عرب» آخرون؟
هل هُزِمت سلبيات العرب أم ايجابياتهم؟

وما الذى حدث تماما : هل أن بقعة الزيت اتسعت، أم أن السيف اقترب من القلب؟

هل خسرنا معركة أم خسرنا حربا، هل خسرنا حربا أم خسرنا ثورة؟»*.

إن كل هذه التساؤلات قد لاقت إجابات متباينة أشدّ التباين من خلال الكتابات العربية، التى أثر فى اتجاهاتها تأثيرا بارزا الانتماءات الايديولوجية لأصحابها. ومن ناحية أخرى قدّم الاسرائيليون إجاباتهم عن عديد من هذه الأسئلة.

وفى تقديرنا أن التحليل الموضوعى المتعمق لكل هذه التحليلات مسألة بالغة الأهمية، لأنه يمكن عن طريقه أن يزيد استبصارنا بالمشكلات التى تجابهها الأمة العربية فى مسيرتها الشاقة نحو التقدم والعصرية.



وإذا كان العرض السابق عبارة عن تحديد الهدف من البحث،

---

* حوا (كميل)، نقطة الانطلاق : ثقافة الاستعمار فى زمن الهزيمة، مجلة الثقافة العربية، نيسان ١٩٧٣ (ص ٣-١٦).

ووضعه فى إطار خطة وحدة البحوث الاجتماعية، فقد بقى شكر الزملاء والاصدقاء الذين أسهموا بمساعداتهم ومناقشاتهم فى خروجه إلى النور.

أشكر الدكتور على الدين هلال دسوقى الذى أرسل لى من كندا مقالة كتبها بالانجليزية عن «اتجاهات المفكرين العرب إزاء النكبة»، وكذلك الدكتور صادق جلال العظم الذى لفت نظرى فى مناقشة معه حول الموضوع، إلى رسالة ماجستير غير منشورة قدّمها لويس سكدر إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت عام ١٩٧١ عن «المثقفين العرب والهزيمة» وأشكر سكدر نفسه، الذى ناقش معى موضوع البحث فى بيروت مناقشة طويلة، وسمح لى باستخدام رسالته، وأشكر الدكتور ميشيل سليمان استاذ العلوم السياسية بجامعة ولاية كانساس، فقد أرسل لى مجموعة مقالاته العلمية، وبعضها يدخل فى صميم البحث، كما ناقش معى بعض جوانبه. وقد قرأ الفصول الثلاثة الأولى من البحث الدكتور سعد الدين ابراهيم استاذ علم الاجتماع المساعد بالجامعة الأمريكية فى بيروت وأبدى عددا من الملاحظات النقدية المفيدة.

وقد عُرِض البحث ونوقش مناقشة مستفيضة فى ١٣ يونيو ١٩٧٣، بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، فى جلسة علمية حضرها الأساتذة : محمد حسنين هيكل، حاتم صادق، سميح صادق، جميل مطر، د. عبد الملك عوده، د. عبد الوهاب المسيرى، محمد سيد أحمد، د. محمد عزت حجازى.

وقد استفاد الباحث من الملاحظات النقدية التى أبديت، فى اعادة صياغة البحث بالصورة التى هو عليها الآن.

يبقى أن أختم هذه المقدمة بالاعتراف العلمى التقليدى الذى مبناه أننى وحدى أتحمل مسؤولية الآراء الواردة فى ثنايا هذا البحث. ولايفوتنى فى النهاية أن أشكر الزميلة السيدة أميرة سلام بوحدة البحوث الاجتماعية التى قدّمت للبحث معونات فنية متعددة.

القاهرة يوليو١٩٧٣

السيد يسين

مقدمة الطبعة الثانية

فى اللحظات الحاسمة من تاريخ الأمم والشعوب تثور تساؤلات شتى حول هويتها القومية وجذورها الحضارية وتقاليدها الوطنية. وإذا طبقنا هذه الحقيقة على التاريخ المعاصر للأمة العربية، فإنه يمكن القول إن هزيمة يونيو ١٩٦٧ من ناحية، وحرب أكتوبر ١٩٧٣ من ناحية أخرى تمثلان هذه اللحظات الحاسمة التى أدّت إلى ظهور وبلورة عديد من التساؤلات عن العرب فى الماضى والحاضر والمستقبل، عن السلبيات والايجابيات، عن عدم الفاعلية السياسية والعسكرية من خلال الاقليمية والتجزئة، وعن الإنجاز السياسى والعسكرى من خلال التنسيق والوحدة، وبعبارة مختصرة عن فاعلية الشخصية القومية العربية وقدرتها على التفاعل الخلاق مع المواقف المصيرية التى تتعرض لها الأمة العربية فى الوقت الراهن، وعن محصلة هذا التفاعل من سلوك قومى عربى.

ولقد كانت الطبعة الأولى من كتابنا الذى نقدّم له اليوم عن «الشخصية العربية» محاولة للتصدى للهجمة الشرسة التى قادتها اسرائيل لتشويه صورة العرب فى العالم عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧. وقد تميّزت هذه الهجمة باستخدام «العلم الاجتماعى». ولغته فى صورة سيل دافق من البحوث والدراسات «العلمية» الاجتماعية التى انطلقت من مفهوم عنصرى يروّج للعبقرية الإسرائيلية – الغربية ويهوّن من قدر الشخصية القومية العربية.

ولقد كان الهدف سياسيا فى المقام الأول، ويتمثّل فى شن حرب نفسية ضد العرب لإقناعهم أن هزيمتهم فى يونيو ١٩٦٧ هى هزيمة نهائية، وأن عليهم أنْ يخضعوا إلى الأبد للسيطرة الإسرائيلية، لأنه ليس هناك أمل فى أنْ يستطيعوا النهوض من جديد.

لضرب هذا الهدف الاسرائيلى، ولبث اليقين فى صفوف الشعب العربى بأننا نستطيع أنْ ننهض من كبوتنا، لكى نحارب من جديد لإستعادة الأراضى العربية المحتلة، ولانتزاع أرض الشعب الفلسطينى من أيدى إسرائيل، ولتأكيد حقه فى تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة، تعرضنا بشكل شامل ونقدى لجذور العداء التاريخى إزاء العرب فى الفكر الغربى، وامتداداته فى الفكر الإسرائيلى، ومن ناحية أخرى تعرضنا «لصورة الذات» كما تنعكس فى الأدبيات العربية بنفس المنهج النقدى.

وحين دُعيت لإصدار طبعة ثانية من الكتاب تساءلت : هل من حقى أن أدخل أى تعديل على متن الكتاب أم أنه كُتب وحُرر قُبيل حرب اكتوبر ١٩٧٣، بما تضمنه من يقين مؤكّد فى فاعلية الأمة العربية وقدراتها على تجاوز الهزيمة، ينبغى أن يبقى كما هو : شهادة على دور أحد المثقفين العرب فى التصدى الفكرى للهزيمة؟ إن الكتاب لم يكن كتابا تقليديا بل كان طلقة فى المعركة الثقافية الكبرى الدائرة بيننا كأمة عربية وبين الغرب وإسرائيل، وهو لذلك يركّز على المنهج النقدى الذى ينبغى ان نتبناه حين نتصدى للتحيزات الغربية والإسرائيلية بكل ماتنطوى عليه من أوهام

وأكاذيب استشراقية! ولكنه كان حريصا فى نفس الوقت على متابعة كل ماكُتب وأحدث ماكُتب فى الموضوع.

لذلك آثرنا أن نصدر الطبعة الثانية للكتاب بغير تعديل*، على أن نحاول فى هذه المقدمة الموجزة الإشارة إلى أهم الدرسات العربية التى ظهرت بعد نشر الكتاب وتتعلق بموضوعه، بالإضافة إلى أننا أضفنا للكتاب ملحقا ثالثا يتضمن مقالة لنا نُشرت فى مجلة «المستقبل العربى» (عدد ٣، ١٩٧٨) عنوانها : الشخصية العربية : النسق الرئيسى والأنساق الفرعية (ملاحظات أولية). والمقالة تطوير وتعميق لبعض أفكارنا فى الكتاب.

فى الفترة اللاحقة على صدور كتابنا (عام ١٩٧٣) ازداد الاهتمام بموضوع الشخصية القومية العربية، وقد اتخذ هذا الاهتمام صورا شتى تفاوتت بين انتاج الباحثين الأفراد وخطط مراكز الأبحاث العلمية الاجتماعية واهتمامات المجلات العربية. ومن أبرز هذه الأنشطة الملتقى الذى نظّمه فى تونس مركز الأبحاث الاقتصادية والإجتماعية بالاشتراك مع المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عام ١٩٧٨ وكان موضوعه :«الذات العربية بين الوحدة والتنوع»، وقد اشتركنا فيه بالبحث الذى أشرنا إليه والذى نُشر فى مجلة «المستقبل العربى»*.

وبالرغم من أن هناك اسهامات علمية جيدة قُدِّمت فى هذا الملتقى، إلا انه يمكن القول أن عدم الاتفاق على معنى ومدلول

* فضّلنا تغيير عنوان الكتاب :«الشخصية العربية بين المفهوم الاسرائيلى والمفهوم العربى» إلى «الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر» لأنه اكثر انطباقا على المضمون.

* انظر ملحق ٣.

المفاهيم الرئيسية فى الموضوع : الذاتية العربية، أو الشخصية العربية، أو الهوية العربية .. الخ، قد ابعد الملتقى عن أن يصل إلى حد أدنى من الاتفاق الفكرى بين جمهرة الباحثين المشاركين فيه، بل وأدّى أكثر من ذلك إلى ضرب من ضروب التشتت الفكرى نتيجة عدم التركيز على الموضوع الرئيسى للملتقى.

وقد نشرت مجلة «قضايا عربية» عدد ٢، السنة السادسة، حزيران/ يونيو ١٩٧٩ عددا خاصا عن الشخصية العربية والمغرب العربى يتضمن بعض المقالات الهامة عن الشخصية العربية، تعكس فى الواقع الاختلافات بين الباحثين العرب فى تناول الموضوع.

نجد أولا مقالا للدكتور «فرج احمد فرج» مدخل إلى دراسة الشخصية العربية :«المشاكل والقضايا» (ص ١٨١ - ١٩٣). والمقال عبارة عن نقد لمفاهيم ونظريات العلم الاجتماعى الغربى بوجه عام، وفيما يتعلق ببحوث الشخصية بوجه خاص. ولعل أهم الأفكار التى وردت به وتتعلق بموضوع الشخصية العربية هو «رفض العودة بها إلى النمط القبلى الرعوى الزراعى ..» أو القفز بها إلى نموذج غريب مستورد، مقطوع الصلة بتاريخها وتراثها».

ومن ناحية أخرى يدعو الكاتب إلى تطوير الأشكال العربية النوعية التى تخدم التطور الثلاثىّ : التكنولوجى والعقلى والاجتماعى والسياسى. وكل ذلك فى إطار اهتمامه بأهم قضيتين اجتماعتين وهما عدالة توزيع الثروة، والديمقراطية السياسية. وهذه الرؤية المستقبلية لصياغة الشخصية العربية رغم أهميتها الكبرى لم يتُح للكاتب أنْ ينميها بشكل متكامل.

وتعرض الدكتور محمد احمد خلف اللّه فى مقالته «المجتمع العربى والأنماط العامة الاجتماعية والثقافية» (ص ١٩٥ - ٢١٠) لدراسة الواقع الاجتماعى الثقافى للمجتمع العربى للكشف عما إذا كان هذا المجتمع العربى يعيش نمطا عاما ثقافيا اجتماعيا أو أنماطا عامة ثقافية واجتماعية عديدة ومختلفة.

وتعرض الكاتب لدراسة اللغة والعقيدة وسبل العيش للاجابة على السؤال المبدئى الذى طرحه. وانتهى من مقالته إلى أن هناك نمطا ثقافيا اجتماعياً واحدا على مستوى المجتمع العربى الكبير. والمقال يصلح تخطيطا لدراسة مقبلة ينبغى عليها أن توثّق وتؤيّد بالبراهين التفصيلية.

وتطرق الدكتور سيد عويس فى مقالته «حول مفاهيم الشخصية القومية» (ص ٢١١ - ٢٢١) إلى مشكلة التعريف بالمفاهيم المتداخلة فى هذا الميدان. فتعرض لمفهوم القومية، ولمفهوم الشخصية، ولمفهوم الشخصية القومية. كما لفت النظر إلى الخلط بين مفهوم القومية العربية ومفهوم الشخصية العربية. وقد انتهى الكاتب إلى رفض مفهوم الشخصية القومية على أساس أنه «لاثمرة فيه فى الوقت الحاضر. فهو من المفاهيم التى لاتوجد عند قائليها أو المستمعين لها صورة ذهنية واضحة المعالم عنها». وتنبغى الإشارة إلى ان موقف الكاتب فى هذه المقالة يتعارض مع موقفه فى بعض دراساته السابقة التى تبنىّ فيها المفهوم واعتمد عليه.

وفى نفس العدد من قضايا عربية نجد مقاله للدكتور عزت حجازى عنوانها «الشخصية العربية: وحدة أم تنوع؟» (ص ٢٢٣-

٢٣٩) وهذه المقالة لا تتضمن اى أضافة لموضوع البحث، فقد قنع الكاتب بتبنى منهجنا فى كتابنا الذى نقدّم له، وإعادة صياغة نتائجنا.

أما الدراسة التى تستحق الإهتمام حقا فى هذا العدد فهى دراسة د. سامى مصطفى (اسم مستعار لكاتب كصرى) وعنوانها: «الشخصية العربية: دراسة نقدية حول مجموعة من الدراسات» (ص ٢٤١- ٢٥٩). فهى تتضمن مجموعة من الانتقادات الذكيه لعدد من الكتابات العربية فى الموضوع، من بينها دراستنا «الشخصية العربية: النسق الرئيسى والأنساق الفرعية».

وقد وجه إلينا نقدا لأننا اعتبرنا اللغة أحد عناصر البناء الفوقى، فى حين انه وفقا للتحليل الإشتراكى العلمى فاللغة ليست كذلك لأنها بتعبير الكاتب «هى نتاج المجرى العام لتاريخ المجتمع والبناء التحتى لعدة قرون ولعدة أنماط من الإنتاج».

ونحن نقبل هذا النقد، على أساس أن اللغة حقا لها موضع متميز يتجاوز البناء التحتى بحكم استمراريتها عبر الزمن، مع ملاحظة أن هذه الاستمرارية تتضمن تغييرات جوهرية فى بنية اللغة ذاتها، تأثرا بالبناء الفوقى وتغيراته. (خذ على سبيل المثال تغير ايديولوجية مجتمع ما من الليبرالية إلى الاشتراكية وتأثير ذلك على اللغة).

ويوجه إلينا الكاتب مجموعة من الأسئلة :

«هل الأمة مفهوم تاريخى بمعنى أنها تنشأ فى مرحلة تاريخية معينة وليس قبلها أو بعدها؟

وهل الأمة تتكّون عبر التاريخ أى أن التاريخ المشترك وبالتالى الخبرة التاريخية والتراث أحد مقوماتها أو خصائصها؟

وهل وحدة الأرض إحدى مقومات الأمة؟

وهل وحدة اللغة – بصرف النظر عن مسألة البناء الفوقى– احدى مقومات الأمة؟

وهل تغير نمط الإنتاج الفوقى والبناء التحتى يؤدى إلى تغير اللغة وبالتالى أن نكون بصدد أمه جديدة» ؟.

والواقع أن هذه الأسئلة جميعا تتسم بالأهمية البالغة. وتبدو أهميتها فى أنها تثير قضية لم تُحسم بعد فى العلم الاجتماعى العربى، ونعنى بها مدى انطباق المقولات والمفاهيم والتعميمات السائدة فى النظرية الغربية على الواقع العربى، وعلى سبيل المثال تربط النظرية الغربية– على الأقل فى أحد تياراتها الهامة– بين نشوء الدول القومية ونشأة السوق الرأسمالى، ما مدى صحة هذه النظرية إنْ طُبِّقت على الأمة العربية؟

لا ندّعى قدرتنا فى هذه المقدمة الوجيزة على الرد على التساؤلات الهامة التى طرحها «سامى مصطفى» وإن كنا نعتقد أنها جديرة بالبحث والتأمل العميق. ويبقى أن نشير إلى أحدث ما أطّلعنا عليه من دراسات فى موضوع الشخصية العربية.

الدراسة الأولى نشرها بالانجليزيه باحث عربى هو «فؤاد مغربى» وعنوانها: الشخصية الأساسية العربية: مسح نقدى للتراث» وتتضمن حصرا شاملا لما نشر بالانجليزيه فى الموضوع

ونقدا للاتجاهات المتحيزة فى تصوير وتحليل الشخصية العربية يقترب كثيرا من منهجنا النقدى.

والدراسة الثانية للدكتور «نديم البيطار» وعنوانها: «مفهوم الهوية القومية»* وهى دراسة ممتازة تقوم أساسا على نقد المفهوم الميتافيزيقى فى النظر إلى الهوية القومية أو الشخصية القومية باعتبارها «عقلا» أو «روحا» يتسم بالثبات والجمود وعدم التغير، وعلى تأكيد المفهوم التاريخى للشخصية القومية الذى يربط بينها وبين التطور الاجتماعى والسياسى والاقتصاءى، وهو المفهوم الذى نتبناه فى هذا الكتاب.

تبقى أخيرا مقاله الدكتور «حامد عمار» حوار منهجى حول التنمية الاجتماعية ومقومات الشخصية العربية**

وتبدو أهميتها فى أن كاتبها هو أحد رواد دراسات الشخصية العربية فى العالم العربى، والذى أثارت دراسته عن «الشخصية الفهلوية» مناقشات واسعة المدى بين علماء الاجتماع العرب. والمقالة تتضمن تقويما بارعا للاتجاهات الأساسية فى الكتابات العربية عن الشخصية العربية، وأهم من ذلك ربط دراسة الشخصية العربية بعملية التنمية ربطا عضويا وثيقا، وكل ذلك فى إطار نظرة مستقبلية.

---

* نديم البيطار «مفهوم الهوية القومية»، مجلة الباحث، السنة الثانية، العدد الأول (١٣) سبتمبر أكتوبر ١٩٨٠، (ص٩–٣٨).

** د. حامد عمار «حوار منهجى حول التنمية الاجتماعية ومقومات الشخصية العربية»، المستقبل العربى، ٢٣، ١٩٨١، (ص ٩٣– ١٠٦).

فالإنسان عند. حامد عمار محور لقضايا التنمية، ومن هنا أهمية التركيز على مقومات الشخصية الاجتماعية.

ولعل خير ما نختتم به هذا العرض الوجيز للدراسات التى نُشرت عن الشخصية العربية بعد صدور كتابنا، هو ماخلص اليه د. حامد عمار فى نتائج مقالته السابقة والتى جاء فيها: «إذا كانت التنمية تتمحور حول الإنسان العربى هدفا ووسيلة، فإن من أبعاد التنمية الأساسية فى وطننا المعاصر السعى الجاد نحو الوحدة العربية فى مراحلها المتنوعة وآفاقها المتعددة. ومن المسلم به أن الهدف الوحدوى، مهما انتابه من ذبذبات، يظل إطارا جوهريا من إطارات التنمية فى الوطن العربى، تقتضية عوامل كثيرة ومعروفة ومن المسلم به أيضا أن الوحدة، هدفا وأملا، تمثل حقيقة موضوعية، تنعكس فى تراث تاريخى وسيكلوجى حتى فى الفكر والوجدان والتراث الحى والمصير المنشود».

وهكذا فنحن حين نعالج مشكلة الشخصية العربية فى هذا الكتاب فنحن فى الواقع نكون فى صميم دائرة الوحدة العربية. ولاعلينا من هؤلاء الباحثين عربا كانوا أو أجانب الذين يركزون على جوانب الإختلاف الثقافية والاجتماعية والسياسية فى العالم العربى، متناسين جوانب التشابه وعوامل الترابط العضوى الوثيق، كما أن الانتقادات التى توجه لمفهوم الشخصية القومية لا تصمد – من وجهة نظرنا– أمام حجج أنصار استخدام المفهوم، وخصوصا إذا ما استخدم المفهوم أخذا فى الاعتبار القواعد المنهجية السليمة التى تكفل تكامل شروط البحث العلمى الموضوعى.

وإذا كان هذا الكتاب فى طبعته الأولى (عام ١٩٧٣) قد حقق الهدف منه فى تثبيت اليقين فى قدرتنا كعرب أن نصمد وأن نقاوم الإحتلال الصهيونى الإسرائيلى للأرض العربية كما ثبت فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، فإننا نرجو أن تحقق طبعته الثانية أملا: هو أن نبدأ كمثقفين فى حركة نقد ذاتى واسعة المدى للنظام العربى كله، لكى نجابه مشكلاتنا الأساسية: قدرتنا على الإبداع الحضارى متمثلة فى صياغة نموذج عربى للتنمية والتحديث، وتصميمنا على تحقيق العدالة الاجتماعية بين مختلف الطبقات، وأخيرا وقد يكون أولا، شجاعتنا فى حل المشكلة الديمقراطية فى العالم العربى.

القاهرة فى ٢٤/ يونيو ١٩٨١

السيد يسين

الفصل الأول

التحدى والاستجابه

- حرب يونيو ١٩٦٧ : الهزيمة وآثارها.
- أدب النكسة.
- أدب النكسة فى ضوء التحليل الاجتماعى للعلاقات الدولية.
- المناهج المختلفة فى دراسة النكسة.
- منهجنا فى دراسة أدب النكسة.

حرب يونيو ١٩٦٧: الهزيمة وآثارها:

كانت الهزيمة العربية فى يونيو ١٩٦٧، التى شكّلت مرحلة متميزة من مراحل الصراع العربى الإسرائيلى بمثابة الصدمة الساحقة التى أصابت الوجدان العربى فى صميمه. وليس غريباً أن نتحدث عن المشاعر الوجدانية ونحن بصدد دراسة صراع سياسى وعسكرى، فمن المتفق عليه بين الباحثين فى العلوم السياسية، أنه فى بعض أنماط الصراعات الدولية، تؤثر الانفعالات الجماعية تأثيرا بالغا على الإتجاهات السياسية والسلوك السياسى(١). ونجد بصدد الصراع العربى الإسرائيلى بالذات أهمية «لتصور الذات» و«تصور الآخر»، أو بعبارة أخرى مفهوم العرب عن أنفسهم ومفهومهم عن العدو الإسرائيلى، وكذلك مفهوم الاسرائيليين عن أنفسهم ومفهومهم عن العرب فى تفسير بعض جوانب الصراع(٢).

غير أن آثار الصدمة لم تقف عند حدود الوجدان، ولم تكشف عن مدى عمقها فقط فى القصائد الشعرية التى ازدحمت بتجريح الذات العربية، وإنما تعدّت ذلك إلى الفكر العربى ذاته، وذلك من خلال عملية «النقد الذاتى» الواسعة المدي التى دارت بين المثقفين العرب، والتى كانت بتعبير أحد الباحثين- أشبه «بالمحاكمات القومية»(٣) لتحليل أسباب الهزيمة وإرجاعها إلى أسبابها وعواملها الحضارية والاجتماعية والسياسية(٤).

إن الفهم الصحيح لحرب ١٩٦٧ وآثارها فى البلاد العربية، يتطلّب عودة إلى الوراء لإلقاء نظرة سريعة على المجابهة الشاملة الأولى عام

١٩٤٨ بين الجانب العربى والعدو الإسرائيلى. لقد تمت هذه المواجهة المصيرية بين طرفين غير متكافئين. كان الطرف الصهيونى الاسرائيلى مسلحا بالعلم الغربى ومنطلقا من نسق عقلانى من المنظمات المختلفة ومستندا إلى نسق قيم اجتماعى عصرى[٥]، وفى الجانب الآخر، كان الوطن العربى واقعا ضمن دائرة النفوذ الاستعمارى وكان يمثل أساسا مجتمعات تقليدية تفتقر إلى الصناعة والتكنولوجيا، وتسودها الزعامات العشائرية والقبلية وشبه البرجوازية، ويسيطر على جنباتها نسق قيم اجتماعى تقليدى دينى الصبغة. إذا كان ذلك هو موقف الطرفين فى المجابهة التى تمت عام ١٩٤٨ والتى ترتب عليها سقوط المجتمع الفلسطينى وتحول اعضائه إلى لاجئين فما التصور الذى طرأ على موقف طرفى الصراع عبر السنوات الطويلة الممتدة من عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٧؟

يمكن القول بصورة عامة، أنه رغم التحسن النسبى فى موقف بعض البلاد العربية (مصر بوجه خاص)، إلا أن المجابهة تمت أيضا بين عدو متقدم تكنولوجيا يمتلك تنظيما اجتماعيا يتسم بالعقلانية والكفاءة، سمح له بحشد موارده وتعبئته طاقاته إلى أقصى درجة ممكنه، وبين الجانب العربى الذى ظل يمثل نمط الأقطار المتخلفة التى لم تغزها موجات التحديث ولا إنجازات العلم والتكنولوجيا إلا بصورة جزئية وبقدر محدود.

ونستطيع أن نرد الصدمة التى أصابت الوجدان والفكر العربيين، إلى اعتبارات متعددة[٦] لعل أهمها على الاطلاق أن الشعب العربى

دخل حرب ٦٧ بعد تعبئه نفسية مكثفه تمت خلال فترة قصيرة من الزمن، وهو واثق ثقة مطلقة من النصر على العدو الإسرائيلى. وقد اعتمد هذا الشعور على ما ساد البلاد العربية قبل الحرب من التضخيم فى قوة واستعداد الجيوش العربية، وقدرتها على سحق إسرائيل فى فترة قصيرة، بالإضافة إلى تصوير الإسرائيليين باعتبارهم تجمعا لعدد من العصابات اليهودية التى وفدت إلى فلسطين من كافة أنحاء العالم، هذه العصابات اليهودية التى لايجمع شتاتها سوى العقيدة الصهيونية بكل ما تمثله من جوانب متطرفه وعدوانية. وهذه العصابات فى منطق هذا التصوير لا تكون شعبا منسجما ولا تجمعا متكاملا، وهى غير قادرة على الدخول مع العرب فى معركة فاصلة(٧). ووصل هذا الأتجاه إلى أقصى مداه على يد بعض الكتاب العرب المحافظين، الذين أكد أحدهم(٨) إستنادا إلى المنهج المعيب فى تفسير الشخصية الإسرائيلية على ضوء تاريخ اليهود، منذ أقدم العصور(٩) إلى أن «اليهود يحجمون عن لقائنا وجها لوجه»، وأن إسرائيل «تستطيع أن تحتمل من الهوان والذل مالا يطيقه بشر، ولاتدخل معنا فى صدام مباشر بالسلاح. وأن أسلحة اليهود لاتكفى للقضاء على مافى طبيعتهم من جبن أصيل».

وبعد ثلاثة أيام فقط من نشر هذه المقالة، شن العدو الإسرائيلى حربا على مصر والدول العربية، حقق فيها نصرا واسع المدى، وكان هذا فى حد ذاته لطمة لهذا الإتجاه الفكرى المتهافت الذى حاول مجابهة المجتمع الإسرائيلى العدوانى بالفكريات المتخلفة التى تتجاهل الواقع، وتفتقر إلى المنهج العلمى فى التحليل،وسنرى من

بعد، كيف أن هذا التيار لم يخمد، بل حاول أيضا بعد النكسة أن يعطى لها تفسيرات غيبية إنطلاقا من مسلماته التى لا يريد أن يحيد عنها.

لقد سبق للعرب أن هزموا على يد إسرائيل عام ١٩٤٨ حيث جابهوا ما أطلق عليه قسطنطين زريق «النكبة»، فلماذا إذن كانت هزيمة ١٩٦٧ أشبه بالطعنه النافذة التى زلزلت الوعى العربى؟

يمكن إجمال ذلك فى الأسباب الآتية :

١- ان الهزيمة الأولى وقعت فى وقت كانت فيه أغلب البلاد الغربية مازالت تعانى من الإستعمار وافتقارها للسيادة القومية، بحيث كانت حريتها فى الحركة فى المجال السياسى والعسكرى بالغة الضيق.

٢- كانت الأنظمة العربية القائمة فى ذلك الوقت أنظمة متخلفة، تسيطر عليها الطبقات الأجتماعية والرأسمالية بكل فكرياتها الرجعية.

٣- وكانت الجيوش العربية تعانى من قلة التسليح ومن ضعفها التنظيمى وإنخفاض مستواها الفنى.

٤- كل ذلك بالإضافة إلى أن الجماهير العربية لم تكن قد نضج بعد وعيها الثورى الذى يسمح لها بالتأثير على الأحداث، أو التحكم فى اتجاهات الحياة السياسية والاجتماعية فى البلاد العربية.

غير أن غالبية هذه العوامل التى أدت إلى هزيمة ١٩٤٨، والتى كانت فى ذاتها مبررا لحركات ثورية كبرى فى العالم العربى، لعل أهمها على الإطلاق ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ من المفروض أنها انتفت

فى حرب ١٩٦٧ ، على أساس ان التغيرات الثورية العميقة التى أصابت بقية المجتمعات العربية فى ظل الدول التقدمية قد قضت عليها.

وعلى ذلك لم يكن هناك مجال فى هزيمة ١٩٦٧ للتعلل برجعية الفئات السياسية الحاكمة، أو الافتقار إلى التسليح، أو حتى عدم الاستعداد. خصوصا أن هزيمة ١٩٦٧ جاءت بعد حوالى تسعة عشر عاما من هزيمة ٤٨، وهى فترة كافية كان ينبغى أن تسمح للفئات الحاكمة الجديدة بأن تحشد موارد الدول العربية المحاربة. وأن تعبئ الجماهير لمجابهة العدو الإسرائيلى فى الوقت المناسب.

وفى يقيننا ان جسامة الصدمة التى أصابت الوعى العربى ترد إلى عاملين أساسيين ، أولهما تضخم صورة الذات العربية نتيجة للأوهام التى زرعت فى أذهان الجماهير العربية عن القوة التى لا تقهر للقوات المسلحة العربية وثانيهما: المحاولات الدعائية المنظمة التى أسهم فيها عدد من المثقفين العرب الذين يفتقرون إلى النظرة العلمية، والتى حاولت بدأب الاقلال من خطر العدو الإسرائيلى والإستهانة بقدراته، ورسم صورة مزيفة لحقيقة أوضاعه الاجتماعية والسياسية والعسكرية.

حدثت المجابهة الدموية العاصفة إذن عام ٦٧ بين العد الإسرائيلى الذى طور قدراته وزاد من فعالياته فى كل المجالات الاقتصادية والتنظيمية والسياسية والعسكرية عقب إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ، وبين الجانب العربى- الذى رغم كل الجهود التى بذلت فى بعض البلاد العربية- أثبت أنه لم يرتفع إلى مستوى المعركة عسكريا وتنظيميا، وأهم من ذلك كله حضاريا واجتماعيا.

لقد أحدث هذا اللقاء العاصف بين طرفى الصراع وما ترتب عليه من هزيمة جسيمة، أصداء مشابهة للقاء التاريخى الذى تم فى أواخر القرن التاسع عشر بين المجتمع العربى المتخلف والحضارة الأوروبية الغازية(١٠). وقد أدى هذا اللقاء إلى ما أطلق عليه المثقفون العرب «اليقظة العربية» ليشيروا بذلك إلى بدء عملية «التحديث» modernization فى المجتمع العربى، التى جاءت فى حقيقة أمرها نتيجة «للتحدى الذى فرضة الغرب على كل مستويات الوجود الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والنفسى»(١١).

وتمثلت اليقظة العربية- على الصعيد الفكرى - فى نشأه تيار نقدى يحاول دراسة أسباب التخلف العربى والوسائل الفعاله التى ينبغى انتهاجها لتجاوزه سعيا وراء التقدم والعصرية التى كان العالم الأوربى هو مثالها البارز.

وقد طرح المثقفون العرب عديدا من الأسئلة حاولوا- كل حسب ميوله الايديولوجية وتصوراته الفكرية وانتماءاته الطبقية والسياسية- أن يجيب عليها. ويوجز عبد الله العروى فى كتابه «الايديولوجية العربية المعاصرة»(١٢) هذه الأسئلة فى أربع مشكلات رئيسية:

١- ***مشكلة الأصالة:*** ويعنى بها مشكلة تحديد الهوية أو تعريف الذات. وبما أن كل تعريف هو نفى فى حد ذاته، بمعنى أنه مواجهة «الأنا» يوجد «الآخر»، أو بعبارة أخرى إنه بالنظر إلى «الآخر» نستطيع - كعرب- أن نعرف أنفسنا، فإنه كان يتعين أن نحدد موقفنا من «الآخر» الذى كان هو «الغرب».

٢- *مشكلة الإستمرارية* : ويعنى بها علاقة العرب بماضيهم، بعبارة أخرى ما هى المعانى والدلالات التى نعطيها نحن العرب للتاريخ العربى الطويل المزدحم بالنجاحات والإخفاقات على السواء[١٣]؟. إن هذه المشكلة كان لابد لها أن تجئ مباشرة بعد مشكلة الأصالة ذلك لأن الماضى عادة ما يُعّبأ لكى يعطى للذات اتساقا ويمنحها الثقة فى المستقبل.

٣- *مشكلة المنهج الفكري العام* : وتثير هذه المشكلة المنحى الذى سيتيح للعرب أن يكتسبوا المعرفة وأن يمارسوا الفعل. وتتضمن هذه المشكلة السؤال الجوهرى الذى يتعلق بصلة العقل العربى بالعقل العالمى- إن صح التعبير أى قضية التفرد والعمومية بمعناها الواسع.

٤- *مشكلة أدوات التعبير* : والتساؤل هنا يدور حول انسب أدوات التعبير التى تتيح للعرب أن يعبروا بواسطتها عن مرحلة تطورهم الراهنة[١٤].

إذا كانت هذه هى المشكلات الكبرى التى طرحها المثقفون العرب بعد الصدمة الحضارية التى أصابت المجتمع العربى من احتكاكه مع الحضارة الغربية فى القرن التاسع عشر، فقد يبدو أمرا مثيرا للدهشة- لأول وهلة- أن يتساءل المثقفون العرب مرة أخرى فى أواخر الستينات: من نحن وما هى علاقتنا بماضينا، وكيف نفهم الكون والمجتمع والإنسان، وأخيرا كيف نعّبر عن أنفسنا؟

غير أن هذه الدهشة التى قد تنتابنا يمكن لها أن تزول، إذا ما أدركنا أن الحوار حول هذه المشكلات الكبرى لم ينقطع بين المثقفين

العرب منذ بداية عصر النهضة القومية، وأن الصـراع لم يتوقف بين الاتجاهات الايديولوجية الأساسية فى الفكر العربى المعاصر، ونعنى بين التيار الدينى والتيار الليبرالى والتيار الأشتراكى، ولم يكن هذا الصـراع مجرد صراع فكرى، بل قد استخدمت فيه عبر السنين الممتدة أسلحة القمع والإرهاب، بخاصة من قبل ممثلى التيار الدينى والتيار الليبرالى ضد ممثلى التيار الاشتراكى، الذين تعقبتهم السلطات الحاكمة فى مختلف البلاد العربية(١٥).

غير أنه مما يلفت النظر أن «الصدمة الإنفعالية»، التى نجمت عن هزيمة ١٩٦٧، قد أدت إلى أن يعيد المثقفون العرب طرح مشكلاتهم الرئيسية التى رافقتهم منذ عشرات السنين، ولكن بصورة كلية شاملة، وهم بصدد وقفتهم النقدية لتفسير أسباب الهزيمة، وإرجاعها إلى أسبابها الحقيقية الكامنه فى نسيج الحضارة العربية، واللصيقة بصميم بنية المجتمع العربى ذاته.

أدب النكسة :

أحدثت هزيمة ١٩٦٧ تغييرات متعددة فى نظرة كل طرف من أطراف النزاع العربى الإسرائيلى لنفسه وللآخر على حد سواء. كانت هناك حاجة غلأبة لدى كل طرف: المهزوم والمنتصر على السواء، وإلى وقفة متأملة ينظر فيه نظرة متأنية إلى ذاته أولا وإلى الآخر ثانيا. وتجلى ذلك بشكل واضح فى الجانب العربى بتتالى ظهور الدراسات النقدية من كافة التيارات الايديولوجية، التى حاولت تفسير النكسة وتحديد طرق مجابهتها وتجاوزها. ولم يتوانَ العدو الإسرائيلى عن المتابعة الدقيقة لكل للمساجلات الفكرية العربية التى تمت عقب الحرب(١٦).

ومن ناحية أخرى نشر الباحثون الاسرائيليون عددا من الدراسات التى حاولت بتطبيق منهج التحليل الاجتماعى تفسير أسباب هزيمة العرب فى يونيه ١٩٦٧، لعل أهمها دراسة هاركابى «العوامل الرئيسية لإنهيار العرب خلال حرب الستة أيام»(١٧) وقد أدرك الاسرائيليون جسامه النتائج التى ترتبت على حرب ١٩٦٧ لدرجة أنهم أنشأوا معهدا جديدا للبحوث مهمتة دراسة نتائج الحرب من كافة زواياها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية(١٨).

وعلى ذلك يمكن القول ان ما أطلق عليه «أدب النكسة» يتضمن فئتين من الكتابات التى حاولت تفسير أسباب الهزيمة العربية: الكتابات الإسرائيلية والكتابات العربية.

فيما يتعلق بالكتابات الإسرائيلية يمكن القول بوجه عام أنه يمكن التمييز داخلها بين كتابات علمية دعائية تهدف فى المقام الأول إلى تشوية صورة الشخصية العربية، وذلك بالإستخدام الذكى للغة العلوم الاجتماعية ولمنهج التحليل الاجتماعى، وهذه الكتابات موجهة أساسا إلى أوساط الباحثين والمثقفين الغربيين بوجه عام. وهى بذلك تنضم إلى نفس النمط من الكتابات التى ينشرها علماء اجتماعيون اسرائيليون ويهود، والتى تشكل حملة ثقافية مدروسة لتزييف صورة المجتمع العربى والحضارة العربية(١٩).

وهناك كتابات علمية اسرائيلية تتسم بقدر من الموضوعية، وهى تلك التى حاولت الإقتراب من المشكلة، ومحاولة تقدير موقف الجانب العربى فى الصراع.

أما الكتابات العربية عن النكسة فيرى الباحث الامريكى سكدر فى دراسته الشاملة عن مواقف المفكرين العرب فى حرب ٦٧[٢٠]، أنها تتسم بما يلى:

١- لا تستند هذه الكتابات إلى بيانات علمية محققة نظراً لندرة الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية المتعمقة التى أجريت على المجتمع العربى.

وحتى الدراسات التى أجريت بالفعل، فأغلبها دراسات وصفية تسجل الوضع الراهن للظواهر المختلفة، أكثر من تفسير نشوئها وتغيرها وزوالها.

٢- ومن هنا فإن المثقفين العرب الذين شاركوا بتحليلاتهم فى تحليل أسباب الهزيمة اصطنعوا لتدعيم تفسيراتهم لغة مجردة، تفتقر إلى فهم الواقع الاجتماعى والحضارة بناء على البحوث العينية التى تمت فعلا.

٣- بالرغم من القصور الواضح فى كم ونوع الدراسات الاجتماعية والانثروپولوجية الى أجريت فى العالم العربى، إلا أنه يمكن القول أن الكتابات العربية عن النكسة، لم تنجح فى الاستفادة من الأبحاث الموجودة والمنشورة بالفعل، ويحاول سكدر بذكاء أن يحلل أسباب عدم لجوء الكتاب والنقاد الاجتماعين العرب للدراسات العلمية الاجتماعية وهم بصدد تقديم تحليلاتهم وتفسيراتهم للوضع العربى الراهن.

يقرر سكدر إنه من غير المتواقع أن يلجأ المفكرون المحافظون والليبراليون إلى الاستعانه بهذه البيانات الإجتماعية، لأن الفئة الأولى منهم ترتبط مصالحها إراتباطا وثيقا بالحفاظ على الوضع القائم، فى حين أن مفهوم الفئة الثانية عن التغير مفهوم تطورى أساسا يقوم على مبدأ «دع الأمور تجرى كما هى laissez faire هى تتسم بوجه خاص بأنها لا تتبنئ وجهة نظر نقدية للواقع.

ونجد فئة ثالثة هى ما يطلق عليه سكدر «اليسار البوراجوازى» الذى يدعو أساسا إلى نمط عقلانى بدرجة صغيرة أو كبيرة للقومية العربية. وعديد من المثقفين الذين ينتمون لهذه الفئة يعتبرون أنفسهم ثوريين، ولكن اهتماماتهم بالوضع الراهن لمجتمعاتهم يحكمها انشغالهم ببعض الصياغات الشكلية، التى اقتبسوها من محاولاتهم التلفيقية للتوفيق بين بعض معطيات الأدب الثورى والأدب الليبرالى التى تبلورت فى مواقف اجتماعية حضارية بصورة أو بأخرى عن مجتمعاتهم. ومن هنا تفسير ما يسود كتاباتهم من تجريد مغرق، ومن تناقض فكرى داخلى.

كل ذلك بالإضافة إلى أن المثقفين فى هذه الفئة عاجزون عن التعامل مع البيانات الواقعية الناتجة عن البحوث العلمية.

ويبقى ما يطلق عليهم سكدر «اليسار العربى الراديكالى» ويتميز المثقفون الذين ينتمون لهذه الفئة بكونهم على عكس اليسار البورجوازى لا يتبنون نظرة مثالية تجاه دور الأفكار فى تحقيق الوحدة العربية والقومية العربية بل أنهم ليتبنون منظورا عمليا، وهم لذلك يرون أن هذين الموضوعين يحتلان المقام الثانى بالنظر

إلى متطلبات تحقيق العدالة بمفهومها الاجتماعى والسياسى. ولقد كان المظنون أنه مادام اليساريون العرب الراديكاليون يدعون إلى التغير الجذرى فى الوضع القائم الاجتماعى والسياسى، فإن عليهم عبء إثبات ضرورة وإمكانية القيام بهذا التغيير. ومن هنا كان المتوقع أن تعتمد كتاباتهم أساسا على نتائج البحوث الاجتماعية، بدلا من اصطناعها لغة مجردة بعيدة عن الواقع.

غير أنه فى الحقيقة، وهذا قد يبدو مثيرا للدهشة- كما يقرر سكدر- أن ممثلى هذا التيار يتلاقون مع ممثلى اليسار البورجوازى فى عدم اعتمادهم على نتائج البحث الاجتماعى. وهم يستخدمون بدون تحديد كاف مصطلحات أساسية فى التحليل النظرى مثل «الإقطاع العربى» و«الطبقة العليا الوسطى» و«الطبقة الوسطى».. الخ وحتى فيما يتعلق بمصطلحات «العمال» و«الفلاحين» و«الجماهير»، كل هذه لم تجد عناية فى تحديدها وتأصيلها على أساس واقعى، ونجم عن ذلك كله ضرب من ضروب الفوضى الثقافية.

٤- السمة الثالثة للكتابات العربية أنها تتسم بكونها تفتقر إلى النمو التراكمى وهذا ما يفسر سمات الإنقطاع بينها وعدم الاتصال.

ومن الواضح أن هذا التحليل الذى يقدمه سكدر لنوعية الكتابات التى تكون «أدب النكسة» ينطوى على بعض التعميمات، غير أنه يمكن القول أن سمة غالبة علي أدب النقد الاجتماعى العربى بوجه عام غلبه الأسلوب الإنشائى والتجريدى، الذى يفتقر إلى دقة الأسلوب العلمى، بما يتضمنه ذلك من تحديد واضح للمصطلحات.

وقدرة على العرض المنهجى للأفكار للخلوص إلى النتائج المنطقية للمناقشة. ويكشف عن ذلك بكل وضوح الكتب، والمقالات العربية التى تناولت أسباب النكسة. فغالبية هذه الكتابات كما سنرى بالتفصيل فيما بعد محاولات خطابية تحاول ما وسعها الجهد إثبات وتدعيم الموقف الايديولوجى المبدئى للكاتب، أكثر منها مناقشة علمية موضوعية للوضع العربى الراهن.

أدب النكسة فى ضوء التحليل الاجتماعى للعلاقات الدولية :

ينتمى أدب النكسة إلى نمط جديد من الدراسات الاجتماعية التى تركز جهودها على دراسة الأبعاد الاجتماعية فى الصراعات الدولية، باصطناع المناهج والأساليب السائدة فى العلوم الاجتماعية[٢١] ومن بين الموضوعات التى تدرس فى هذا المجال دراسة علم الاجتماع للصراع الدولى، والطبقات الاجتماعية والعلاقات الدولية، والجوانب السيوسيولوچية للسيادة القومية، التعاون الحضارى والعلاقات الدولية[٢٢].

فى ظل هذا الإطار يمكن القول أن الصراع العربى الاسرائيلى باعتباره صراعا دوليا يثير عديدا من المشكلات التى يمكن أن تخضع للتحليل الاجتماعى. إذ يمكن دراسته ليس فقط من وجهه نظر الباحث فى العلوم السياسية الذى قد يركز فحسب على المتغيرات السياسية المتعلقة بالصراع، وإنما من وجهة نظر الباحث العلمى الاجتماعى الذى قد يرى أن إجراء مقارنه بين طبيعة تكوين البناء الاجتماعى فى اسرائيل وفى البلاد العربية المشتركة مباشرة فى الصراع، مسألة بالغة الأهمية فى فهم نشأة الصراع وتطوره

ووصوله إلى مرحلته الراهنة. وهذه المقارنة قد تضع فى اعتبارها موضوعات متعددة مثل نوعية الأيديولجية السائدة لدى الطرفين، وتكوين الصفوات السياسية الحاكمة وإتجاهاتها، والتقدم الحضارى، ومشكلات التخلف والتنمية وتأثيرها على الصراع، وقد يمتد البحث لدراسة الشخصية القومية لكل طرف من الطرف الصراع والصورة القومية التى كونها كل طرف عن الطرف الآخر(٢٣).

المناهج المختلفة في دراسة أدب النكسة :

أثار المثقفون العرب وعدد من الباحثين الاسرائيليين فى دراساتهم المتعددة لتحليل أسباب الهزيمة العربية فى ٥ يونيو ١٩٦٧ عديدا من المشكلات والقضايا الاجتماعية التى تستحق أن تحلل وتناقش بطريقة نقدية متعمقة. وقد أختلف الباحثون العرب والأجانب الذين اهتموا بالدراسة التحليلية لهذه الكتابات فى مناهجهم. ويمكن حصر هذه المناهج فى ثلاثة أساسية :

١- تصنيف التيارات الايديولوجية التي ينتمي إليها المثقفون العرب :

اتبع بعض الباحثين العرب منهجا محددا فى عرض وتحليل المادة التى تراكمت حول أسباب الهزيمة، وتتمثل فى تجميع هذه الآراء المتعددة وفق الإنتماءات الايديولوجية للكتاب والمؤلفين. وتوصل على دسوقى(٢٤) إلى تصنيف ثلاثى هو:

التيار العلماني الليبرالى : ويدعو هذا التيار لتجاوز النكسة عن طريق فصل الدولة عن التنظيم الدينى فصلا مطلقا، وتدريب العقل وتنظيمة بالاقبال على العلوم الوضعية والتجريبية(٢٥).

كما يدعو إلى أن يتم الإصلاح عن طريق الإصلاح التطورى لا عن طريق الثورة، وأن يعتمد على مبادرة القادة الذين يدفعون الإصلاح دفعا.

التيار الاسلامى الدينى : وينطلق هذا التيار أساسا من التسليم بعظمة الإسلام كعقيدة وشريعة، ويقرر أن سبب الهزيمة يكمن فى تخلى العرب عن دينهم، والإنتصارات فى عرف هذا التيار ليست رهينة بالقوة المادية وإنما هى نتيجة للأفضلية الروحية.

التيار الثورى : ويمكن القول إن النغمة الرئيسية فى كل الكتابات التى تشكل التيار التقدمى الثورى فى تفسير أسباب الهزيمة هى ضرورة القيام بثورة شاملة تؤدى إلى إجراء تغييرات جذرية فى جميع مجالات الحياة العربية.

- وقد لجأ الباحث الاسرائيلى هاركابى[٢٦] إلى تطبيق هذا المنهج أيضا، غير أن تصنيفه يضم خمسة تيارات كما يلى:

التيار الإصلاحى : ويؤكد الهزيمة جاءت نتيجة جوانب ضعف أساسية فى الإنسان، وفى المجتمع، وفى أنظمة الحكم العربية، وفى العلاقات بين الدول العربية. وعلى ذلك يدعو أنصار هذا التيار إلى ضرورة إجراء تغيرات جذرية وعميقة على الصعيدين الاجتماعى والسياسى، وينبغى العمل على خلق الإنسان العربى الجديد عن طريق إصلاح التعليم وتجديد الثقافة وإدخال النظم العصرية الحديثة إعتمادا على التطوير التكنولوجى، كل ذلك مع إضفاء الليبرالية على أنظمة الحكم.

التيار الثورى : هذا التيار مع إعترافه بوجود نقاط ضعف جذرية،

إلا أنه يحمل أنظمة الحكم المسؤولية فى المقام الأول، وهو يدعو إلى الثورة الشاملة باعتبارها الحل الأساسى للمشكلة، بما يتضمنه ذلك من ضرورة التخلى عن القيم التقليدية.

التيار الإسلامى : ويرى أنصاره أن المجتمع العربى قد ضعف نتيجة ابتعاده عن الإسلام، وأن حل المشكلة يتمثل فى العودة إلى الدين، وذلك من شأنه أن يحقق الإنتصار على إسرائيل.

التيار الحكومى (وخاصة جمهورية مصر العربية) : وهذا التيار يعترف بالضعف الداخلى، ولكنه يركز على التقليل من قيمة الهزيمة ومن أهميتها، ويميل إلى إلقاء تبعة الهزيمة على عاتق ظروف عارضة، ويرى أنها نتيجة أخطاء يمكن التغلب عليها وإصلاحها. والحل عنده لا يتمثل فى تغيير نظام الحكم، كما تتطلب الإتجاهات السابقة، ولكن بمنح الثقة للقيادة السياسية ويدعو لتقوية نظام الحكم.

تيار «فتح» ومنظمة التحرير الفلسطينية : الفكرة الرئيسية التى يصدر عنها هذا التيار أن وجود إسرائيل هو سبب الضعف العربى كله، ومادامت إسرائيل قائمة فإن كل علاج للإصلاح الداخلى يقوم به العرب هو عبث، ولذلك ينبغى تعبئة كل الجهود لمحاربه إسرائيل، وبعد الإنتصار، يمكن للعرب أن يفرغوا لبرامجهم الإصلاحية.

هذا هو المنهج الأول فى دراسة أدب النكسة، غير أن هناك منهجا أخر لايقف عند حدود تصنيف التيارات الايديولوجية التى ينتمى إليها المثقفون العرب، وإنما يتعدى ذلك لتصنيف أسباب النكسة كما وردت فى هذه الكتابات.

٢- *تصنيف أسباب النكسة* :

اتجه بعض الباحثين إلى تصنيف أسباب النكسة كما وردت فى

كتابات المثقفين العرب. وقد صنف بعضهم(٢٧) الأسباب التى ترددت فى الكتابات حول النكسة إلى ثلاث أساسية :

- *أسباب عسكرية :* تتعلق الأبعاد العسكرية فى المعركة.

- *أسباب سياسية :* تتعلق بالإفتقار إلى الوحدة القومية بين البلاد العربية، بالإضافة إلى الإعتماد الخاطئ على القوى الكبرى.

- *أسباب اجتماعية :* تتعلق بالأبعاد النفسية والاجتماعية والحضارية فى المجتمعات العربية التى أدت إلى الهزيمة.

٣- تطبيق منهج تكاملى فى دراسة أدب النكسة :

لعل دراسة سكدر تمثل هذا المنهج أصدق تمثيل، فقد استطاع أن يحلل أدب النكسة بتطبيق عدة مناهج هى :

(أ) تصنيف أسباب النكسة كما وردت فى الكتابات العربية، كما أشرنا فى الفقرة السابقة.

(ب) تحليله لأربع «دراسات حاله» Case Studies على أساس إختياره لأربعة مؤلفين عرب يمثل كل منهم تياراً أيديولوجيا متميزا لدراسته بقدر من التفصيل، وعلى هذا درس المؤلفين الآتيين:

أديب نصور، باعتباره يمثل المنظور المسيحى الدينى.

نديم البيطار، باعتباره يمثل التيار العلمانى القومى.

قسطنطين زريق: باعتباره يمثل التيار الحضارى.

صادق جلال العظم، باعتبارة يمثل التيار الراديكالى(٢٨).

والحقيقة أن هذا المنهج التكاملى يمكن له أن يدرس أدب النكسة بصورة أكثر شمولاً من المناهج السابقة، لأنه فى الوقت الذى يستخلص فيه أسباب الهزيمة التى تكررت فى الكتابات العربية

ويحللها، يحرص على عرض الأفكار الفردية لعدد من المؤلفين العرب، الذين يمثلون فى نفس الوقت تيارات أيديولوجية متمايزة.

منهجنا في دراسة أدب النكسة :

على الرغم من الفوائد الواضحة التى يمكن أن نكتسبها من تطبيق المناهج المختلفة السابقة فى دراسة أدب النكسة، إلا أننا نرى أنه ينبغى التركيز لا على التيارات الأيديولوجية، ولا على الأسباب العامة للنكسة، ولاعلى المؤلفين الأفراد فى تفردهم من ناحية، وتمايزهم عن بعضهم من ناحية أخرى، وإنما على المتغيرات الاجتماعية النفسية الأساسية التى أعتمد عليها الباحثون الإسرئيليون والمثقفون العرب فى تحليلهم لأسباب الهزيمة وطرق تجاوزها. وذلك لأن جعل هذه المتغيرات محاور أساسية لدراستنا النقدية من شأنه أن يلقى الضوء على الظواهر والنظم والعمليات الاجتماعية والحضارية التى أثرت ومازالت تؤثر فى مسار الصراع العربى الإسرائيلى، وفى رأينا أن هذه المتغيرات ثلاثة وهى: الشخصية القومية العربية، ونوعية بناء المجتمع العربى ومشكلة التحديث فى العالم العربى.

١- الشخصية القومية العربية :

أعتمد عدد من الباحثين العرب والإسرائيليين على السواء على هذا المفهوم لتفسير الهزيمة العربية فى يونيو ١٩٦٧. ومن هنا تبدو الأهمية القصوى لتحديد مفهوم الشخصية القومية كما يستخدم فى العلوم الاجتماعية، وذلك لبيان حدود هذا المفهوم ومدى شرعية استخدامه ووجهة نظرنا بصدده، خصوصا حين يعتمد عليه فى

إصدار تعميمات جارفه عن الإنسان العربى فى صراع تاريخى بالغ الضراوة كالصراع العربى الإسرائيلى.

إن الإنسان العربى فى المرحلة الراهنة من الصراع العربى الإسرائيلى، فى حاجة إلى أن يحصل على صورة موضوعية لحقيقة إمكانية وقدراته. وهذه الصورة حتى تكتسب ملامحها الموضوعية لا ينبغى أن تشكل عن طريق إكسابه وعيا زائفا بقدراته الخارقة التى لاتحدها حدود، ولا عن طريق الايحاء اليه- صراحة أو ضمنا - أنه كائن متخلف عاجز بحكم المكونات الأساسية لبنائة النفسى.

ومن هنا أهمية التحليل النقدى لمفهوم الشخصية العربية كما استخدم فى أدب النكسة. فعن طريق التحليل يمكن أن يزيد استبصارنا بامكانياتنا الحقيقية كعرب وأن يتعمق فهمنا للأسباب الحقيقية للهزيمة وللوسائل الثورية التى يمكن عن طريقها تجاوزها ولهذا كله أهمية بالغة بالنسبة لحاضر ومستقبل الصراع العربى الاسرائيلى.

٢- نوعية بناء المجتمع العربى:

ونجد أنفسنا بصدد هذا المتغير الثانى، بإزاء تفسيرات عربية وإسرائيلية متعددة، تحمل هذا البناء الاجتماعى بايديولوچيتة التى تدعو إلى القومية العربية والاشتراكية، وبمؤسساته الدينية والأسرية والسياسية وزر الهزيمة. إلى أى حد تصدق هذه التفسيرات؟ وإذا كان هناك قدر من الحقيقة فى بعض التفسيرات اليس هناك مجال لتغيير هذه المؤسسات فى الأجل القصير أو المتوسط أم أن التغيير يقتضى اجيالا وأجيالا من السنين؟ لاتخفى أهمية الاجابه الموضوعية على هذه الأسئلة.

٣- مشكلة التحديث فى المجتمع العربى:

إذا كان مفهوم الشخصية العربية هو المتغير الأول، وكانت نوعية البناء الاجتماعى العربى هو المتغير الثانى، فإنه يمكن القول أن التحديث يمكن النظر إليه باعتباره محصلة هذين المتغيرين. فعلى ضوء تحديد سمات الشخصية العربية من ناحية، ونوعية بناء المجتمع العربى من ناحية ثانية، يمكن تحديد إمكانيات المجتمع العربى فى خوض إختبار التحديث، مما يسمح بالتنبؤ بفرص إخفائه ونجاحه فى هذا المضمار. أى أن هذا البعد الأساسى لا يتعلق بالمدى القصير أو المتوسط كالبعدين السابقين، وإنما بالمدى الطويل، الذى ينبغى أن تتضح فيه القدرات الحقيقية للعالم العربى فى مواجهة التحدى الإسرائيلى. ومن هنا تبدو أهمية تحليل الرؤية الاسرائيلية لمشكلات تحديث العالم العربى. ومقارنتها بالرؤية العربية فى هذا المجال.

وينبغى أن نشير إلى أن بحثنا الراهن ليس تحليلا مباشرا للصراع العربى الاسرائيلى باستخدام منهج التحليل الاجتماعى، بقدر ما هو في الجانب الأكبر منه- حسب ما يطلق على بعض أنماط البحوث- تحليل من المستوى الثانى بمعنى أنه يعتمد على مادة مجموعة فعلا (تمثلها هنا المؤلفات والكتابات العربية والإسرائيلية) secondary analysis، ويخضعها للتحليل النقدى للوصول إلى نتائج محددة بشأن القضايا التى رأينا أنها كانت المحاور الرئيسية التى دار حولها التحليل الاجتماعى للصراع العربى الإسرائيلى.

ونظرا لإتساع مجال البحث، سنخصص هذا الكتاب لدراسة الشخصية العربية: بين المفهوم الاسرائيلى والمفهوم العربى، على أن

ونظرا لإتساع مجال البحث، سنخصص هذا الكتاب لدراسة الشخصية العربية: بين المفهوم الاسرائيلى والمفهوم العربى، على أن نلحقة بكتاب آخر عن «المجتمع العربى: الرؤية الاسرائيلية والرؤية العربية». ولعل ما يبرر خطتنا فى البحث أن المشكلات التى تثيرها دراسة الشخصية القومية تختلف نوعيا عن المشكلات التى يثيرها تحليل المجتمعات. وعلى ذلك يمكن القول أنه بالرغم من أن كل كتاب سيتناول موضوعا، إلا أن الصورة ستكتمل لدى القارئ بقراءة الكتابين معا اذ إنه على ضوء تحديد سمات الشخصية القومية وتعيين ملامح المجتمع العربى يمكن لنا ان نستبصر بالعوامل الاجتماعية والحضارية التى أسهمت فى وقوع الهزيمة.

الفصل الثانى

الشخصية القومية

المفهوم والاطار النظرى للبحث

- تمهيد
- أولا : مفهوم الشخصية القومية
  - دراسة الشخصية القومية
  - تاريخ البحث فى الشخصية القومية
  - مفاهيم الشخصية القومية
  - الوضع الحالى لبحوث الشخصية القومية
  - الانتقادات التى توجه لمفهوم الشخصية القومية

ثانيا : الاطار النظرى للبحث

- موقفنا من مفهوم الشخصية القومية
- دراسة الشخصية العربية.

تمهيد:

يمثل مفهوم الشخصية القومية أهمية خاصة بالنسبة لدراسة أدب النكسة سواء بالنسبة للكتابات الإسرائيلية، أو الكتابات العربية التى حاولت تفسير الهزيمة العربية. إذ نجد في بعض هذه الكتابات تركيزا على تحديد السمات النفسية والاجتماعية التى تشكل الشخصية العربية، باعتبار أن هذه الشخصية بسماتها المختلفة كالتواكل والسلبية وإنعدام المبادرة، وهى سمات لا تواكب الايقاع السريع للمجتمعات المتحضرة التى غزت مجالات العلم والتكنولوجيا، وتكمن فى المقام الأول وراء العجز العربى، الذى كشف عن نفسه على المستوى العسكرى والتنظيمى والاجتماعى فى معارك ٥ يونيو ١٩٦٧. ومن هنا تبدو أهمية الدراسة النقدية لمفهوم الشخصية القومية كما يستخدم فى العلوم الاجتماعية، وذلك قبل أن نعرض بالتحليل والنقد للكتابات الاسرائيلية والعربية عن الشخصية العربية.

والحقيقة أن مفهوم الشخصية القومية بالرغم من أنه من المصطلحات السائدة فى قاموس العلوم الاجتماعية منذ فترة ليست بالقصيرة، إلا أنه يمكن القول أن نظريات العلاقات الدولية لم تضعه فى اعتبارها إلا نادراً، ولعل هذا ما يفسر جدة مبحث التحليل الاجتماعى للعلاقات الدولية.

ويرى كينيث تيرهون فى دراسته الشاملة عن الشخصية القومية والسلوك القومى(١) أن هناك أسبابا أساسية أدت إلى ذلك أهمها:

١ – أن دراسة الشخصية القومية محمله بالمشكلات الإصطلاحية والمنهجية.

٢- هناك علماء اجتماعيون عديدون يتساءلون: هل يمكن أن يكون للأمم الحديثة المعقدة من وجهة النظر الحضارية شخصية قومية مفردة؟

٣- إذا صح أن هناك شخصية قومية، فهناك إتجاه إلى أنه يمكن أن ينطبق على الجماهير فى مجتمع ما، ولكن ليس على الصفوة أو القادة.

٤- وحتى إذا ما ظهرت سمات الشخصية القومية للأمة بالنسبة للصفوة السياسية، فإن قرارتهم غالبا ما تتأثر بالحقائق الصلبة للقوة، والجغرافيا والاقتصاد والتاريخ.

وبالرغم من ذلك، يمكن القول أن الاعتماد على الشخصية القومية فى مجال دراسة العلاقات الدولية، وبوجه خاص الصراعات الدولية أخذ يزداد فى الأونة الأخيرة(٢). ومن هنا أهمية دراسة هذا المفهوم بوجه خاص دراسة نقدية وعرض إطارنا النظرى الذى نتنباه، قبل التحليل المفصل لتطبيقاته فى مجال فهم وتفسير الصراع العربى الإسرائيلى.

أولا- مفهوم الشخصية القومية

دراسة الشخصية القومية:

موضوع الشخصية القومية من الموضوعات التى أصبحت تشغل بال كثير من العلماء الاجتماعيين الذين ينتمون إلى علوم إجتماعية

مختلفة. وتعنى دراسة الشخصية القومية بوجه عام- «دراسة أكثر سمات الشخصية شيوعا فى أى مجتمع للوصول إلى تقديم صورة مؤلفة من هذه السمات. وقد يكتفى الباحث بهذا الوصف أو يتبعه بمحاولة تفسير نشوء هذه السمات أو بدراسة مقارنة بين الشخصية القومية فى عدد من المجتمعات»(٣).

غير أن موضوع الشخصية القومية ليس من الموضوعات التى يسود بصددها الاتفاق بين الباحثين فقد اختلف العلماء على طبيعة الشخصية القومية وعلى المناهج التى يمكن دراستها على أساسها، وتساءل بعضهم كيف يمكن تمييز الشخصية القومية عن القيم وعن السلوك وعن السمات الاجتماعية المحددة؟(٤).

والحقيقة أن هناك خلافات شديدة تدور بين الباحثين حول أنسب المصطلحات للدلالة على الشخصية من ناحية وحول مدى صحة إستخدام هذا المفهوم ومدى قيمته العلمية(٥).

ونريد فى هذا الفصل أن نلقى الأضواء على بعض الجوانب الأساسية لمفهوم الشخصية القومية، حتى يكون ذلك بمثابة المدخل المنهجى لعرضنا النقدى للكتابات الاسرائيلية والعربية عن الشخصية، وما قيل عن مسؤوليتها الجزئية عن هزيمة يونيو ١٩٦٧.

تاريخ البحث فى الشخصية القومية :

يمكن القول أن تاريخ البحث فى الشخصية القومية ينقسم إلى مرحلتين متمايزتين: مرحلة التفكير المبنى على الأفكار النمطية Sterotypes، والمرحلة العلمية التى يرى كثير من الباحثين أنها بدأت مع الحرب العالمية الثانية وتتميز باستخدام المناهج والأساليب الحديثة الشائعة فى العلوم الاجتماعية.

(أ) مرحلة التفكير المبنى على الأفكار النمطية : Stereotypes

لابدّ لنا أولا أن نحدد معنى مصطلح الأفكار النمطية أو «القوالب الجامدة». استعار الصحفى والمفكر الأمريكى المعروف والتر ليبمان هذا المصطلح من عالم الطباعة حيث يشير إلى القالب الذى تُصبّ على نسقه حروف الطباعة، لكى يستخدمه فى مجال أخر بعيد تماما هو مجال الإتجاهات والأفكار إذا اتسمت العمليات الذهنية التى تشكل مادة الخبرة فى نماذج ثابته بطابع جامد متصلب. ويوضح ليبمان فكرته فيقول: «فى هذه الحالة- أى إذا فكرنا من خلال القوالب الجامدة - فنحن لانرى الأشياء أولا ثم نعرفها، ولكن نحن نعرفها ثم نراها من بعد. فنحن نلتقط من الخضم الهادر للعالم الخارجى ما سبق لحضارتنا التى نعيش فى رحابها أن عرفته لنا، ونميل إلى تبنى هذه الآراء التى يحدث كثيرا أن تكون قد صيغت فى صورة قوالب متجمدة. ومن الواضح أن هذه الطريقة فى التفكير لها أخطاء شتى»(٦).

ونستطيع إذا نظرنا إلى أوروبا أن نلتمس آثار هذه الطريقة فى التفكير حيث نجد تاريخا حافلا بالفروق القومية. ففى بعض الأحاديث اليومية التى يتبادلها الأوروبيون، وفى مقالات الصحف والمجلات توجد مناقشات وأحكام تدور حول الفروق بين الألمان والايطاليين، أو بين البلجيكيين والهولنديين، أو حتى بين أهل شمال ايطاليا وجنوبها، وليس ذلك أمرا مثيرا للغرابة، إذ يمكن القول أن كل جماعة قومية تنمى عبر فترة من الزمن بعض القوالب الجامدة عن أعضاء القوميات الأخرى (مثل أحكامنا على الانجليز

بأنهم يتسمون بالبرود الشديد)، بيد أن النظرات الإنطباعية التى تسود بين مختلف الجماعات عن الشخصيات القومية لم تفسح الطريق أمام الدراسات العلمية إلا منذ عام ١٩٤٠، حيث بدأت مجهودات جادة لإستطلاع طبيعة الفروق المحددة بين الشخصيات القومية بطريقة منهجية، وبذلك ننتقل إلى المرحلة الثانية من مراحل تاريخ البحث فى الشخصية القومية.

(ب) المرحلة العلمية :

كانت للمعلومات المتعددة التى جمعها الباحثون فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن المجتمعات غير الغربية، أثر كبير فى إمداد الباحثين برؤية أوسع عن مدى الفروق التى توجد بين الشعوب فى مسائل عديدة أهمها :

– اختلاف اللغات.

– إختلاف الأنماط المعرفية والإدراكية التى تحدد وتعرف البيئة الطبيعية والاجتماعية.

– اختلاط أنماط العلية والمنطق.

– الأنماط غير المعتادة لإتخاذ القرارات فى الجماعات الاجتماعية المختلفة.

– أنماط المسؤولية وأنماط السلطة.

– الأنماط المختلفة للتعبير عن النفس وطرق إخفاء المشاعر والأحاسيس.

– الإختلاف فى التعريفات الأخلاقية للقيم.

ويمكن القول أن هذه البيانات الثرية المتنوعة قد ألقت بظلال

الشك على السمات «العامة» (الثابتة) التى كانت تضفى على الطبيعة النفسية للانسان، وعلى العناصر الأساسية لحياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ويكاد يجمع الباحثون على أن الحرب العالمية الثانية كانت نقطة انطلاق ضخمة لبحوث الشخصية القومية. فقد كون عدد من الأنثروبولوچين خلال فترة الحرب- فكرة مؤداها أن فهم المحددات الثقافية للاختلاف بين الشخصيات القومية له أهمية قصوى فى فهم المجتمعات الغربية ذاتها. وآمن هؤلاء أيضا بأن التفهم الواعى للسمات العامة المشتركة فى الحرب، يمكن أن يؤدى إلى فهم وتحليل التطورات الاجتماعية والسياسية التى تأخذ مجراها فى هذه الأمم واعتقدوا من ناحية أخرى أن التحليل المنهجى للشخصية القومية داخل المجتمعات الغربية، يمكن أن يؤدى إلى إكتساب استبصارات خاصة بضروب الأزمات الدورية وسوء الفهم، الذى كثيرا ما كان يقع بين الأفراد الذين ينتمون إلى الجماعات القومية المتعددة الداخلة فى حدود الدول المتحالفة وقتذاك.

وقد تتالت والدراسات والبحوث التى دارت حول الشخصية القومية. ففى المدة بين عام ١٩٤٢ وعام ١٩٥٣ صدرت فى الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من عشرة كتب ألفها أنثروبولوچيون وتناولت موضوع الشخصية القومية عند الامريكيين واليابانيين والصينيين والألمان والروس.

وليس هناك خلاف بين الباحثين فى أن الحاجة العملية التى أملتها المصالح السياسية لبعض الدول، كالولايات المتحدة الأمريكية

على وجه الخصوص كان لها أكبر الأثر في دفع الدراسات وبحوث الشخصية القومية، فقد أدت الحرب العالمية الثانية إلى ضرورة أن يفهم الأمريكيون اليابانيين بغرض السيطرة على الحرب وللوصول إلى سلم دائم. ولذلك جمعت بعض الهيئات الرسمية في الولايات المتحدة الأمريكية عددا من الأنثروبولوجيين وعلماء النفس، وطلب منهم التوصل إلى تحديد سمات الشخصية القومية لليابانيين. وقد واجهت هؤلاء العلماء مشكلة عويصة، هي ضرورة دراسة الشعب الياباني «عن بعد» In Absentia ذلك لأن الملاحظة المباشرة كانت مستحيلة في ظروف الحرب. ولذلك أجروا استبارات (مقابلات) مع مئات اليابانيين الموجودين خارج اليابان، كالمهاجرين وأسرى الحرب. وطبقت عليهم اختبارات نفسية، كما طلب منهم كتابة سير ذاتيه عن تواريخ حياتهم، ودرسوا بطرق أخرى متعددة، ومثلهم أيضا الأمريكيون الذين سبق لهم أن عاشوا في اليابان. كما حللت الأفلام السينمائية اليابانية لإكتشاف نمط الشخصية اليابانية. ومن بين الوسائل التي لجأوا إليها أيضا قراءة الكتب التي ألفت عن اليابان وتحليلها، كما ترجمت كتب أدبية وتاريخية يابانية، وفحصت المجلات الشعبية، والكتيبات السياسية والكتب الدراسية.

وقد استخدمت كل البيانات التي جمعت في أغراض شتى أهمها إعداد البرامج الأذاعية الموجهة لليابان، وفي كتابة النشرات والمطبوعات الموجهة لهم، وفي تدريب الجيش الأمريكي وضباط البحرية الأمريكية، وإعدادهم للحكم العسكري لليابان، وفي وضع وتحديد سياسية الإحتلال الأمريكي، وأخيرا في إعداد معاهدة السلم مع اليابان(٧).

وقد نشرت بحوث متعددة فى المجلات العالمية عرضت لأهم نتائج هذه البحوث والدراسات. كما أن الأنثروبولوجية الشهيرة روث بندكت قائد فريق البحث والمشرفة عليه جمعت أبرز النتائج فى كتاب معروف هو :«The chrysanthemun and The Sword»

هذه هى بوجه عام مراحل تاريخ البحث فى الشخصية القومية. وإن كان هناك بعض العلماء الذين لا يسلمون تماما بهذا التقسيم ويرون أنه من التعسف القول أن المرحلة العلمية فى بحث الشخصية القومية قد بدأت فى الأربعينات مع الحرب العالمية الثانية. فيرى عالم الاجتماع الأمريكى دون مارتيندال أنه يمكن التأريخ لهذا التيار ببداية صحوة الروح القومية فى أوروبا(٨). ويقرر أن إرهاصات الاهتمام بالفروق بين القوميات ظهرت فى كتابات مونتسيكيو وبوجه خاص فى كتابه المعروف «روح الشرائع». فقد استطاع مونتسيكيو عن طريق البيانات المتعددة التى جمعها عن القوميات والشعوب المختلفة أن يدحض الزعم الذى كان يروجه العقليون، والذى مؤداه أن الطبيعة الانسانية واحدة فى كل مكان. فقد أثبت أن تغاير الظروف المحلية من مكان إلى مكان من شأنه أن يحدث إختلافات قليلة أو كبيرة تؤثر على ما كان يسمى بالطبيعة الانسانية العامة.

ويؤيد وجهة النظر السابقة «فيرتانيه» الذى يذهب إلى أن بعض المؤرخين مثل المؤرخ الفرنسى الشهير الكسيس دى توكفيل صاحب المؤلفات المعروفة عن «النظام القديم والثورة» و«الديمقراطية فى أمريكا» يعد رائدا فى تحليل الشخصية القومية(٩).

والواقع أننا نميل إلى تأييد وجهة نظر مارتيندال وفيرتانية، فمن الصعب قبول الزعم الذى يذهب إليه عدد كبير من الباحثين والذى

مؤداه أن المرحلة العلمية فى تاريخ البحث فى الطابع القومى للشخصية بدأت فقط منذ الأربعينات. فإذا كان هؤلاء يقصدون «بالعلمية» مجرد الإستعانة بأدوات البحث الاجتماعى الحديثة من استخبارات واختبارات وغيرها، والتى لم تكن بطبيعة الحال تحت يد مونتسيكيو أو توكفيل فليس معنى ذلك أن نقبل هذا الحكم، ونرفض التحليلات العميقة الزاخرة بالاستبصارات ذات الدلالة التى نجدها فى كتابات مونتسيكيو وتوكيفل. فمما لاشك فيه أنه لايمكن مقارنة هذه التحليلات بأنماط التفكير غير المبنية على سند علمى. ذلك مونتسيكيو وتوكفيل إستعانا بالملاحظة المباشرة التى زودتهم ببيانات فى غاية العمق عن عديد من المجتمعات الانسانية فى زمانهم والملاحظة المباشرة منهج معتمد من بين مناهج البحث الاجتماعى ويشهد على ذلك ريمون أرون بصدد منهج توكفيل. فقد قرر أنه يبدأ بتحديد بعض السمات البنائية المحددة للمجتمعات المعاصرة، ثم ينتقل بعد ذلك للمقارنة بين مختلف نماذج هذه المجتمعات. وهذا المنهج الذى اصطنعه واشتهر به يجعله من رواد علم الاجتماع المقارن البارزين(١٠).

ومع ذلك يمكن القول أن ما يميز دراسات وبحوث الشخصية القومية فى الحقبة الأخيرة إعتباره موضوعا مستقلا للبحث، يقصد لذاته. ولاتتم معالجته عرضا كما كان يحدث فى كتابات كثير من المؤرخين أو علماء الاجتماع السابقين. ولكن ليس معنى بروز ذاتيه خاصة للموضوع، إنتفاء الخلافات بصدده بين الباحثين فقد تعددت الآراء حول طرق تحديد مفهوم الشخصية القومية.

مفاهيم الشخصية القومية :

يستخدم مصطلح الشخصية القومية - بوجه عام- لوصف السمات النفسية والاجتماعية والحضارية لأمه ما، تلك التى تتسم بثبات نسبى، والتى يمكن عن طريقها التمييز بين هذه الأمة وغيرها من الأمم.

غير أن هذا المعنى للشخصية القومية والذى قد يتفق عليه غالبية الباحثين، لايعنى أن المشكلات التى يثيرها هذا المفهوم قد حلت بعض هذه المشكلات له طابع أكاديمى بحت مثل محاولة تحديد العلم الاجتماعى الذى ينتمى له هذا المفهوم وهل هو الأنثروبولوجيا الاجتماعية أم علم النفس أم علم الاجتماع(١١)، وبعضها يتعلق بتعدد المفاهيم التى تشير إلى ظاهرة الشخصية القومية. والحقيقة أن تعدد المفاهيم يعكس فى نفس الوقت تعدد الأطر النظرية التى ينطلق منها الباحثون.

وهناك ثلاثة مفاهيم أساسية تشير إلى الشخصية القومية وهى: البناء الاساسى للشخصية، والطابع الاجتماعى، والشخصية المنوالية(١٢). وسنحاول تحديد كل مفهوم فى ايجاز.

(أ) البناء الأساسى للشخصية :

يرتبط مفهوم البناء الأساسى للشخصية باسم «كاردنر» الذى يذهب بعض الباحثين إلى أنه كان أول من استخدمه فى كتابه المعروف «الفرد ومجتمعه» الذى صدر فى نيويورك عام ١٩٣٩. ويعتبر هذا المصطلح أداة تفسيرية بنيت على ضوء الملاحظات التى استخلص منها أن الناس فى ثقافة معينة يميلون إلى أن يتشابهوا

فى شخصايتهم. وقد قدم رالف لينتون الذى اشترك مع كاردنر فى تأليف كتاب معروف هو «الحدود النفسية للمجتمع» الذى صدر فى نيويورك عام ١٩٤٥، تعريفا للبناء الأساسى للشخصية، تبناه كل الكتاب الذين يهتمون بهذا الموضوع. ويذهب هذا التعريف إلى أن «البناء الأساسى للشخصة يشير إلى تشكيل الشخصية الذى يشترك فيه غالبية أعضاء المجتمع، نتيجة للخبرات التى اكتسبوها معا». وهذا المفهوم لا يتطابق مع الشخصية الكلية للفرد، ولكن مع ما يطلق عليه كاردنر الأنساق الإسقاطية فى الشخصية، أو بعبارة أخرى مع أنساق القيم والاتجاهات التى تعد أساسية بالنسبة لتشكيل شخصية الفرد. وعلى ذلك يمكن لنفس أنماط الشخصية الأساسية أن تنعكس فى ضروب مختلفة من السلوك.

غير أن ينبغى لرفع الغموض الذى قد يكون كامنا فى هذا التعريف أن نتتبع مع كاردنر كيفية التوصل إلى مفهوم البناء الأساسى للشخصية من خلال تطور التفكير النظرى، وعلى ضوء البحوث الأنثروبولوجية الواقعية على السواء(١٢).

ويرى كاردنر أن عملية تكيف الإنسان مع البيئة الاجتماعية من الموضوعات البالغة الأهمية التى تدرس فى البحوث المتعلقة بالثقافة. وأى ثقافة من الثقافات تتكون من مجموعة من النظم الاجتماعية وقد ثارت مشكلة تتعلق بتحديد العلاقة بين هذه النظم داخل نفس الثقافة. والمحاولات الأولى التى بذلت لتحديد هذه اللعلاقة اعتمدت على علم النفس المرضى، وظهر مصطلح «النموذج الثقافى النفسى» Psychological cultural pattern.

ومع ذلك فالمحاولات الأولى التى حاولت المشابهة الوثيقة بين المجتمع والفرد لم تستطيع أن تقدم أساسا صالحا لمفهوم ديناميكى للمجتمع والميزة التى لا تنكر لمصطلح النموذج الثقافى أنه اعترف بالحقيقة التى مؤداها أن ثمة علاقة وطيدة بين الشخصية والنظم الاجتماعية، وأن هذه العلاقة تتسم بالدوام، غير أن إثبات هذه العلاقة بطريقة تجريبية محققة بغير اللجوء إلى وصف بعض التشكيلات الذهنية التى غالبا ما تتكون لدى الأفراد، ظل مشكلة منهجية عويصة.

وقد ساعدت دراسة المجتمعات البدائية على تنمية هذا التشكك المطلوب. إذ يمكن القول أن المتجمعات البدائية أبسط فى تركيبها من المجتمعات الحديثة المعقدة، وبالتالى فالمشكلات النفسية التى يمكن تواجدها فيها تكون أكثر اتساقا وبساطة. وكانت المشكلة اختيار تكنيك سيكولوجى يكشف عن ذلك. بيد أن المدارس السيكولوجية التقليدية لم تقدم هذا التكنيك. فلا المدرسة السلوكية ولا مدرسة الجشطلت، قدمتا أكثر من محاولات متفرقة لكى تحل هذه المشكلة وكان التحليل النفسى هو التكنيك الذى يحتل مركزا أفضل من غيره لحل هذه المشكلة. ومع أن فرويد نفسه قد قام بتطبيق مبادئ التحليل النفسى على علم الاجتماع، إلا أنه لم يقدم تكنيكا تجريبيا محققا. فقد كانت جهوده على - وجه الإجمال- موجهة نحو التحقق فى المجتمع البدائى من وجود التشكيلات النفسية التى توجد لدى الانسان الحديث. وهذه المحاولة كانت فى الواقع متسقة مع الغرض التطورى الخاص بنمو المجتمع والثقافة، الذى كان سائدا فى نهاية

القرن التاسع عشر. ومن بين المقترحات الهامة التى قدمها فرويد وجود تشابه بين سلوك الانسان البدائى وبين الاعراض العصابية.

وقدمت أيضا بعض الفروض الأخرى غير المثمرة، نتيجة لمحاولة بسط نطاق هذه المشابهة على حدود واسعة جدا، ومع ذلك يمكن القول أن دراسة نشأة الأمراض العصابية فى الفرد، قدمت أساسا لفهم الأدوات التكيفية الضرورية للانسان. وقد ادى التخلى عن الفرض التطورى الذى اعتمد عليه الأنثروبولوجيون الأوائل اعتمادا كبيرا، إلى تسهيل التكامل بين كل من التكنيكين الأنثروبولوجى والسيكولوجى. وحل محل هذا الغرض مفهوم الثقافات ككليات وظيفية، وهو المفهوم الذى درست المجتمعات البدائية على أساسة ويعد مالينوفسكى من أوائل من عرض وجهة النظر هذه.

وأيا ما كان الأمر، فيمكن القول أن كل الكسب الذى نجم من تطبيق مفهوم «النموذج الثقافى» على المجتمعات البدائية هو: الانطباع بأن النظم داخل مجتمع ما تُعد– لدرجة كبيرة– منسقة مع بعضها البعض، وأن هذا الاتساق يمكن أن يوصف على ضوء مصطلحات المشابهة الموجودة فى علم النفس المرضى. لقد كان هذا كسبا محققا ولكنه لم يكن تكنيكا للبحث.

وكان أبرز نهج ظهر من بعد حل مشكلة التوصل لتكنيك بحث محدد، هو أن تستخدم الحقيقة المعروفة بأن الثقافات تنتقل داخل أى مجتمع من جيل إلى أخر. وكان طبيعيا حينئذ، أن يحاول الباحثون تنمية وتطوير هذا التكنيك بمساعدة الصياغات الموجودة فى «نظرية التعليم» Iearning theory غير أنه ظهرت جوانب القصور فى

الاعتماد على نظرية التعليم، من أهمها أن هناك -وفق ما نعلمه عن عمليات تأثير الثقافات على بعضها وانتشارها- حدا يتعلق بمضمون الثقافة التى يمكن أن تنتقل عن طريق عمليات التعلم المباشر. ومن ناحية أخرى ثار التساؤل: إذ ما كانت عملية التعلم بمفردها يمكن أن تفسر إنتقال الثقافة فإنه من الصعب فهم السبب الذى يجعل الثقافة تتغير بغير أن تستعير شيئا من الثقافات الأخرى. والمشكلة أن عمليات التعلم لاتستطيع أن تفسر الطابع التكاملى للذهن الانسانى، وذلك إذا ما وضعنا فى الاعتبار العلاقات الانفعالية للفرد مع بيئته، وهناك عامل آخر يحدث فعله وهو عامل يستطيع تكنيك التحليل النفسى أن يلقى عليه مزيدا من الضوء. فبالاضافة إلى عمليات التعلم المباشر، فإن الفرد بنى سلسلة بالغة التعقيد من الأنساق التكاملية التى ليست نتيجة للتعلم المباشر.

وكل العوامل التى سبق عرضها قد وضعت فى الاعتبار حين صيغ مفهوم «البناء الأساسى للشخصية». مع ذلك يمكن القول أن الاعتراف بأن ثمة أبنية أساسية للشخصية تختلف فى المجتمعات المختلفة، لايسير أبعد مما فعل مفهوم «النموذج الثقافى النفسسى» إن هذا المفهوم تصبح له دلالة إجرائية فقط حين يمكن إستخلاص تعميمات لها دلالة نتعلق بالعلاقة بين تشكيل البناء الأساسى للشخصية وبين الأمكانيات النوعية الخاصة بتكيف الفرد.

ويخلص كاردنر من عرضة إلى أن التحقيق من أن مفهوم البناء الأساسى للشخصية أداة دينامكية فى البحوث السوسيولوجية لم يكن حكما مسبقا. فقد كان ذلك نتيجة استخلصت من وصف

ثقافتين قام به لينتوف: ثقافة التنالا Tanala وثقافة الماركويزان Marquesan، وكان الغرض من تحليل هاتين الثقافتين هو ربط الشخصية بالنظم الاجتماعية.

وفى تحليل هاتين الثقافتين وضحت-كما يقرر كاردنر- فعالية مبادىء التحليل النفسى. فقد بدأت التحليلات بدراسة الأنساق التكاملية التى تتكون عند الطفل بواسطة الخبرات المباشرة خلال فترة النمو. بعبارة أخرى كان النهج المطبق تكوينيا وقد طبق على أساسين: أن العمليات التكاملية تأخذ مجالها بالفعل فى العمل، وأن نتائجها يمكن التعرف عليها.

ولكن التكنيك الذى يتبع هذا النمط يمكن أن تحده بعض القيود، وأهمها ان الباحث يعد مواطنا فى مجتمع غربى، فإذا كان فوق ذلك متخصصا فى الأمراض النفسية فسيتأثر فى تفسيراته بسمات الاضطرابات العصابية والذهانية كما هى موجودة فى مجتمعه هو، وبالرغم من ذلك القيد أمكن التوصل إلى نتائج هامة منها:

- فى أى ثقافة، تعد الأتساق الدينية تكرارا لخبرات الطفل مع النظم الأبوية.

- لوحظ أن مفهوم الإله يوجد بطريقة عامة، ولكن وسائل استجلاب العون الإلهى تختلف بحسب الخبرات النوعية للطفل، وبحسب اهداف الحياة الخاصة كما يحددها المجتمع.

- فى ثقافة ما قد يتخذ طلب العون الإلهى صورة الاحتمال الشديد والصبر، ولكن فى ثقافة أخرى قد يتخذ صورة عقاب الذات طلبا لرحمة الإله.

وهـذه الإخـتـلافـات ترد إلـى الـتـأثيـرات المخـتـلـفـة التـى شـكـلـت الـشـخـصية فـى كل ثقافة نوعية. ويمكن من هـذا الارتباط استخلاص نتائج بالغة الأهمية.

- بعض الوسائل المستقرة لمعاملة الطفل لها أثر فى تشكيل الاتجاهات الأساسية إزاء الأباء، وهذه الاتجاهات يكون لها وجود دائم فى الأساس الذهنى للفرد. ويمكن أن يطلق على النظم التى يستقى منها الطفل النامى الخبرة، وهى المسؤولة عن تكوين هذه التشكيلات الأساسية: النظم الأولية. والأيديولوجيات الدينية، ووسائل الحصول على رضا الإله تعد- إلى حد كبير- متسقة مع هذه التشكيلات الأساسية، بل إنما تعد قد استخلصت منها عن طريق عملية اسقاط Projection، بعبارة أخرى النظم الأولية ترسى الأساس للنسق الاسقاطى الذى ينعكس بعد ذلك فى نمو نظم أخرى. وهذه النظم الأخرى التى نمت كنتيجة للأنساق الاسقاطية يمكن أن يطلق عليها نظما ثانوية.

وإذا كانت هذه العلاقات صحيحة، فإنه ينتج من ذلك أنه بين الخبرات الأولية التى يحصل عليها الطفل وبين النتائج النهائية كما تبدو فى سلوك الفرد، وكما يمكن التعرف عليها من خلال المظاهر الاسقاطية، نجد حلقة يمكن أن نطلق عليها البناء الأساسى للشخصية.

غير أن أهم فكرة قدمها كاردنر بعدما بسط مفهومه فى البناء الأساسى للشخصية، أن أثر التنظيم الاقتصادى على تشكيل البناء الأساسى للشخصية من واقع الدراسات الأنثروبولوجية اثر حاسم.

وقد عنى بالعرض المفصل لحالة مجتمع بدائى كان يقوم اقتصاده أساسا على زراعة الارز بطريقة جافة وكانت ملكية الأرض جماعية، مما أعطى للبناء الأساسى للشخصية فى هذا المجتمع طابعا خاصا. ثم أدخلت طريقة جديدة فى زراعة الأرز عن طريق رية بالمياه، وأثر ذلك فى شكل الملكية فتحولت إلى ملكية فردية مما أدى إلى نشوء عديدمن الاضطرابات النفسية، وحدث تغير جوهرى فى طابع البناء الأساسى للشخصية.

(ب) الطابع الاجتماعى:

. يرتبط مصطلح الطابع الاجتماعي باسم عالم النفس والفيلسوف الأمريكى المعرفو أريك فروم والطابع الاجتماعى عنده هو النواة التى ينهض على أساسها بناء الطابع الذى يشترك فيه غالبيه الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافة ما، وذلك بالمقابلة مع الطابع الفردى الذى يختلف بصدده الأفراد – الذين ينتمون إلى نفس الثقافة– عن بعضهم البعض. غير أنه ينبغى أن نلم بوجهة نظر فروم بشئ من التفصيل حتى نستكشف أبعادها الأساسية(١٤).

وتجد نظرية أريك فروم فى الطابع الاجتماعى موضعها فى إطار وضعه هو بالنسبة للاتجاهات المختلفة فى التحليل النفسى. فإذا كان موقف سيجموند فرويد يمثل أقصى التطرف فى معسكر التحليل النفسى، فقد حاول بعض المحليين النفسيين من بعد كاردنر أن يعدلوا من المنهج الفرويدى، ثم نجد أخيرا فروم نفسه يحاول إدخال العوامل الثقافية والاجتماعية فى الإطار الفرويدى بصورة أكثر بروزا.

ويمكن القول أن نظرية فرويد فى الطابع تتكون من مجموعتين مختلفتين من الافتراضات والملاحظات:

- الأولى: هى الطابع الديناميكى لسمات الطباع، على أساس أنها ليست مجرد عادات، أو سلوك اكتسبت بالتدريب المبكر ويمكن طرحه جانبا حينما تنشأ أنماط جديدة من الثقافة، بل أنها كما عبر بلزاك عن الطباع «هى القوى التى تدفع الانسان».

- والثانية: افتراض أن كل الدوافع نجد جذورها فى رغبات جنسية ليبيدية(١٥).

ولا يمكن القول أن فرويد بذلك قد أهمل العوامل البيئية ذلك أنه فسّر تأثيرها على ضوء نظرية الليبيدو أيضا. فقد افترض أنه نتيجة لخبرات الطفل مع الاشخاص المهمين فى طفولته الأولى فإن الليبيدو الخاص به يتأثر ويتشكل بطرق معينة، ومن ثم فنمو الطابع يحدده تأثير العوامل البيئية على الليبيدو.

ومن الواضح أنه فى ضوء هذا النظر، فإن الخبرات المبكرة مثل الإطعام والتدريب على عملية التحكم فى اخراج الفضلات، ومختلف صور الرعاية الأموية تعتبر أهم البيانات بالنسبة لنظرية الطباع.

وقد أبدى عدد متزايد من الأنثروبولوجين والمحللين النفسيين اهتماما بنظرية التحليل النفسى الطباعية فى فهم مشكلات الثقافة. وإذا كان بناء الطابع يحدد أفعال ومشاعر وأفكار فرد ما، فإنه لابد أن يكون عاملا يعد بمثابة المفتاح لفهم الظواهر الثقافية والاجتماعية التى هى- بعد كل شئ- نتاج أعداد كبيرة من الأفراد.

وفى هذه المحاولة لتطبيق نتائج التحليل النفسى على مشكلة الثقافة يميز فروم بين ثلاثة نهج متمايزة: النهج الفرويدى المتطرف،

والنهج الفرويدى المعدل والنهج لاجتماعى النفسى، ولنلق نظرة على كل منها:

النهج الفرويدى المتطرف

الافتراض الكامن وراء النهج الفرويدى المتطرف هو أن الظواهر الاجتماعية والنماذج الثقافية يمكن تفسيرها بحسبانها نواتج مباشرة لاتجاهات ليبيدية معينة. وعلى هذا الاساس مثلاً فسرت الرأسمالية بحسبانها نتيجة للذة النرجسية، وفسرت الحرب باعتبارها نتيجة غريزة الموت. والمنهج الذى اتبع هنا هو التفسير عن طريق المشابهة analogy. وتبدأ العملية بمحاولة اكتشاف مشابهات بين الظواهر الثقافية والأعراض العصابية لمريض ما، ثم يشرع فى تفسير الظاهرة الثقافية كما لو كانت تسببت فيها نفس العوامل الليبيدية التى سبق أن فسر العرض العصابى على أساسها. وبالرغم من أن هذا المنهج قد هجره المحللون النفسيون، إلا أن عددا من الأطباء العقليين قد تبنوه. ويضرب فروم مثلا على هذا الاتجاه بدراسة بركنر Brickner التى جعل عنوانها «هل الألمان مصابون بالبارانويا» (جنون العظمة)؟ حيث حاول عن طريق تطبيق منهج فج للمشابهة أن يثبت الطابع الجنونى للثقافة الألمانية.

النهج الفرويدى المعدل

يتمثل النهج الفرويدى المعدّل فى أعمال كاردنر. ويختلف هذا النهج عن النهج المتطرف، فى كونه يعطى اهتمام جادا للبيانات الأنثروبولوجية والاجتماعية المتاحة، وباهتمامة بدراسة طرق تربية

الأطفال وتأثيرها على تنمية الشخصية. ولكن يرى فروم أنه بالرغم من المميزات التى يفضل بها النهج المعدل النهج الفرويدى المتطرف والفج، إلا أنهما يتشابهان فى جوانب كثيرة. فكاردنر يعتقد أن «البناء الاساسى للشخصية» تشكله مختلف وسائل تربية الطفل، وهذا بالتالى يشكل النماذج والنظم الاجتماعية. ويبدو اعتماد كاردنر على نظرية فرويد فى الليبيدو فى أحد مفاهمية الأساسية وهو «الرعايج الأموية» فهو يفسر الاختلافات فى الشخصية الاساسية وبالتالى فى الثقافة بالاختلافات فى الرعاية الأموية.

وبالرغم من أن كاردنر يضع فى اعتباره بعض العوامل الاجتماعية الاقتصادية باعتبارها تسهم أسهاما عليا فى نمو الشخصية الأساسية، إلا أن تركيزة على هذه العوامل يعد ظاهريا وليس حقيقا. فقد ذكر على سبيل المثال أنه فى الألور alor نجد النساء يعملن فى الحقول، وبالتالى فهن لايعطين رعاية أموية كافية لأطفالهن.

ها هنا حقاً ادخل كاردنر عاملا اجتماعيا اقتصاديا، ولكنه ينظر إليه فحسب كما لو كان له مجرد أثر (تكنيكى) على الرعاية الأموية، أى فيما يتعلق بمواصلة واستمرارية الإطعام والرعاية. وقد كان ينبغى فى نظرية تدور حول محور نوعية العلاقات الشخصية الوثيقة أن تكون أهم البيانات التى يسعى للكشف عنها هى اتجاه الأم إزاء الطفل، أى حبها وحنانها وقبولها للطفل..الخ ومن الواضح أن التعبير عن حب الأم وحنانها يمكن الا يقطعة إطار كاردنر، فهو يتحدث فقط عن «دوام الانتباه» للطفل من جانب الأم، وما يقطعة

من ضروريات السعى للحقول للعمل، بدون أن يشير إلى جماع العلاقة بين الأم والطفل.

النهج الاجتماعى النفسى

يعد أريك فروم هو صاحب النهج الاجتماعى النفسى كما يقرر هو بنفسه- وهو النهج الذى يدور حول مفهوم «الطابع الاجتماعى»(١٦). والطابع الاجتماعى فى نظر فروم- كما سبق أن أشرنا- يعد النواة التى ينهض على أساسها بناء الطابع الذى يشترك فيه غالبية الأفراد فى ثقافة ما. وفى مقابل ذلك نجد الطابع الفردى الذى يختلف يصدده الأفراد الذى ينتمون إلى نفس الثقافة عن بعضهم البعض.

والحقيقة أن نقطة البداية فى فهم مفهوم «الطابع الاجتماعى» عند فروم هو فهم نظريته عن الانسان. وهنا تبدو الاختلافات الجوهريه بين فرويد وفروم. فالخطأ الأساسى لفرويد-فى نظر فروم- هو أنه نظر للانسان بحسبانه نسقا مغلقا تتحكم فيه القوى البيولوجية أكثر من اعتباره كائنا تحدده الشروط الاجتماعية ومعنى ذلك، أنه فى الوقت الذى كانت فيه ملاحظات فرويد حاذقة وبالغة الأهميةكانت تفسيراته وتأويلاته خاطئة خطأ جسيما.

وعلى عكس الاتجاه البيولوجى المتطرف لفرويد، فإن فروم ينظر للانسان بحسبانه حصيلة اجتماعية، فطبيعة الانسان-كما ذكر فى كتابه «الهروب من الحرية»- وانفعالاته وضروب القلق التى تنتابه تعد حصيلة ثقافية، والانسان نفسه حقيقة يعد أهم خلق أو أنجاز للجهد الانسانى المستمر، الذى يسجل فى ما نطلق عليه التاريخ.

وهذا الاختلاف فى نقطة البداية له نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لعلم النفس بوجه عام وبالنسبة لدراسة الطباع بوجه خاص. فإذا كانت المقدمة التى يصدر عنها فروم أن الأنسان كائن اجتماعى فإن ذلك يستتبع أن كل علم للنفس لابد أن يكون فى أعماقة علم نفس اجتماعى.

أما بالنسبة لدراسة الطباع، فإن الاختلاف يعنى أن أساس الطابع يوجد فى الأسلوب الرئيسى لعلاقات الشخص مع العالم، وليس كما ظن فرويد فى الأنماط المختلفة للتنظيم الليبيدى.

ويقدم فروم تعريفا للطابع يركز فيه على الخلافات بينه وبين فرويد، فيقرر أن الشخصية هى: «الصورة النوعية التى تشكل فيها الطاقة الانسانية بواسطة التكيف الديناميكى للحاجات الانسانية الخاصة للوجود فى مجتمع معين(١٧)» ومهمة علم النفس إذن هى فهم كيف تشكل الظروف الاجتماعية للشخصية، وكيف تشكل الشخصية بدورها التاريخ. والانسان لكى يحيا لابد له أن يعمل وينتج، ومن خلال العمل يندمج الانسان فى تيار المجتمع، حيث يشغل مكانا محددا فى علاقاته مع باقى الناس.

والعمل دائما له صفه عينيه محسوسه لا مجرده، فهو نوع محدد من أنواع العمل فى نظام اقتصادى معين: فالانسان يعمل كعبد فى اثينا القديمة، وكقن من الأقنان فى فرنسا الاقطاعية. وكبائع متجول فى أمريكا الحديثة. والأنواع المختلفة من الأعمال تخلق أنماطا مختلفة من الطباع. وفروم يرى مع ماركس أن طابع الانسان يتوقف على وضعه فى نظام الإنتاج والتوزيع، «فطريقة

الحياة كما هى محددة للفرد بواسطة نوعية النظام الاقتصادى، تصبح هى العامل الأول فى تشكيل جماع بناء طابعة، لأن الحاجة الغلابة لحفظ التراث تجبر على قبول الشروط التى ينبغى أن يعيش وفقا لها».

وباختصار يمكن القول أن علم النفس عند فروم، الذى هو أساسا علم نفس اجتماعى، يعد بوجه خاص علم نفس اجتماعى ماركسى.

ويظهر ذلك كله من نظره فروم إلى المجتمع. فليس هناك عنده «مجتمع» هكذا على الإطلاق، بل هناك فقط أبنيه اجتماعية نوعية تعمل بطرق مختلفة يمكن تقديرها. وبالرغم من أن هذه الأبنية الأجتماعية تتغير عبر التطور التاريخى، إلا أنها تعد ثابته نسبياً فى أى حقبة تاريخية معينة، والمجتمع يمكن أن يوجد فقط من خلاله قيامه بوظائفه فى إطار بنائه الخاص، وأعضاء المجتمع، أو بعبارة أخرى، مختلف الطبقات وجماعات المكانه التى يتضمنها، عليها أن تسلك بطريقة تجعلها قادرة على أن تقوم بوظائفها وفق الروح التى يتطلبها المجتمع، ومن هنا فوظيفة «الطابع الاجتماعى» تشكيل طاقات أفراد المجتمع بطريقة لا تجعل سلوكهم متروكا للقرارات الإرادية الواعية لكى تحدد لهم ما إذا كان عليهم أن يتبعوا النموذج الاجتماعى أو لا، ولكن يجعل الناس يريدون أن يتصرفوا كما يتصرفون فعلاً، ولكى يجعلهم فى نفس الوقت يجدون رضاء فى تصرفهم وفق ما تتطلبه منهم الثقافة».

بعبارة أخرى وظيفة الطابع الاجتماعى تشكيل الطاقة الانسانية لتحقيق أغراض قيام مجتمع معين بوظائفة.

والمجتمع الصناعى الحديث، على سبيل المثال، كان لابد له أن يحول الحاجة إلى العمل لدى الناس necessity إلى دوافع drives تدفعهم له دفعا بغير أن يشعروا وتجعلهم يخضعون لكل متطلباته من التزام بالوقت وبالنظام... الخ.

ويرى فروم أن نشأة الطابع الاجتماعى لا يمكن فهمها بردها إلى سبب مفرد، ولكن يمكن ذلك عن طريق فهم التفاعل بين العوامل الاقتصادية والأيديولوجية والاجتماعية. ومادامت العوامل السياسية والاقتصادية أقل تعرضا للغير، فهى تلعب فى هذا التفاعل دورا بارزا. ومع ذلك فالأفكار الدينية والسياسية والفلسفية ليست مجرد أنساق اسقاطية، أى تتأثر أساسا بالعوامل السياسية والاقتصادية فقط. إذ بينما نجدها تضرب بجذورها فى الطابع الاجتماعى، فإنها بدورها أيضا تحدد الطابع الاجتماعى، وتضفى عليه بوجه خاص التناسق والثبات والحاجات الانسانية الأساسية المستقرة فى طبيعة الانسان تلعب دورا فعالا أيضا فى هذا التفاعل.

وبالرغم من أن الانسان يستطيع أن يكيف نفسه مع أى ظرف من الظروف تقريبا، إلا أنه ليس مجرد ورقة بيضاء تكتب عليه الثقافة نصوصها. فالحاجات الكامنة فى طبيعته والتى تجعله يسعى نحو السعادة والتوافق والحب والحرية، تعد عوامل ديناميكية فى العملية التاريخية الجارية، والتى إذا أحبطت ادت إلى نشوء ردود أفعال نفسية، تميل على المدى الطويل إلى خلق الظروف الأنسب لتحقيق هذه الحاجات الأساسية. وكلما كانت الظروف الموضوعية للمجتمع والثقافة ثابته، فإن الطابع الاجتماعى تكون له وظيفة

تثبيتيه أساسا. أما إذا تغيرت الظروف الخارجية بطريقة تجعلها لاتتناسب مع التقاليد والطابع الاجتماعى، فإنه تنشأ فجوة أو هوة من شأنها فى الغالب أن تجعل الطابع الاجتماعى يعمل كعنصر للتفكك بدلا من أن يكون عنصرا للتثبيت.

والحقيقة أنه مازالت هناك نقاط عديدة طريفة فى مفهوم الطابع الاجتماعى تستحق أن نعرضها ونقف عندها طويلا، غير أننا نكتفى بهذا القدر حتى يتاح لنا أن نوفى باقى الموضوعات الهامة التى تثيرها فكرة الشخصية القومية حقها.

(جـ) الشخصية المنوالية :

ونأتى أخيرا لثالث المصطلحات الاساسية التى تستخدم فى موضوع الشخصية القومية. هذا المصطلح استخدمه رالف لينتون واعتمد فيه على المصطلح الإحصائى المعروف «بالمنوال Modal» لكى يشير إلى «نمط الشخصية الذى يظهر بأكبر قدر من التكرار بين مختلف أنماط الشخصية فى مجتمع محدده».

وخلاصة ما سبق أن هناك مصطلحات ثلاثة أساسية تستخدم فى مجال دراسات الشخصية القومية وهى : البناء الاساسى للشخصية، والشخصية الاجتماعية، والشخصية المنوالية. وقد حاول بعض الباحثين تلمس الفروق المميزة بينها أو بين بعضها وبين مفهوم الشخصية القومية. فذهبوا إلى أن مصطلح الشخصية القومية يطبق فى الدراسات التى تجرى على المجتمعات الحديثة، فى حين أن مصطلح البناء الاساسى للشخصية قد طبق فقط فى الدراسات التى جرت على الجماعات الصغيرة التى تتميز نسبيا بأنها متماسكة ومثالها القبائل البدائية أو المجتمعات المحليه[١٨].

ومن ناحية أخرى يرى لينتون أن مصطلح الشخصية المنولية يختلف عن مصطلح البناء الأساسى للشخصية فى كون كل منهما يركز على جوانب معينة من نفس الظاهرة. فالشخصية المنوالية يمكن أن تصاغ مباشرة وبطريقة موضوعية عن طريق دراسة تكرارات مختلف تشكيلات الشخصية بين أعضاء مجتمع ما. أما مصطلح البناء الاساسى للشخصية فهو يعكس نظرة ديناميكية للشخصية بعبارة أخرى الشخصية المنوالية مصطلح يركز على الجوانب الكمية، فى حين أن البناء الاساسى للشخصية يركز على الجوانب الكيفية فى نفس الظاهرة.

الو ضع الحالي لبحوث الشخصية القومية :

إذا كنا عرضنا فيما سبق لتاريخ البحث فى الشخصية القومية والمفهومة فإنه يحق لنا أن نتساءل عن الوضع الحالى للبحوث فى هذا الميدان.

يقرر الأنثروبولوجى الأمريكى داسون هويبل فى دراسة هامة له عن «الشخصية القومية من وجهة نظر الأنثروبولوجيا»(١٩) أن الموجه التى تصاعدت مع الحرب العالمية الثانية واستمرت بعد انتهائها سنوات والتى أدت إلى ظهور بحوث ودراسات متعددة ومتنوعة عن الشخصية القومية قد انحسرت فى الوقت الراهن ويستدل هويبل على صدق ملاحظته بالقياس الكمى للمقالات والكتب التى تصدر فى هذا الموضوع فى الوقت الراهن. ويرى أنه إذا تصفحنا مثلا المجلة المعروفة باسم «الأنثروبولوجى الأمريكى» طوال عام ١٩٦٥ فإننا لا نجد أثرا لأى مقال من أى نوع عن الشخصية

القومية. ومنذ عام ١٩٦٠ لم يظهر سوى كتابين كبيرين فى الموضوع ألفهما أنثروبولوجيون.

ويفسر هويبل سر انتشار هذه البحوث بالذات خلال الحرب العالمية الثانية على أساس أن هذه البحوث-كما سبق أن أشرنا- وضعت فى خدمة القوات العسكرية الأمريكية حتى يستطيع القادة أن يضعوا خططهم فى اخضاع بعض الشعوب على أسس علمية سليمة. (يكشف هويبل بهذا الصدد بوضوح عن تأثير وسيطرة الأجهزة الحكومية الأمريكية على الأوضاع العلمية ذاتها فى العلوم الاجتماعية فى الولايات المتحدة الامريكية).

فالأنثروبولوجية الشهيرة روث بندكت التى اشتهرت بأبحاثها عن الشخصية القومية لشخصية اليابانيين، قامت بهذه الأبحاث حينما كانت ترأس قسم التحليل الأساسى بمكتب المخابرات الأمريكية لأعالى البحار.

وقد اعترفت مارجريت ميد فى فى مقاله هامة لها بأن كل بحوث الشخصية القومية لم تكن تجرى لذاتها، وإنما كانت أشبه بالدراسات التطبيقية الغرض منها إمداد السلطات العسكرية والجهات الحكومية بالبيانات اللازمة، التى تسمح لهم بفهم القيم السائدة عند الشعوب التى تدخل الولايات المتحدة الأمريكية فى علاقات معها(٢٠).

وقد أحدث هذا الاعتراف الصريح- كما يقرر دافيد ماندلبوم- اضطرابا شديدا لدى عدد من الأنثروبولوجيين الذين تحمسوا لهذه الدراسات بحسبانها تحقق أهدافا علمية محضة، فإذا بها مكرسة تماما لخدمة أغراض غير علمية(٢١).

ويدافع هويبل عن الدراسات التى تمت بتكليف من السلطات والأجهزة الحكومية ويضرب مثلا بالذات دراسة روث بندكيت عن الشخصية القومية لشخصية اليابانيين. ويرى أن حصيلة هذه الدراسة كبيرة، وأن أوجه القصور فيها قد ترد إلى المنهج أو أدوات البحث، أكثر مما ترد إلى عوامل التحيز أو الضغط التى تعرضت له الباحثة من جانب السلطات الرسمية التى مولت البحث أو أشرفت عليه.

وأيا كان الأمر، فيبدو أن دراسات الشخصية القومية بحكم ارتباطها بأغراض غير علمية فى تطورها الحديث، أصبحت بالنسبة لاعداد كبيرة من الباحثين فى المجتمعات الغربية أشبة ما تكون بمنطقة «موبوءة» يجدر بالعالم الذى يريد أن يصون كرامة علمه أن يبتعد عنها. غير أن هذا الموقف لا يكفى بذاته للحكم لدراسات الشخصية القومية أو عليها، إذ لابد من تقدير أوجه النقد المنهجية التى توجه إليها.

الإنتقادات التى توجه لمفهوم الشخصية القومية :

وجهت إنتقادات متعددة لمفهوم الشخصية القومية، يمكن أن نصنفها إلى فئات متمايزة مع ملاحظة إحتمال وجود بعض التداخل بين هذه التصنيفات.

١- إنتقادات خاصة بسوء استخدام المفهوم :

يرى كارلسون أن تحليلات الشخصية القومية استخدمت غالبا لأغراض سياسية أو قومية لتمجيد شعب من الشعوب. وفى مثل هذه الحالة يكرس الباحث جهده لتصوير فضائل هذا الشعب

بالمقارنة مع باقى الشعوب[٢٢]. وقد استخدمت أيضا هذه الدراسات كوسيلة لأستنهاض همم الأمم حتى تقدم على إتخاذ قرارات سياسية عنيفه، ولتوكيد ذاتها.

وبالرغم من أن الباحث فى هذه الحالة قد يضع يده على بعض سلبيات شعبه إلا أنه غالبا ما يخفف من وزنها، وفى نفس الوقت يقلل من الصفات الايجابية للشعوب الأخرى. والموضوعية هنا عقوبتها إتهام الباحث أو الكاتب بالافتقار إلى الوطنية والانحياز إلى تمجيد الشعوب الأخرى.

لكل ذلك لايثق كثير من العلماء بهذه التحليلات ذلك أن محاولات التشويه الايديولوجى المتعمد تثقل هذا الميدان. إلى جانب أنه يزخر بالتعميمات الجارفة التى لاتنهض على أساس متين من التفكير النقدى المبنى على سند قوى من الحقائق.

٢- إنتقادات منهجية :

ذهب سوروكين إلى أن أغلب دراسات الشخصية القومية تعانى من عيوب رئيسية فهى إما أنها لاتقدم لما تقصده بالطابع القومى للشخصية، أو تعطى تعريفات غامضة. وهى من ناحية ثانية تغفل الفروق العميقة بين مجرد مجموعة ذرية من الأفراد وبين الانساق الاجتماعية والثقافية المتسقة، إن هذه الدراسات ترد الأمة أو أى نسق اجتماعى ثقافى إلى مجرد ضروب من السلوك لأفراد تتم المقارنة بينهم. ويرى سوروكين أنه حتى لو طبقت اختيارات نفسية أو أجريت استبارات (مقابلات) مع عدد محدود من الأفراد. فإن هذا لايسمح بتعميم النتائج على أمه بأسرها[٢٣].

٣- إنتقادات شاملة للميدان بأسره :

أجمل لندسمث وستروس أهم الإنتقادات التى وجهت إلى بحوث الشخصية القومية فى عدة نقاط أساسية. فهذه الدراسات منتقدة من ناحية الأطر المرجعية ومن ناحية النتائج التى توصلت لها، ومن ناحية البراهين العلمية التى اعتمدت عليها، ومن ناحية المناهج التى استخدمتها. كما أن هذه الدراسات تجاهلت التنوع الكبير من أنماط السلوك حتى فى المجتمعات البسيطة المعزولة، مما يصعب معه الحديث عن شخصية قومية. كل ذلك بالإضافة إلى الإفتقار إلى الدقة فى تعريف المتغيرات التى تعتمد عليها هذه الدراسات. وفى النهاية فبعض هذه الدراسات محدودة المجال جدا، أو أتبعت اسلوبا انتقائيا فى جميع البيانات أو فى الاعتماد على إخباريين لايمثلون مجموع السكان. هذه بوجه عام هى أهم الإنتقادات التى توجه لمفهوم الشخصية القومية وللدراسات التى قامت على أساسه.

ثانيا : الإطار النظرى للبحث

على ضوء العرض السابق الذى قدمنا فيه دراسة متكاملة عن المشكلات التى يثيرها مفهوم الشخصية القومية، يصح أن نتساءل: ما هو موقفنا من الاتجاهات النظرية المتعددة التى عالجت هذا الموضوع وتبنت مفهوما أو آخر للشخصية القومية من بين المفاهيم المتعددة التى تشير إليها من ناحية، وما هى المشكلات النظرية والمنهجية التى تثيرها دراسه الشخصية العربية من ناحية أخرى؟

موقفنا من مفهوم الشخصية القومية :

فى رأينا أن النهج الذى تبناه «أريك فروم» فى دراسته لما أطلق عليه «الشخصية الاجتماعية» لكى يميزه عن «الشخصية الفردية» هو- بوجه عام وبغير الالتزام بكل مسلماته- أسلم الاتجاهات النظرية فى دراسته الشخصية القومية؛ وذلك لأنه ينطلق من تصور شامل للطبيعة الانسانية فى إطار السياق التاريخى الذى يؤثر عليها، ويترك بصماته على ملامحها وقسماتها الرئيسية.

وهذا التصور الشامل ينطلق من الاطار الاشتراكى العلمى الذى ينظر للشخصية نظرة جدلية فى تفاعلها الدائم مع التكوين الاقتصادى والاجتماعى فى مجتمع محدد، أو تأثرها بنمط الإنتاج السائد فى عدة مجتمعات متشابهة(٢٤).

وهذا يعنى على وجه التحديد أن نمط الإنتاج السائد فى عصر ما أو منطقة حضارية محددة (كنمط الانتاج الاقطاعى أو الراسمالى أو الاشتراكى) من شأنه أن يشكل الشخصية الانسانية وفق خطوط متميزة.

فالشخصية الانسانية فى ظل نمط الانتاج الاقطاعى فيما يراه بعض الباحثين(٢٥) قد تأثرت ببساطه نمط الحياة وبطء أيقاعها فى المجتمعات الاقطاعية مما ادى إلى إتسام طرق التفكير بالثبات، وغلبه الجمود والتحجر على العادات الاجتماعية والقيم الاخلاقية. يضاف إلى ذلك تقديس شديد للماضى على حساب الحاضر والمستقبل، وشيوع التزمت وضيق الأفق فى مجال الفكر، والإيمان المفرط بالسلطة، وشعور الفرد بالاستسلام والعجز عن تغيير أى وضع من الأوضاع التى يجدها سائدة فى المجتمع.

غير أن هذا «النموذج المثالى» للشخصية الانسانية فى ظل الاقطاع، أتيح له أن تتبدل قسماته وملامحة بصورة جوهرية، نتيجة لإنهيار النظام الاقطاعى وبزوغ النظام الراسمالى، بما يتضمنه من قوى إنتاج وعلاقات إنتاج جديدة فأصبح التغيير هو شعار العصر الرأسمالى وخصوصا فى مراحلة الأولى، وساد الفرد نزوع نحو إستطلاع آفاق العالم الطبيعى وأصبح الانسان متفائلا معتدا بنفسة وقواه مؤمنا بأهمية العمل. ولعل أبرز السمات الجديدة التى اكتسبتها الشخصية الانسانية فى ظل النظام الرأسمالى هى الاعتراف بالسيادة المطلقة للعقل، والتخلى عن غالبية النزعات اللاعقلية التى كانت تسود العصر السابق، كل ذلك بالإضافة إلى نمو النزعة الفردية، فى مجالات الأخلاق والسلوك الاجتماعى.

بيد أنه لاينبغى أن يغيب عن أذهاننا أن الحديث عن تأثير نمط الإنتاج على تشكيل الشخصية الانسانية لا يجب ان يحجب عن أعيننا الحقيقة الهامة التى مؤداها أن التكوين الاقتصادى والاجتماعى فى مجتمع يظل هو الحاسم فى تشكيل الشخصية. بمعنى أن التاريخ لاجتماعى لقطر ما، تسوده العلاقات الرأسمالية على سبيل المثال، من شأنه أن يخلق نموذجا منفردا للشخصية الانسانية الواقعية، قد يختلف نسبيا فى كثير أو قليل مع النموذج العام للشخصية الانسانية فى ظل نمط الإنتاج الرأسمالى: بعبارة أخرى قد تعثر على سمات فريدة للشخصية فى مجتمع رأسمالى، لانجدها فى مجتمع رأسمالى آخر. فتجريد الحديث عن نمط الانتاج وتأثيرة فى الشخصية الانسانية، لاينبغى أن ينسينا أن الممارسات

السياسية والاجتماعية والحضارية فى مجتمع ما: هى التى تحدد فى التحليل النهائى نوعية الشخصية القومية. بعبارة أخرى تحدد الأيديولوجية المطبقة ونوعية الصفوة الحاكمة، والتركيب الطبقى فى المجتمع، والثقافة السياسية السائدة، وطرق التنشئه الاجتماعية وأنماط السلطة فى المجتمع واتجاهات الأفراد إزاءها كل هذه العوامل تحدد السمات الأساسية للشخصية القومية.

إن تحليل البناء الاجتماعى للشخصية الفردية من شأنه أن يكشف عن نمط تفاعلها مع البيئة الأجتماعية، ولايكفى هنا أن نتساءل عما تفعله الشخصية بل كيف تسلك الشخصية فى المواقف الاجتماعية المتنوعة.

ويمكن أن نبسط ذلك التحليل بالنسبة للشخصية القومية، التى يطلق عليها عالم النفس السوفيتى جورجى سميرنوف «بناء شخصية المجتمع» والتى يعرفها بأنها «تفاعل انماط الشخصية التى تتطابق مع البناء الاجتماعى للمجتمع»(٢٦)، وعلى ذلك فالسؤال الرئيسى يظل أيضا بالنسبة للشخصية القومية ليس عما تفعله فى مجال السلوك القومى فقط بل كيف تفعله.

بعبارة أخرى لا يكفى بالنسبة لشعب معين-كالشعب المصرى- واقع فى أزمة مصيرية كاحتلال أراضية بواسطة دولة معتدية، أن نتساءل ما الذى يفعله الشعب لمجابهة هذه الأزمة، ولكن أيضا كيف يسلك الشعب، بل وأبعد من ذلك ما تفسير سلوكة، أيا ما كانت وجهته، وسواء كان سلوكا سلبيا أو ايجابيا ويمكن بايجاز القول ان المنهج الاشتراكى العلمى فى دراسة الشخصية سواء الفردية أو

القومية، يتسم بسمات محددة تميزة عن غيره من المناهج المثالية التى تنظر للطبيعة الانسانية وكأنها شئ ثابت لايتغير، يمكن رصد سماته المتشابهة فى كل مكان.

وفى هذا الصدد يقرر ماركس «ان ظهور الماركسية أذاع الحقيقة التاريخية التى مؤداها أن عبادة الانسان المجرد ينبغى أن تخلى السبيل للدراسة العلمية للناس الواقعيين بعبارة أخرى للعلم الذى يدرس تطورهم التاريخى»(٢٧).

وخلاصة ما سبق ان مفهومنا للشخصية القومية يرتكز على المفهوم الاشتراكى العلمى للشخصية الانسانية(٢٨)، وخصوصا ما تعلق بريطة لسماتها وبالتغيرات التى تلحق بها وبالتكوين الاقتصادى الاجتماعى من ناحية وبالتاريخ الاجتماعى لكل شعب من ناحية أخرى(٢٩).

إذا كان ذلك هو مفهومنا للشخصية القومية، فما هو موقفنا من الدراسات التى يحفل بها التراث العلمى الاجتماعى الغربى والتى طبقت مفهوم الشخصية القومية لفهم السلوك القومى لشعوب متعددة؟ وما هو تقييمنا للانتقادات العنيفة التى وجهت للمفهوم نفسة وللدراسات التى قامت على أساسة وما هو رأينا فى مستقبل دراسات الشخصية القومية.

إذا تبنينا وجهة نظر الأنثروبولوجى الأمريكى هويبل، لخلصنا إلى أن مستقبل دراسات الشخصية القومية غير مشرق بالمرة، فهى فى نظره كانت مجرد موجه مصطنعه تسببت فى تصاعدها الحرب العالمية الثانية، ومادامت الحرب قد انتهت فقد آن للموجه ان تنحسر.

غير أن هناك كما أشرنا من قبل- علماء أخرين لايربطون بين النشأة العلمية لدراسات الشخصية القومية وبين نشأتها المصطنعه، فى الحرب العالمية الثانية.ومعنى ذلك أن الاهتمام العلمى بدراسة الفروق بين القوميات قد بدأ منذ عهد بعيد، وليس من الانصاف تحديده بالحرب، فإذا ما انتهت فقد أن لهذه الدراسات أيضا أن تنتهى ولذلك يرى بعض العلماء أن هجر مفهوم الشخصية القومية نهائيا يعد خسارة علمية محققة.

وفى رأينا أنه يمكن لبحوث الشخصية القومية أن تحقق الأمال المعقودة عليه، والفوائد التى ترتجى من ورائها لو توافرت فيها عدة شروط يمكن إجمالها فيما يلى:

١ - ينبغى على الباحث أن يحدد المفهوم الذى سيعتمد عليه من بين المفاهيم المتعددة السائدة فى الميدان والتى تدرس الشخصية القومية وفقا لها. هنالك كما ذكرنا مصطلح الشخصية القومية، ومصطلح البناء الأساسى للشخصية، ومصطلح الطابع الاجتماعى، ومصطلح الشخصية المنوالية، ومصطلح بناء شخصية المجتمع. على الباحث إذن أن ينتقى أيا من هذه المصطلحات، أو عليه بأن يقدم تعريفا واضحا للشخصية القومية إن رفض كل هذه المصطلحات وأراد أن يبدأ بداية جديدة، حتى يمكن تقييم نوعية البيانات التى يعتمد عليها وصدق تفسيره لها.

٢- على الباحث أن يعرف بدقة المتغيرات الرئيسية التى سيبنى عليها دراساته ومناقشاته.

٣- ينبغى على الباحث أن يحدد تطبيق مفهوم الشخصية

القومية، هل يبسط نطاقة على كل طبقات المجتمع، أم يقصر تطبيقة على بعض الطبقات دون الأخرى.

٤- ما هو المجال الزمنى لتطبيق الباحث مفهوم الشخصية القومية، بعبارة أخرى عليه أن يتخذ موقفا من موضوع استمرار الشخصية القومية أو انقطاعها أو تغيرها.

٥- غير أن الأهم من ذلك كله، أنه لايجوز للباحث أن يعمم ويتحدث عن الشخصية القومية، بغير أن يقارن بياناته ببيانات عن شعوب أخرى هذه الفكرة تثير ما هو فى لغة العلوم الاجتماعية بالمجموعات الضابطة.

فمثلاِ كيف يجوز علميا الحديث- بأى درجة من اليقين- عن الشخصية القومية المصرية بغير مقارنه مع غيرها من الشخصيات القومية؟ وما الذى يدرينا أن ما يعتبره الباحث سمات مميزة للمصريين، لا تشترك فيها شعوب أخرى؟ إن مستقبل هذه الدراسات- كما ذهب إلى ذلك أيزنك بحق- رهين بإجراء مسوح حضارية مقارنه على مستويات واسعة جدا، وإلا فستكون هذه البحوث مجرد صورة معدله من التفكير من خلال الأفكار النمطية الثانية، وهو تفكير غير علمى بالمرة كما سبق أن أشرنا.

إذا كان من ماسبق تحديدا واضحا لموقفنا من مفهوم الشخصية القومية بوجه عام، فإنه يبقى أن نعرض لبعض المشكلات التى تثيرها دراسة الشخصية العربية بوجه خاص.

دراسة الشخصية العربية :

سبق لنا أن حددنا طبيعة بحثنا الحالى فى الفصل الأول، حينما

قررنا أنه ليس دراسة مباشرة للشخصية العربية بقدر ما هو تحليل من المستوى الثانى للكتابات الاسرائيلية والعربية التى حاولت تفسير أسباب الهزيمة العربية فى ٥ يونيو، والتى ناقشت مسؤولية الشخصية العربية عن هذه الهزيمة.

ومع ذلك ينبغى أن نطرح منذ البداية السؤال الرئيسى الهام الذى يتعلق بهل يمكن الحديث عن شخصية عربية واحدة؟

يبدو أن الباحثين الذين يتجهون إلى وجود شخصية عربية، مع إعترافهم بالفروق الواضحة بين شعب عربى وشعب آخر، ينطلقون من أن هناك قيما حضارية مشتركة تؤثر على السلوك الإجتماعى للشعوب العربية المختلفة، مشتقة أساسا من الحضارة الاسلامية التى هيمنت على العالم العربى قرونا طويلة من الزمان.

غير أن الحديث عن الشخصية العربية لاينبغى أن يغفل وجود أنماط فرعية لهذه الشخصية داخل كل مجتمع عربى، هى حسبما يقرر لويس كامل: الشخصية البدوية، والشخصية الريفية، والشخصية الحضرية(٣٠).

وقد طرح لويس كامل المشكلة بوضوح حينما قرر أنه «يمكن أن نقسم المجتمعات العربية القائمة فى الوقت الحاضر إلى ثلاثة أنواع عريضة، يتميز كل نوع منها بخصائص اجتماعية ونفسية واقتصادية معينة رغم وجود بعض التداخل بينها: كثرة غالبة تقطن فى الريف وتشتغل بالزراعة، وقله قوية متزايدة فى العدد والنسبة تسكن المدن وفيها تتركز معظم النشاط السياسى والاقتصادى والثقافى، وهى الفئة التى تتعرض أكثر من غيرها للمؤثرات فى

الخارج، ثم أخيرا قلة أخرى متناقضة فى العدد والنسبة من البدو الرحل الذين ينتقلون وراء المطر للرعى وتحكمهم معايير القبيلة وتقاليدها أكثر مما تحكمهم قوانين مكتوبه».

ثم يتسائل: «هل يمكن أن نقسم الشخصية العربية إلى شخصية ريفية وحضرية وبدوية؟ والواقع أنه بهذا التساؤل إنما يربط ربطا وثيقا بين التكوين الاقتصاءى الاجتماعى وبين الشخصية كما سبق أن أشرنا فمن المؤكد أن نوعية قوى الانتاج وعلاقاته لابد أن تؤثر على تشكيل الوعى الاجتماعى للأفراد الذين ينتجون فى قطاع اجتماعى معين، مما يسم شخصايتهم بسمات محددة.

على ضوء ذلك كله، نرى أنه يمكن الحديث عن «الشخصية العربية» إذا وضعنا فى الاعتبار الحقيقه التى مؤداها أن «نمط الانتاج» السائد فى العالم العربى واحد تقريبا مما يترك اثره على تشابه مكونات البناء الفوقى. وهذا النمط ليس وحيد البعد إن صح التعبير، بل إنه يمثل خليطا من أنماط انتاجية متعددة بعضها كالنمط الاقطاعى اختفى واندثر فى العالم الأوروبى، وبعضها معاصر كالنمط الرأسمالى. إن الوصف الدقيق لملامح المجتمع المصرى- كما حددها فؤاد مرسى[٣١]- والتى أهمها فى رأية تعدد التكوينات الاجتماعية، يمكن أن تكون- وعلى وجه العموم- ممثله للمجتمعات العربية المعاصرة. فالمجتمع المصرى فى نظره «يتميز قبل كل شئ بتعدد التكوينات التى ينطوى عليها فهناك بقايا المجتمع الاقطاعى وهناك قطاع مختلط مصرى وأجنبى، وهناك قطاع الرأسمالى، وهناك قطاع عام، وهناك قطاع رأس المال الصغير،

وهناك القطاع التعاونى». ونستطيع فى الحقيقة أن نجد هذا التعدد فى أنماط الانتاج فى عديد من المجتمعات العربية.

وإذا قبلنا المسلمة المعروفة فى الفكر الاشتراكى العلمى والتى مؤداها ان نمط الانتاج بما يتضمنة من قوى الانتاج وعلاقاته لابد أن يرتبط به بناء فوقى supra Structure يتضمن الافكار الدينية والقانونية والقيم الحضارية النوعية والأبعاد الاجتماعية للغة السائدة لامكننا تفسير سر التشابة فى السمات الحضارية الأساسية وفى الاتجاهات الرئيسية فى مكونات الشخصية العربية.

غير أن شرعية الحديث عن سمات الشخصية العربية، لاينبغى أن ينسينا كما أشرنا أكثر من مرة، أن التاريخ الاجتماعى لكل قطر من الأقطار العربية من شأنه أن يكسب ملامح الشخصية القومية فيه سمات متفردة قد لاتوجد فى مجتمعات عربية أخرى.

وقد أدرك هذه الحقيقة بعض الباحثين العرب الذين اهتموا بدراسة الشخصية القومية لشعوبهم. وها نحن نجد عبد الجليل الطاهر(٣٢)– على سبيل المثال– وهو بصدد الحديث عن الشخصية العراقية، يربط سماتها وتطوراتها ربطا وثيقا بالمراحل المختلفة التى مر فيها التاريخ العراقى منذ الحضارة السومرية مرورا بالبابلية والأشورية إلى الحضارة العربية الاسلامية.

وبالرغم من ذلك نستطيع أن نلتمس عددا محددا من السمات تكاد أن تكون قاسما مشتركا فى مختلف نماذج الشخصية القومية العربية، مما يدعم من فكرة وجود شخصية عربية، يمكن تحديد ملامحها وقسماتها الرئيسية.

وعلى ضوء العرض السابق الذى تضمن تحليلا لمفهوم

الشـخصية القـومية وعـرضا للإطـار الـنظرى للـبحث، يمـكن لـنا أن ننطلق الآن إلى صميم البحث، ونعنى دراسة الشـخصية العربية بين المفهوم الاسـرائيلـى والمفهوم العربى، غير أن المفهوم الاسـرئيلى كما سيتبين بعـد قليل ليس مقطوع الصـلة بالمفهوم الغربى للـشـخصية العربـية، بل على الـعكس هناك صـلة عضـوية وثيقة بين المفـهومين. ومـن هـنـا كـان مـنطـقـيـا أن نبـدأ بـعرض وتحـليـل المفـهـوم الـغربـى للشخصية العربية.

الفصل الثالث

المفهوم الغربي للشخصية العربية

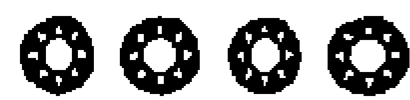
- المواجهة بين العرب والغرب.
- صورة اسرائيل والعرب فى الصحافة الغربية.
- صورة الشخصية العربية فى الصحافة الأمريكية.

المواجهة بين العرب والغرب:

اهتمت أجهزة الدعاية الاسرائيلية وكذلك عدد من الباحثين الاسرائيليين بنشر تحليلات متعددة للشخصية العربية بوجه عام، وللشخصية المصرية بوجه خاص، وإن كان الاتجاه الغالب فى هذه التحليلات عدم وضع فروق فاصلة بين الشخصية العربية والشخصية المصرية. وأهم ما يميز هذه الدراسات هو التركيز على الجوانب السلبية واغفال الجوانب الايجابية، بعبارة أخرى الالحاح على تقديم صورة مزيفة عن الشخصية العربية فى البلاد الغربية(١).

والحقيقة أن هذا الاتجاه يستمد أصوله من المحاولات المتعددة فى التراث الفكرى الغربى التى حاولت بدرجات متفاوتة من الموضوعية أن تصور للغربيين أخلاق وعادات العرب.

ولعله من المفيد -لكى نضع المحاولات الاسرائيلية لتشوية الشخصية العربية موضعها الصحيح- أن نؤصل بايجاز نشأة التصورات الغربية للشخصية العربية والمؤثرات الكامنة وراءها، منذ بدأ الاحتكاك بين الغرب والعرب، حتى وصلنا إلى المرحلة الراهنة التى تجابه فيها الأمة العربية اسرائيل، ومن ناحية كدولة توسعيه تحتل الأرض العربية، والولايات المتحدة الأمريكية من ناحية أخرى باعتبارها السند الرئيسى لاسرائيل.



يبدو أن الموقع الجغرافى الفريد للشرق العربى، حيث تتلاقى طرق المواصلات العالمية بين الشرق والغرب وجعل نشوء علاقات

تتفاوت فى عمقها بحسب المراحل التاريخية بين العرب والعالم الخارجى أمرا حتميا.

ويمكن القول أن هناك منذ القرن السابع حتى الآن أربع لحظات كبرى للمواجهة تمت بين الغرب والعرب(٢). وفى هذه المواجهات كان كل طرف ينظر للآخر ويصوغ له صورة محددة، وكانت مكونات هذه الصور تختلف من كل مرحلة إلى أخرى بحسب الظرف التاريخى الذى تتم فيه المواجهة، وبعبارة أكثر تحديدا بحسب ما إذا كان كل طرف منتصرا أو مهزوما، قاهرا أو مقهورا.

وهذه المراحل الأربع يمكن على وجه الاجمال تحديدها فيما يلى:

(أ) الغزو العربى الذى تم فى القرنين السابع و الثامن أساسا والذى يمثل فى عبور الجيوش العربية البحر الأبيض المتوسط، واحتلال الأندلس والنفاذ حتى أعماق فرنسا، إلى أن صد الغزو فظل العرب لمدة سته قرون فى الأندلس حيث أغرقت اللغة والحضارة العربية أوروبا.

على أن معرفة العرب بالأوروبيين ومعرفة الأوروبيين بالعرب كما يقرر عزت عبد الكريم- ظلت محدودة، ذلك أن العلاقات بين العرب وأوروبا كانت متأثرة بعوامل عديدة تجعل أثرها محدودا(٣). فقد كانت هذه العلاقات تتسم بطابع عدائى، فقد نظرت أوروبا إلى العرب باعتبارهم شعبا غازيا خرج من الجزيرة العربية مبشرا بدين مغاير لدينهم، وناشرا حضارة جديدة، ومن هنا وقفت أوروبا من العرب فى هذه المرحلة موقف الدفاع عن دينها وحضارتها وجماع كيانها، ولذلك سادت صورة عدائية عن العرب، فى العالم الأووبى.

(ب) الحروب الصليبية (من القرن الحادى عشر حتى القرن الثالث عشر) التى اتخذت الصليب شعارا لها، وخلاص الأرض المقدسة هدفا تسعى لتحقيقة. وقد كانت هذه الحروب فى الواقع-فى جانب منها- ضربا من ضروب أخذ الثار لأوروبا من العرب. وفى خلال هذه الحروب الممتدة، التى خاض المسيحيون والعرب غمارها، كانوا فى نفس الوقت يتعرفون على بعضهم بعضا على كل المستويات، كما هو الحال بالنسبة للمتحاربين فى أى حرب يطول أمدها.

فى هذه المرحلة اتسمت الصورة الأوروبية عن العرب بشئ من الاعتدال على عكس المرحلة السابقة فقد تعرف الأوروبيون على الجوانب الإيجابية فى الحضارة العربية.

ولقد كانت كفة العرب فى هذه المرحلة هى الراجحة «فقد كانوا يملكون من مقومات الحضارة المادية والعقلية ما يستطيعون أن يقدموا منه لأوروبا، بينما لم تكن أوروبا- حتى القرن السادس عشر-تملك من هذه المقومات مايملكة العرب لهذا أخذ الأوروبيون من العرب أكثر مما أعطوا»(٤).

لقد ظلت «الروح الصليبية» ان صح التعبير محركا رئيسيا من محركات التاريخ الأوروبى، لم يتوقف أثره إلا عند بداية القرن السابع عشر، وذلك لسببين هامين: أولاوهما «ان الحركة البروتستانتية قد مزقت كلمة العالم المسيحى كما أن التعصب الدينى الذى كان موجها نحو الاسلام قد وجه ناره آنذاك إلى الحرب الأهلية بأوروبا.. وثانيهما معركة «لبيانو» التى دمر فيها دون جوان

النمساوى قوة الترك البحرية بالنيابة عن أوروبا المسيحية. وبعد ذلك النصر أخذ خطر الاسلام يتضاءل شيئا فشيئا، وان ظلت الدولة العثمانية قوية عاتية وقادرة فى بعض الأحيان على دفع رحى الحرب إلى أبواب فينا. بيد أن الأمم الأوروبية الغربية لم يعد بداخلها من التركى بعد ذلك أى خوف(٥).

ويمكن القول أن صورة العرب فى ذهن الأوروبين قد تغيرت عبر هذه القرون الطويلة التى هيمنت عليها «الروح الصليبية» غير أنه مع رجحان الميزان لصالح الأوروبيين فى النهاية، لابد أنه قد أثر بالضرورة على تقييم الأوروبيين للعرب، بعبارة أخرى سادت اتجاهات المنتصر ازاء المهزوم، بما يصاحب ذلك من الحط من شأنه، خصوصا أن العالم العربى كان قد دخل فى مرحلة التخلف الحضارى.

(جـ) ونأتى للمرحلة الثالثة ونعنى مرحلة الغزو الاستعمارى (الذى بدأ منذ بدايات القرن التاسع عشر وامتد حتى النصف الثانى من القرن العشرين)، الذى سمح للأوروبيين، وبوجه خاص للفرنسيين والانجليز والايطاليين باحتلال كل العالم العربى الذى يطل على البحر المتوسط، وباستغلاله بصورة استعمارية، مما أدى إلى أن يترك هذا الغزو بصماته على سكان العالم العربى الذين وقعوا تحت سيطرته.

فى هذه المرحلة بالذات تبلورت النزعة العنصرية ضد العرب ويقرر بيتر وروسلى بهذا الصدد «بانتهاء القرن التاسع عشر أصبح تفوق أوروبا الطبيعى، مبدأ ساريا لامراء فيه. وقد حكم بالانحطاط

والضعة على حضارات الشرق المتنوعه التى كانت محترمة يوما ما»(٦).

ووصلت عجرفة بعض المفكرين الانجليز مثل «ماكولى» إلى حد أنه أدعى «أن رفا واحدا من مكتبة أوروبية جيدة يعادل كل التراث الوطنى للهند والجزيزة العربية»(٧)!!

فى هذه المرحلة «أصبحت كلمة «بدائى» سمة توصم بها شعوب العالم الملونة دون أى تمييز. وعكست العلوم الاجتماعية فى نموها هذا التقسيم للعالم، واقدم علماء الانسان (الانثروبولوجيا) على دراسة العالم غير الأوروبى بمعزل عن التقاليد الشعبية لفلاحى أوروبا نفسها»(٨).

فى هذة المرحلة، لم يقنع الغرب بالاستغلال الاقتصادى للعالم العربى، ولكنه ركز أيضا على ماطلق عليه «وروسلى» «استعمار الشخصية»(٩)، وان كان هذا النمط بالذات من أنماط الاستعمار، كان عملية معقدة ومطولة، استطاعت الشعوب العربية، بالرغم من ضراوة محاولات الاستعمار، أن تفلت منها، من خلال نضالها البطولى فى سبيل التحرر(١٠).

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الغرب – فى مرحلة غزوه الاستعمارى للعالم العربى لم يقنع بالترويج لصورة مزيفة عن العرب، تتسم بالإجمال، بل أنه حرص – عن طريق فلاسفته وعلمائه الاجتماعيين – على رسم صورة تفصيلية تركز على قصور العرب وتخلفهم. وفى هذه الصورة سنجد عديدا من الأحكام. من بينها ماقرره جورج ديهاميل عضو الأكاديمية الفرنسية

فى كتابه «حضارة فرنسا» فى أن «الذهنية الشرقية عاجزة تمام العجز، عن التفكير التركيبى، وعن تجاوز الذات»(١١).

ويلتقط باحث آخر هو «جيب» فى كتابه «الاتجاهات الحديثة فى الإسلام» هذا الخيط لكى يقرر أن الذهنية الإسلامية تتسم بالذاتية atomism، ويعنى بها «نزعة الفكر الاسلامى إلى اعتبار المفاهيم وظاهرات الطبيعة واحداث التاريخ منعزلة متفرقة، يعنى أن الفكر الاسلامى غير قادر على عمليات التركيب»(١٢).

أى أننا نجد هنا ترديدا لأحكام ديهاميل ومن قبله رينان وجوينو، وغيرهم من أقطاب الفكر العنصرى الأوروبى.

وفى معرض المناقشة النقدية لهذه الأحكام المتعسفة يقرر «الحبابى»(١٣) انه : «لن يستطيع أحد أن ينكر أن الذهنيات تختلف من شعب لآخر، ولكنه لن يقدر أحد أن يثبت أن تلك الاختلافات أصلية، نوعية، سلالية. حقا، أن الذهنيات متغايرة، ولكنه تباين من حيث المستويات لا من حيث الطبيعة».

إن اتهام العقل العربى بالقصور، الذى بذرت بذوره فى مرحلة الغزو الاستعمارى للعالم العربى، والذى كان جزءا من النظرة العنصرية للعرب، التى تبرر استعمارهم، سنجده من بعد على أيدى ممثلين جدد للفكر الغربى، ومن بعدهم للفكر الاسرائيلى لكى يبسط نطاقة فيشمل نزييف صورة الشخصية العربية بكل مقوماتها الأساسية.

(د) وتبقى أخيرا مرحلة ما بعد الاستعمار، التى يتقابل فيها الاوروبيون والعرب منذ فترة قصيرة، والتى يظهر فيها كل طرف باعتباره حرا، وله حقوق مثل ما للأخر تماما.

وتبدو فى هذه المرحلة أن العلاقات السلمية وصور التبادل بكافة انواعها وعلى جميع المستويات هى التى تحكم العلاقة بين العرب والأوروبيين. ولكن هذه فى الحقيقة ليست سوى الصورة الظاهرة؛ أما الحقيقة فهى ان الغرب قد استطاع أن يبقى له رأس حرية فى المنطقة، ممثلة فى اسرائيل مدعومة بالولايات المتحدة الأمريكية. وهكذا يمكن أن نخلص من هذا العرض التاريخى الوجيز، إلى أنه باستثناء الحقبة المعاصرة، وجد العرب والأوروبيون أنفسهم دائما فى علاقة عداوة مباشرة(١٥).

على ضوء ذلك كله، لايمكن تقدير العلاقات بين العرب والغرب، صورة كل منهم لدى الآخر، الا من خلال هذا الديالكتيك بين القاهر والمقهور، وعلى ضوء تحليل بنية الايديولوجيات العنصرية التى صيغت لكى تكون سندا للغزو الاستعمارى للشعوب المقهورة.

ولكن كيف يمكن فى المرحلة الراهنة تفسير العلاقة العدائية بين الغرب والعرب؟

يرى ميشيل سليمان(١٦) ان المشكلة بين العرب والغرب تتمثل فى وجود «فجوة اتصال» بينهما، نتيجة لعدة عوامل أهمها: العداء التاريخى الطويل بين المسيحية والاسلام، والغزو الاستعمارى للبلاد العربية، وانتماء العرب للعالم المتخلف، فى الوقت الذى مازالوا فيه مرتبطين بماضيهم المجيد، مما جعل درجة وعيهم بوضعهم البائس الراهن تزيد، وتزيد بالتالى درجة عدوانهم للغرب الذى تسبب أساسا فى هذا التخلف، وأخيرا دعم الغرب لاسرائيل كل هذه العوالم مرتبطة فرضت حدودا على امكانية التفاهم والاتصال بين العرب والغرب.

غير أن هذا الرأى-بالرغم من صحة الحقائق التاريخية التى يستند إليها- بتجريدة الحديث عن «فجوة الاتصال». انما يتجاهل النتائج التى يمكن أن يوفرها لنا التحليل الاقتصادى السياسى للعلاقات بين الغرب والعالم العربى فنتيجة لعلاقات السيطرة الاستعمارية فى صورتها الجديدة والتى نجح الغرب بدرجة صغيرة أو كبيرة حسب الأحوال فى فرضها على عدد من البلاد فى العالم العربى، كان لابد للقوى الاجتماعية والسياسية المسيطرة فى العالم الغربى أن تنحو فى تحديد صورة العربى وفى صياغة طابع الشخصية العزبية منحى أبعد ما يكون عن الموضوعية.

وتشهد على ذلك بحوث ميشيل سليمان نفسه-والتى سنعرض لأبرز نتائجها فيما بعد- الذى يحرص على أن يكشف قناع الموضوعية المزعوم عنه وجه الصحافة الغربية، فى سلسلة دراسات قام بها لتحليل مضمون عدد من أهم الجرائد والمجلات الأمريكية، لكى يحدد معالم الشخصية العربية كما تصورها هذه الجرائد وذلك أثناء أزمة السويس عام ١٩٥٦ وفى حرب ١٩٦٧.

إذن فالشمكلة ليست «فجوة اتصال» بقدر ما هى استمرار للاتجاه العدائى المتحيز الذى يمارسة ضد العرب منذ قرون طويلة، والذى كشف عن نفسه، ليس فى مجرد الغزو الاستعمارى للبلاد العربية، ولكن فى النظريات المزيفة التى تزخر بها ترسانة الفكر الغربى «عن تخلف العربى» اذا ما قورن بقرينه «الغربى المتقدم»(١٧).

فالعرب فى نظر الغربيين أناس ينتمون إلى جنس آخر، تشوب شخصيتهم القومية عيوب جسيمه كالكسل الفطرى والعقم

الفكرى، أما حضارتهم التى قادت الحضارة الانسانية يوما فهى فى نظرهم ضرب من ضروب الفولكلور، ولغتهم بربرية تسودها المبالغات(١٨).

ويوجز مورو بيرجر فى كتابه «العالم العربى» اليوم أسباب هذه العداوة مقررا «أنه لايعدل الجهل بالعرب فى الغرب سوى قلة التعاطف معهم ويرجع ذلك إلى :الصراع العربى الاسرائيلى، والانطباع الشائع والخاطىء، عن أن العرب يملكون مصادر بترولية ضخمة ولكنهم يضعونها، وأخيرا لمقاومة العرب للنفوذ الغربى السياسى»(١٩).

ولعل أبرز ما يوضوح أبعاد هذه العداوة الغربية الضاربة للعرب، دراسة الكيفية التى تصور الصحافة الغربية بها اسرائيل، من خلال رسم صورة ايجابية لها تتضمن بالضرورة صورة سلبية للعرب، وكيف تكشف الصحافة الأمريكية على وجه الخصوص عن تحيزها السافر ضد العرب الذى يظهر من محاولاتها الدائبة لتشوية الشخصية العربية.

صورة اسرائيل والعرب فى الصحافة الغربية :

يرى علماء السياسة أن «السيطرة على وسائل الاتصال الجماهيرية وبوجه عام التحكم فى حفظ المعلومات، ونقلها، يعد مكونا واضحا من مكونات القوة»(٢٠). وقد استطاعت اسرائيل فى حرب ١٩٦٧ أن تنجح نجاحا باهرا فى فرض وجهة نظرها على العالم، من خلال خطة اعلامية ذكية، واكبت بحرص وحذق شديدين حركتها السياسية قبيل وأثناء وبعد حرب ١٩٦٧.

غير أن ساعد اسرائيل على الترويج لوجهة نظرها، والتأثير

بالتالى على الجماهير فى مختلف البلاد الغربية فى مرحلة الحرب، أن وسائل الاعلام فى عديد من البلاد الغربية تقع تحت سيطرة القوى الصهيونية بصورة أو بأخرى.

ذلك أنه من الصعوبة بمكان أن تجد فى الصحافة الغربية تغطية غير متحيزة لأخبار العالم العربى، ونادرا ما تنشر الجرائد والمجلات الغربية تحليلات موضوعية عن جوانب التقدم فى البلاد العربية. وهذا الاتجاه السائد د لايبدو ظاهرا فى حالة الهدوء والسلم، ولكن خطورته الشديدة تبدو فى أوقات الازمات العنيفة فى منطقة الشرق الاوسط فى هذه الاوقات يبدو التحيز سافرا ضد البلاد العربية، فى حين يبدو الاتجاه التعاطفى القوى مع اسرائيل.

ولعل السؤال الذى يثور هنا ما الذى أدى إلى سيادة الاتجاه المعادى للعرب والمؤيد لاسرائيل فى وسائل الاعلام الغربية بوجه عام فى الولايات المتحدة على وجه الخصوص؟

فى رأينا أن مرد ذلك إلى عاملين أساسيين:

ضعف الاعلام العربى من ناحية، والتطويق الصهيونى للرأى العام الغربى(٢١) من ناحية أخرى.

فيما يتعلق بضعف الاعلام العربى يذهب سعد الدين ابراهيم(٢٢) إلى أن المشكلة ترد فى أحد جوانبها الى التصورات العربية المتناقضة لقضية فلسطين والتى يهيمن عليها موقفان متمايزان: تصور تقليدى ينطلق من النظر الى العدو الصهيونى ككيان دينى عنصرى منفصل عن اطارات الامبريالية العالمية ويشن حربا دينية عنصرية على العرب مسلمين منهم ومسيحيين، وبالتالى فان عصبية العدو

الامريكى لايمكن مجابهتها إلا بعصبية عربية اسلامية، وتصور تقدمى يرى فى «اسرائيل جزءا لا يتجزا من الاستعمار الغربى، وبالتالى فالمعركة بين العرب واسرائيل هى أو ينبغى أن تكون جزء لا يتجزأ من حركة التحرير العالمية».

ويرى سعد الدين ابراهيم ان التصور التقدمى لقضية فلسطين «ليس فقط أكثرو صوابا فى تصوير الواقع، ولكنه أيضا أكثر انفتاحا على العالم وعلى حركة التحرير والقوى التقدمية العالمية» وقد أخذ هذا التصور يتبلور منذ مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥. غير أن أجهزة الاعلام العربى فى الخارج لم تغير نظرتها من التصور التقليدى الى التصور التقدمى بنفس السرعة أو الدرجة. غير أن ما هو أخطر من ذلك أن المواطن العربى العادى ظل فى كثير من الاحيان، وفى ظل تأثيرات داخلية شتى فى الوطن العربى أسيرا للتصور التقليدى بأبعاده الدينية والعنصرية فقط.

غير أن ضعف الأعلام العربى يرد فى جانب هام منه، إلى أنه لم يتبع الطريقة العلمية فى فهم بناء وتكوين المجتمعات الغربية، والقوى الاجتماعية والسياسية التى تؤثر فى الرأى العام الغربى.

ويرى نفس الباحث أن دراسة القوى الأساسية فى المجتمع الغربى، والتى يجملها فى أربع قوى سياسية، تتفاوت أيديولوجيا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وهى: الرجعيون، والمحافظون، والأحرار، والثوريون، مدخل أساسى لنجاح الأعلام العربى، لأنه على ضوء هذه الدراسة يمكن التمييز بين الجماهير المختلفة ومخاطبة كل جمهور بلغته(٢٣).

اذا كان ضعف الاعلام العربى مسؤولا مسؤلية جزئية عن جهل المجتمعات الغربية بحقيقة اوضاع العالم العربى الاجتماعية وبالأصل التاريخى لقضية فلسطين، الا ان الاتجاه الغربى المعادى للعرب والمؤيد لاسرائيل يرد فى جانب هام منه للنشاط الايجابى للاعلام الصهيونى الذى أحسن استثمار كل العوامل التاريخية التى أشرنا اليها من قبل والكامنة وراء العداء الغربى للعرب.

ويكشف عن هذا النجاح بكل وضوح الدراسات العلمية المتعددة التى أجريت على الصحافة الأوروبية الأمريكية فيما يتعلق بالتغطية الاخبارية والتحليلية عن اسرائيل والعرب، حيث تجسم صورة ايجابية للمجتمع الاسرائيلى فى مقابل صورة سلبية للمجتمع العربى.

وقد أجريت عدة دراسات لباحثين أجانب وعرب عن التحيز الغربى لاسرائيل فى المجتمعات الأوروبية، وسنقنع بالاشارة الى دراستين احداهما فرنسية والأخرى مصرية.

الدراسة الأولى قام بها الباحث الفرنسى جان ويليام لابير وموضوعها: «التغطية الاخبارية عن دولة اسرائيل فى الصحف الفرنسية اليومية الكبرى عام ١٩٥٨»(٢٤)، وقد صدرت فى كتاب نشره المركز القومى للبحث العملى عام ١٩٦٨.

واختار الباحث عينه ممثلة من الصحف اليومية الفرنسية، وحرص على تمثيل صحف العاصمة وصحف الأقاليم فى نفس الوقت، فبلغت ٣٧ صحيفة يومية، حلل أعداد كل منها جميعا، الصادرة طوال عام ١٩٥٨.

وقد وضعت مشكلة البحث على أساس معرفة هل قدمت الصحافة الفرنسية دولة اسرائيل بطريقة ودية أم بطريقة غير ودية؟ بعبارة أخرى دراسة التغطية الاخبارية عن دولة اسرائيل لمعرفة موقف كل صحيفة فرنسية (من التى شملتها عينه البحث) فيما يتعلق بتوجية القارئ الفرنسى ناحية التعاطف مع اسرائل أو العداء لها[٢٦].

وقد كانت وحدة التحليل التى اعتدمت عليها الدراسة هى العبارة énoncé أى تحليل كل عبارة من العبارات التى تتكون منها الأخبار والتعليقات التى نشرت عن اسرائيل فى الجرائد الفرنسية التى أخضعت للدراسة.

وقد حصر البحث الموضوعات الرئيسية التى عالجتها الصحافة الفرنسية عام ١٩٥٨ فى ثمانية موضوعات، أربعة منها خاصة بالعلاقات الخارجية لاسرائيل، وأربعة خاصة بالحياة الداخلية لاسرائيل.

والفئة الأولى من الموضوعات هى:

- علاقات اسرائيل بجيرانها العرب.
- علاقات اسرائيل مع فرنسا.
- علاقات اسرائيل مع الأمم الغربية الأخرى أو مع مراكز القوة فى الغرب.
- علاقات اسرائيل مع الاتحاد السوفييتى وباقى دول أوروبا الشرقية.

والفئة الثانية من الموضوعات هى:

- سياسة اسرائيل الداخلية.
- تطورها الاقتصادى والاجتماعى.
- مشكلاتها الحضارية والدينية.
- وقائع أخرى(٢٧).

وقد صنف لابيير الموضوعات الثمان فى ثلاث فئات رئيسية(٢٨).

١- علاقات اسرائيل مع فرنسا.

٢- الفئة الثانية تجمع ثلاث موضوعات معا لتقاربها وهى ما يتعلق بالنظم السياسية والحكومية وكيان دولة اسرائيل نفسها التى أعلنت عام ١٩٤٨.

وكمثال للعبارات التعاطفية التى تتعلق بهذا الموضوع يمكن أن نجد عبارات مماثلة لما يلى:

اسرائيل بلد ديمقراطى، وهى أرض الحرية.

لاسرائيل قادة أكفاء تزخر نفوسهم بالصفات الانسانية الحميدة.

اسرائيل شعب يتسم بالتماسك القومى الوثيق، وهى مجتمع سياسى زاخر بالحيوية.

أما العبارات العدائية فيمكن أن تكون مماثلة لما يلى:

اسرائيل بلد يسوده تقييد الحريات، وهى بالتالى تفتقر الى الديمقراطية.

قادة اسرائيل عدوانيون لا مبادئ لهم، ويميلون الى الطغيان.

اسرائيل عبارة عن شعب منقسم، متمزق نتيجة للصراعات العنيفة.

. والازمات السياسية والاجتماعية، وبالتالى، فوجود اسرائيل كوحدة

قومية وجود واهن ومصطنع.

٣- أما الفئة الثالثة فى الموضوعات فتضم ثلاثة فرعية جمعت معا، تتعلق بالمجتمع الاسرائيلى، والحياة الاقتصادية والحياة الثقافية فى اسرائيل.

وسنقنع فيما يلى بعرض نتيجة تحليل الموضوعات التى تتعلق مباشرة بموضوعنا، وهى ثلاث، ونعرض فيما يلى ونناقش نتائج التحليل الكمى لهذه الموضوعات الثلاثة.

المو ضوع الأول

الطابع المميز للمجتمع الاسرائيلي

ويتضمن ذلك الحديث عن العدالة والرخاء والحضارة فى اسرائيل أو الظلم والكساد والخلل الحضارى.

جدول (١)

تطبيق الميزان بالنسبة لموضوع :

العدالة والرخاء والحضارة * الظلم والكساد والخلل الحضارى

اسم الصحيفة	النسبة
١ – وست فرانس	٢٢
٢– لابيش دى ميدى	٩ر٢
٣– لوبوبيلير	٧ر٨
٤– لوبروفنسال	٧ر٥
٥– الفيجارو	٦ر٧
٦– لوميدى لبير	٦ر١
٧– لافوادى نور	٥ر٤
٨– لامونتانى	٥ر٢
٩– لانوفيل ريبيلك دى سانتروست	٥
١٠– كومبا	٤ر٧
١١– لورور	٤ر٦
١٢– لى بروجرية	٣ر٨
١٣– لى ديرنيير نوفيل والساك	٣ر٦
١٤– ليست ريبليكان	٣
١٥– لاكروا	٢ر٨
١٦– لاباريزيان ليبرى	٢ر٦
١٧– سيد وست	٢ر٥
١٨– فرانس سوار	٢ر٤
١٩– بارى برس	٢ر٤

٢٠- الموند	٢ر٤
٢١- لويبيكان لوارن	٢ر١
٢٢- نورماتان	١ر٨
٢٣- لانفور ماسيون	١ر٧
٢٤- ليبراسيون	١ر٤
٢٥- لى دوفينى ليبرى	١ر٤
٢٦- لومانيته	٣ر.

يتضح من الجدول السابق[٢٩] أن جميع الجرائد الفرنسية التى حللت ماعدا جريدة لومانيته التى يصدها الحزب الشيوعى الفرنسى- قد قدمت لاسرائيل كما يقرر لابيير صورة ايجابية يتفاوت التأكيد عليها من بين صحيفة وأخرى كما يظهر من الجدول، تركز على انها مجتمع يسوده العدالة والرخاء والحضارة[٣٠].

فجريدة وست فرانس- على سبيل المثال- تسود المقالات والأخبار والتحليلات التى نشرتها طوال عام ١٩٥٨ نغمة التأييد المطلق لاسرائيل، حيث تضمنت تغطيتها الاخبارية ٦٦ عبارة تعاطفية فى مقابل ثلاث عبارات عدائية[٣١].

أما جريدة لومانيته فقد انفردت بزيادة العبارات العدائية لاسرائيل على العبارات التعاطفيه، وخاصة فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية والاجتماعية والحضارية.

وننتقل لمناقضة الموضوع الثانى عن الطابع الأساسى لدولة اسرائيل.

الموضوع الثانى

الطابع الأساسى لدولة اسرائيل

ويتضمن ذلك الحديث عن الطابع السلمى لاسرائيل أو نقيضة الطابع العدوانى.

جدول (٢)

تطبيق الميزان بالنسبة للموضوع :

الطابع السلمى لاسرائيل* اسرائيل دولة عدوانية

اسم الصحيفة	النسبة
١- لوبوبيلير	٣ر٥
٢- فرانس سوار	٣ر٦
٣- بارى برس	٣ر
٤- الفيجارو	٢ر٨
٥- لى باريزيان ليبرى	٢ر٨
٦- لى بروجريه	٢ر٨
٧- سيد وست	٢ر٨
٨- لانفروماسيون	٢ر٧
٩- كومبا	٢ر٥
١٠- ليست بيبلكان	٢ر٥
١١- نورماتان	٢ر٤
١٢- لورور	٢ر٣
١٣- لاكروا	٢ر٣
١٤- الموند	٢ر٢

١٥- لافوادى نور	٢ر٢
١٦- لادبيش دى ميدى	٢ر٢
١٧-لوريببلكان لوران	٢ر٢
١٨- لامونتانى	٢
١٩- ويست فرانس	٢
٢٠- لى دبر نوفيل والساك	١ر٧
٢١- لى دفينى ليبرى	١ر٧
٢٢- لانوفيل ريببلك دى سانتروست	١ر٧
٢٣- لوميدى ليببر	١ر٦
٢٤-ليبراسيون	١ر٥
٢٥-لوبروفنسال	١ر٥
٢٦-لومانيته	٠ر٠٧

ويتضح من الجدول السابق أن جميع الجرائد الفرنسية التى حللت ما عدا جريدة لومانيته- قد صورت اسرائيل باعتبارها دولة مسالة تخضع لهجوم العرب عليها، بما يتضمن ذلك بطبيعة الأحوال- تصوير العرب بأنهم عدوانيون، يمارسون أعمال العنف ضد دولة اسرائيل.

وننتقل أخيرا إلى الموضوع الثالث يتعلق بتحديد سمات القادة الاسرائيليين وسمات دولة أسرائل نفسها.

الموضوع الثالث
سمات القادة والدولة

ويتضمن ذلك الحديث عن الديمقراطية والقادة الاكفاء والتماسك القومى، أو القهر والقادة الطغاة والأمة المتمزقة.

جدول (٣)

تطبيق الميزان بالنسبة لموضوع:

الديمقراطية، الزعماء، الأكفاء، التماسك القومى

* القهر : الزعماء العدوانيون، الأمة الممزقة

اسم الصحيفة	النسبة
١ – لى ديريبيير نوفل والساك	٧ر٥
٢ – لوبوبيلير	٤
٣ – الفيجارو	٣ر٤
٤ – لى بروجريه	٢ر٨
٥ – لويروفنسال	٢ر٨
٦ – لاديبيس دى ميدى	٢ر٧
٧ – لوريبيلكان لوران	٢ر٤
٨ – لوميدى ليبر	٢ر٣
٩ – لورور	٢ر٢
١٠ – سيد وست	٢ر١
١١ – ليست ريبيلكان	٢
١٢ – لى دفينى ليبرى	١ر٦
١٣ – بارى برس	١ر٥
١٤ – نور باتان	١ر٥
١٥ – فرانس سوار	١ر٤
١٦ – لاكروا	١ر٤
١٧ – لاقوا دى نور	١ر٣
١٨ – لى الاريزيان ليبرى	١ر٢
١٩ – لانوفيل ديبلك دى سانتر وست	

٢٠- لانفور ماسيون	١ر١
٢١- كومبا	١
٢٢- وست فرانس	٩ر.
٢٣- لامونتانى	٨ر.
٢٤- الموند	٧ر.
٢٥- ليبراسيون	٤ر.
٢٦- لومانيته	٢٥ر.

ويتضح من الجدول السابق أن كافة الجرائد الفرنسية التى حللت ماعدا خمس منها- قد صورت اسرائيل باعتبارها واحة للديمقراطية، وهى كدولة تتسم بالتماسك القومى، ويحكمها قادة أكفاء يتسمون بالمسالمة: وذلك لأن عدد العبارات المتعاطفة مع اسرئيل فاق عدد العبارات العدائية بالنسبة لها.

غير أنه مما يلفت النظر، أنه بالنسبة لهذا الموضوع بالذات زاد عدد الجرائد الفرنسية التى تضمنت تغطيتها الاخبارية استنكارا لمسلك اسرائيل ازاء الدول العربية عن الموضوعين السابقين.

وخلاصة ما سبق، أنه وفق البحث الموضوعى الذى أجراه الباحث الفرنسى لابيير، يتبين أن الصحافة الفرنسية خلال ١٩٥٨، ممثلة فى ست وثلاثين صحيفة من كبريات الصحف الفرنسية، كانت متحيزة لاسرائيل تحيزا واضحا وصريحا، حيث ركزت على تقديم صورة إيجابية للمجتمع الاسرائيلى وللدولة نفسها وللقادة الاسرائيليين. ومن عيوب البحث الذى أجراه لابيير أنه لم يحلل بوضوح صورة العرب والمجتمع العربى فى هذه الصحافة، ولكننا

نستطيع بدون أن نتجاوز حدود الموضوعية العلمية أن نستنتج أن صوة المجتمع العربى كانت تقدم باعتبارها نقيض صورة المجتمع الاسرائيلى: بعبارة أخرى، كان يتم التركيز على تقديم صورة سلبية للانسان العربى والمجتمع العربى.

وإذا أردنا ان نوجز ملامح صورة المجتمع الاسرائيلى فى الصحافة الفرنسية فى هذه الفترة فانها يمكن أن تكون كما يلى:

«اسرائيل مجتمع متحضر تسوده العدالة والرخاء، وهى دولة مسألمة تسودها الديمقراطية وتتسم بالتماسك القومى، ويدير أمورها زعماء أكفاء مسالمون».

ان هذه النتائج التى استخصلها الباحث الفرنسى لابيير، تؤكدها نتائج دراسة مصرية قام بها حامد ربيع(٣٢) وحلل فيها أيضا مضمون عينة من الصحافة اليومية والأسبوعية الغربية، «أى الصادرة فى مجتمعات غرب أوروبة والمعبرة عن مواقف وضاحة من حيث تأييدها او عدم تأييدها لوجه النظر الاسرائيلية»(٣٣).

وأهم هذه الصحف التى أخضعها الباحث للتحليل هى: جريدة الموند الفرنسية، ومجلة الايكونوميست البريطانية، ومجلة الاكسبريس الفرنسية ومجلة لونوفيل ايزرفاتور الفرنسية(٣٤).

ويبدو أن المجال الزمنى للبحث عينه من عام ١٩٥٦ حتى ١٩٦٧(٣٥).

ومن الواضح أن هناك فروقا أساسية بين بحث لابيير وبحث ربيع لعل أهمها ما يلى:

١- ان بحث لابيير يركز على الصحافة الفرنسية فقط، وخلال عام واحد هو ١٩٥٨، حيث يدرس ٣٦ صحيفة فرنسية ممثلة دراسة

شاملة، بواسطة تحليل المضمون الكمى والكيفى، فى حين أن دراسة ربيع تغطى الصحافة الأوروبية بوجه عام من خلال دراسة تحليلية لعدد من الجرائد والمجلات الأوروبية غير الممثلة، بالاضافة الى أن مصدرين فقط هما اللذان غطتهما عملية التحليل عبر المجال الزمنى للبحث.

٢- يختلف منهج ربيع عن منهج لابيير اختلافا جوهريا، فالباحث الفرنسى يقنع باستخدام تحليل المضمون وان كان بصورة منهجية بالغة الدقة فى حين أن ربيع يصطنع منهجا أكثر تكاملا يعتمد على التحليل التاريخى عن طريق المتابعة الزمنية لتطور المواقف اليهودية المرتبطة بقضية الوجود الاسرائيلى، والتحليل الفلسفى الذى يدور حول اكتشاف عناصر ومقومات المنطق الاسرائيلى أو اليهودى، كما قدم دفاعا عن وجهة النظر الصهيونية، ثم تحليلا للشخصية اليهودية بوصفها- كما يقرر- «مركز الاشعاع الذى ينبعث منه تلك الفلسفة والذى تتحدد به تلك المواقف»(٣٦).

يتعلق ذلك بتوجيهات البحث ذاتها، أما من ناحية التكنيك فقد استخدم الباحث تحليل المضمون «والمقابلة المركزة لاستكمال الدلالات التى توصل اليها عن طريق تحليل المضمون»(٣٧).

والآن ما هى النتائج الرئيسية التى توصل لها ربيع فيما يتعلق بصورة إسرائيل فى الصحافة الأوروبية وصورة العالم العربى؟ قدمت هذه الصحافة صورة بالغة الايجابية لاسرائيل، تتفق عناصرها الأساسية مع الصورة التى قدمتها الصحافة الفرنسية

والتى حددنا ملامحها فيما سبق. تضم هذه الصورة العناصر التالية.

– اسرائيل حقيقة تاريخية

– اسرائيل ترتبط حضاريا بالوجود الغربى.

– اسرائيل تعبر أيديولوجيا عن العقائد السياسية، (الاشتراكية من ناحية، والديمقراطية من ناحية أخرى).

– اسرائيل دولة عصرية تمثل اقصى مراحل التقدم.

– اسرائيل تنتمى الى منطقة الشرق الأوسط جغرافيا، وتاريخيا وحضاريا.

– منطقة الشرق الأوسط ليس فيها سوى جماعات وعقائد تعبر عن أقصى مظاهر التخلف الحضارى والمؤسسى(٣٨).

ومن هذا يتضح أن هذه هى نفس الموضوعات تقريبا التى استخلصها لابيير من تحليل الصحافة الفرنسية، والتى تتكامل ملامح الصورة الايجابية لاسرائيل التى تقدمها الصحافة الغربية. غير أن أخطر من ذلك هو التركيز على صورة سلبية ومشوهة للعرب فى هذه الصحافة.

وتساعد اسرائيل الصحافة الغربية مساعدة كبرى فى هذا الصدد، ذلك أنها «تجعل من تشوية الطابع القومى العربى أحد الأدوات التى تعد بها المنطق الأجنبى لاستقبال منطقها الدعائى وتقبل وجودها فى منطقة الشرق الأوسط فهى تبرز العرب على أنهم قوم متخلفون يرفضون التقدم الحضارى»(٣٩).

إن هاتين الصورتين: الايجابية بالنسبة لاسرائيل(٤٠) والسلبية بالنسبة للعرب، اللتين تسودان الصحافة الغربية بوجه عام بالنسبة لطرفى الصراع العربى الاسرائيلى، سنجدها أيضا بنفس ملامحها،

فى الصحافة الأمريكية، كما أكدت ذلك بعض الدراسات التى استخدمت أيضا تكنيك تحليل المضمون.

ويظهر منها بوضوح كما سنرى صورة الشخصية القومية العربية المزيفة التى تروج لها الصحافة أمريكية، والتى تتطابق تماما مع المفهوم الاسرائيلى للشخصية العربية.

صورة الشخصية العربية فى الصحافة الأمريكية :

قام ميشيل سليمان استاذ العلوم السياسية بجامعة ولاية كانساس بالولايات المتحدة الأمريكية، باجراء دراستين هامتين(٤١) استخدم فيهما تكنيك تحليل المضمون، وحلل فيهما تغطية عدد من الجرائد والمجلات الأمريكية الهامة(٤٢) لحرب السويس عام ١٩٥٦، ولحرب ١٩٦٧. ونعرض فيما يلى لأهم نتائج الدراستين.

اتجاهات الصحافة الأمريكية ازاء الشخصية العربية : (أثناء حرب السويس ١٩٥٦) :

انطلقت الدراسة الأولى من افتراض أولى مؤداه أن «نوعية المعلومات التى نمتلكها عن الشعوب الأخرى تحدد صورهم فى أذهاننا». ومن هنا أهمية أن تكون المعلومات المنشورة عن البلاد والشعوب، تتسم بالتوازن والنزاهة لأنها تؤثر بدون أدنى شك فى صانعى السياسات على اختلاف مستوياتهم. وتتمثل مشكلة الدراسة الأولى فى الوصف الموضوعى للطريقة التى عالجت بها الصحافة الأمريكية المشكلات العربية والاسرائيلية، وقد استخدم للوصول إلى ذلك تكنيك تحليل المضمون. وقد حدد المجال الزمنى للدراسة بستة شهور من يوليو إلى ديسمبر ١٩٥٦، وهى فترة اعتبرها الباحث كافية سادتها «عداوة نشطة» active hostility، بين

دولة عربية فى مصر ودولة اسرائيل، بالإضافة إلى عديد من حوادث الحدود بين الأردن واسرائيل.

وقد انطلق الباحث من فرضين أساسيين كما يلى :

الفرض الأول : أغلب المخبرين الصحفيين والمراسلين يقدمون صورا للعربى تسود الأفلام السينمائية التى تنتجها هوليود : صورة البدوى، الذى قد يكون من البدو الرحل، يتسم بأنه فقير، تعليمه منخفض، يعيش مع حريم حيث لاتوجد للنساء سوى حقوق قليلة، أن كانت لهن أى حقوق على الاطلاق. والعربى غير ديمقراطى، يعيش فى حالة فساد سياسى، تحت سيطرة طغيان جماعة أو خاضعا لواجب الاخلاص لقبيلته. ومن ناحية أخرى فالاسرائيليون يمدحون لكونهم «ديمقراطيون» و«يشبهون الغرب».

الفرض الثانى : هناك درجة عالية من تكرار الاشارة للمعاملة القاسية لليهود، وتركيز على رغبة اسرائيل فى «السلام» و«الأمن»، وكذلك على انجازات اسرائيل، وهناك اشارات قليلة لمصير عرب فلسطين. وعلى العكس، ففى مجال الصراع العربى - الاسرائيلى تقدم صورة العرب باعتبارهم معتدين، وأشرارا وباعتبارهم يمثلون الأمم «العدوانية» التى تحيط باسرائيل المسكينة، وهدفها تحطيمها.

وقد استخلص الباحث «فئات التحليل» من مضمون كل فرض من هذين الفرضين.

ماهى دلالة هذه النتائج فيما يتعلق بصورة الشخصية العربية فى الصحافة الأمريكية؟

نلاحظ أولا التركيز الشديد لهذه الصحف على أن العرب شعوب بدوية، فقد ألصقت هذه الصفة بالعرب (١١٩) مرة، مما يتضمن أنها شعوب متخلفة.

جدول رقم (٤)

الفرض الأول

سمات العرب والإسرائيليين فى الصحافة الأمريكية أثناء حرب السويس

(١٩٥٦)

اسم المجلة	الشخصية العربية: حياة بدوية	مستوى معيشة منخفض	مستوى تعليم منخفض	حقوق قليلة للنساء	اتجاه غير ديمقراطي	عدم الأمانة ولا يوثق فيهم	التفكك والتنافس	صفات طيبة	الشخصية الاسرائيلية: مستوى تعليم مرتفع	مستوى معيشة مرتفع	ديمقراطية واتجاه شبيه بالغرب	صفات طيبة	صفات سيئة
نيويورك تايمز	١٢	١٧	٥	٠	٢	٠	١٢	٤	٠	٠	١	١	٠
ى. س نيوزاندورلدريبورت	٤١	٤٢	٣١	٠	١٠	١٦	٢٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠
ذى نيشان	٣	١٠	٧	١	٦	٤	١	٨	١	١	٦	١	٠
ذى نيو ريبلك	٠	٩	٤	٠	٥	٨	٥	٠	٤	١	٣	١٨	٠
لايف	٢١	١	١	١	٠	٠	٤	٠	٢	٠	٠	٠	٠
نيوزويك	٢٤	١٦	١	١	٢	٠	٢	٠	٠	٠	٠	٠	٠
تايم	١٨	١٦	٢	٩	١	١٠	١٨	٥	٠	٠	٠	٨	٠
المجموع	١١٩	١٠١	٥١	١٢	٢٦	٣٨	٦٢	١٧	٧	٢	١٠	٢٨	٠

بالمقارنة مع اسرائيل. كل ذلك مع أن نسبة العرب الذين مازالوا يمارسون حياة البداوة لاتزيد عن عشرة فى المائة من مجموع العرب[٤٣]. وإذا رتبنا نتائج تحليل مضمون هذه الصحف والمجلات الامريكية تنازليا ماذا نجد؟ سنتبين على الفور العناصر التى تحرص الصحافة الأمريكية على التركيز عليها باعتبارها مميزة للشخصية العربية، كما تبين من الجدول التالى.

جدول رقم (٥)

تكرار الاشارة إلى سمات الشخصية العربية

مرتبة تنازليا

سمات الشخصية العربية	التكرارات *
العرب يعيشون حياة بدوية.	١١٩
مستوى معيشة العرب منخفض.	١٠١
العرب مفككون ومتنافسون فيما بينهم.	٦٢
العرب مستوى تعليمهم منخفض.	٥١
العرب يتسمون بعدم الأمانة ولايوثيق بهم.	٣٨
تسود العرب اتجاهات غير ديمقراطية.	٢٦
اشارة إلى بعض الصفات الطيبة للعرب.	١٧
حقوق النساء العربيات قليلة.	١٢

أن خطورة هذه الصورة المركبة للشخصية العربية أن الزيف يختلط فيها ببعض الحقائق بصورة لايمكن معها بسهولة للقارئ الغربى العادى أن يكشف عن جوانب التزييف المتعمد فيها.

* تشير التكرارات إلى عدد مرات الاشارة إلى كل سمة فى الجرائد والمجلات السبع التى شملتها دراسة ميشيل سليمان.

فالسمة الأولى التى تركز على أن العرب بدو أساسا واضحة الزيف، لأنها تخالف الواقع الاجتماعى العربى[٤٤]. أما السمة الثانية، التى مبناها أن مستوى معيشة العرب منخفض، فهى حقيقة، كل مافى الأمر أن تقديم هذه الحقيقة مفصولة عن الواقع التاريخى من شأنه ان ينسب انخفاض معيشة العرب إلى «تخلف فطرى» يعانون منه، وبالتالى يتم اخفاء الحقيقة التى مبناها ان الغزو الاستعمارى للعالم العربى، ومؤامرات الغرب المتصلة لتحطيمه وتفتيتة واعاقة تقدمه : ومنع تكامله القومى والسياسى والاجتماعى، بالاضافة إلى نهب ثرواته، كل هذه العوامل هى المسؤولة أساسا عن مستوى المعيشة المنخفض الذى تعانى منه الشعوب العربية الآن[٤٥].

أما عن السمة الثالثة وهى أن البلاد العربية مفككة ومتنافسة فيما بينها، فماذا عن دور الاستعمار القديم والجديد فى خلقها وتدعيمها؟ لا تتعرض الصحافة الأمريكية بالطبع لهذا الموضوع.

ومن خلال تقديم بعض الحقائق عن العالم العربى، مع فصلها كما أشرنا عن سياقها التاريخى، يتم تهريب سمة تلصق بالعرب، ليس لها أى أساس، وهى الزعم بأنهم يتسمون بعدم الأمانة ولايوثق بهم. وهذه الوجهة فى تشويه الشخصية العربية تتفق تماما مع المحاولات الاسرائيلية التى سنعرض لها من بعد، ممثلة فى دراسات هاركابى وصنوع.

وعلى نقيض هذه الصورة المزيفة للشخصية العربية، تقدم صورة زاهية للشخصية الاسرائيلية أهم سماتها : الجوانب الايجابية فيها التى ذكرت (٢٩ مرة) والإشادة بالديمقراطية فيها

وشبهها بالغرب (١٠ مرات)، والاشارة إلى مستوى التعليم المرتفع فيها (٧ مرات).

غير أن مايلفت النظر فى هذه النتائج أنه لم تنسب للشخصية الاسرائيلية أى سمة سلبية على الاطلاق فى أى من الجرائد والمجلات السبع التى شملتها الدراسة، كما يلاحظ ذلك ميشيل سليمان.

وننتقل بعد ذلك لتحليل النتائج الخاصة بالفرض الثانى وهو الفرض الذى يذهب إلى أن صورة العرب - فى مجال الصراع العربى الإسرائيلى - تقدم باعتبارهم معتدين وأشراراً، وأن الدول العربية تمثل الأمم العدوانية التى تحيط باسرائيل وتريد تحطيمها.

هل تأيد هذا الفرض ولم تثبت صحته؟

من واقع دراسة ميشيل سليمان ثبت صحة هذا الفرض، بمعنى أن الصحافة الأمريكية دأبت على تقديم صورة متحيزة للصراع العربى الاسرائيلى، عن طريق تشويه صورة الشخصية العربية، وتزييف موقف الدول العربية. ويذكر ميشيل سليمان وهو بصدد تحليل نتائج الفرض الثانى من فروض دراسته، أن الشخص ان لم يكن خبيرا بما يحدث فى الشرق الأوسط وعنده الفرصة للحصول على الأخبار من مصادرها الأولية، فانه سيعجز عن كشف التزييف الذى تمارسه الصحافة الأمريكية بصدد هذا الصراع العربى الاسرائيلى، ويقرر أنه فى عام ١٩٥٤ نشر «المعهد الدولى للصحافة» بزيورخ فى سويسرا كتيبا عنوانه «الأخبار من الشرق الأوسط». وقد تضمن الكتيب نتائج مسح لآراء عدد من المعلقين الصحفيين، وكانت النتيجة الرئيسية للمسح أن العرب هم أكبر المضرورين من

التعليقات التى تكتب عن الشرق الأوسط، وذلك نتيجة مركب من العوامل التى تحدث فعلها ضدهم أهمها : الأفكار النمطية الثابتة عنهم، والضغوط الصهيونية والموالية لاسرائيل فى الولايات المتحدة الأمريكية، والخشية من أن يوصف الكاتب الصحفى بأنه «معاد للسامية» لو تجاسر وتناول الصراع العربى الاسرائيلى بشئ من الموضوعية(٤٦).

وخلاصة النتائج التى توفرت بالنسبة للفرض الثانى ان اسرائيل فى الصحف والمجلات الأمريكية قدمت باعتبارها لم ترتكب أى خطأ وأن الحق بجانبها : فى حين أن العرب صوروا باعتبارهم يستحقون اللوم، وغالبا للسبب البسيط الذى مؤداه أنهم فى خلاف مع اسرائيل.

ان العرب يصورون دائما باعتبارهم «الأشرار» فى حين أن الاسرايئليين يقدمون باعتبارهم «الأبطال» مهما كان سلوكهم العدوانى فى مراحل الصراع العربى – الاسرائيلى المتتابعة(٤٧).

اتجاهات الصحافة الأمريكية ازاء الشخصية العربية (أثناء حرب ١٩٦٧)

من المتفق عليه أن اسرائيل نجحت نجاحا ملحوظا فى تأيد عدوانها على البلاد العربية عام ١٩٦٧، عن طريق حملة دعائية قوية فوضت على العالم وجهة النظر الاسرائيلية، وذلك فى غياب تام لوجهة النظر العربية، التى زاد من تشويهها بعض التصريحات غير المسؤولة لعدد من الزعماء والمسؤولين العرب.

وقد دعمت الصحافة الأمريكية الحملة الدعائية الاسرائيلية عن طريق تبنيها المطلق لوجهة النظر الاسرائيلية، واخفائها المتعمد

للحقائق الخاصة بالظروف السياسية والدولية التى فى ظلها شنت اسرائيل عدوانها على البلاد العربية، وأخيرا فى استمرارها فى تشويه ملامح الشخصية العربية وهى بصدد تغطيتها لتطورات حرب ١٩٦٧.

وإذا كنا فى الفقرة السابقة عرضنا من خلال دراسة ميشيل سليمان – للطريقة التى صورت بها الصحافة الأمريكية الشخصية العربية خلال الشهور التى مرت بها حرب السويس عام ١٩٥٦، فأنه من المهم أن نعرف كيف سلكت الصحافة الأمريكية فى تغطيتها لحرب ١٩٦٧ بعد أحد عشر عاما كاملاً.

ان المقارنة ستكون ميسورة لأننا سنعتمد فيها على دراسة ميشيل سليمان الثانية(٤٨) التى اتبع فيها نفس المنهج ونفس أدوات التحليل، بالنسبة لنفس الصحف والمجلات الأمريكية التى سبق له ان درسها بالنسبة لحرب ١٩٥٦(٤٩).

السؤال الأن هو : ما التغيير الذى طرأ على صورة الشخصية العربية كما عرضتها الصحافة الأمريكية أثناء حرب يونيو ١٩٦٧؟

نلاحظ أولا أنه قلت الاشارات إلى أن العرب يمارسون حياة بدوية (٢٥ مرة) وكانت فى فترة ١٩٥٦ تشغل القمة فى التركيز عليها (١١٩ مرة). كما قلت أيضا الاشارة إلى أن مستوى معيشة العرب منخفض (١٨ مرة) فقط مقارنة (١٠١ مرة) فى الدراسة السابقة، وانتقت الاشارة إلى حقوق النساء العربيات (كان قد أشير إليها ١٢ مرة فى الدراسة السابقة). ويبقى على القمة الاشارة إلى التفكك والتنافس بين العرب (١٠٢ مرة)، وأن العرب يتسمون بعدم الأمانة ولايوثق فيهم (٨٩ مرة).

جدول رقم (٦)

سمات العرب والإسرائيليين فى الصحافة الأمريكية أثناء حرب يونيو

(مايو - يونية ١٩٦٧)

اسم المجلة	الشخصية العربية: حياة بدوية	مستوى معيشة منخفض	مستوى تعليم منخفض	حقوق قليلة للنساء	اتجاه غير ديمقراطى	عدم الأمانة ولا يوثق فيهم	التفكك والتنافس	صفات طيبة	الشخصية الاسرائيلية: مستوى تعليم مرتفع	روح قتالية اعتماد على النفس	ديمقراطية واتجاه شبيه بالضرب	أمانة وثقة فى النفس	صفات سيئة
نيويورك تايمز	١٥	١	١	٠	٣	١٨	٢٤	٥	٠	١٥	٠	٦	٢
ى. س نيوز أندورلد ريبورت	٠	٠	٠	٠	٢	٢٣	١٤	٤	٢٤	٢٤	٠	٩	٠
ذى نيشان	٣	١٥	٠	٠	٠	١٥	٤١	٥	٤	٣٧	١	٢	٢
ذى نيو زيبلك	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٠	١	٠	٠	٠
لايف	٠	٠	٠	٠	٠	١	٣	٠	٠	٧	٠	٠	٠
نيوزويك	٢	٢	٠	٠	٣	١١	٩	١٠	٥	٤	٣	٥	٠
تايم	٥	٠	٠	٠	٠	٢٠	١٠	١٢	٩	١٧	٠	٤	٣
المجموع	٢٥	١٨	١	٠	٨	٨٩	١٠٢	٣٦	٢٢	١٠٥	٤	٢٦	٧

ولعلنا لو رتبنا نتائج تحليل مضمون هذه الصحف الأمريكية تنازليا كما فعلنا بالنسبة لنتائج الدراسة الأولى، نصبح الصورة أكثر وضوحا.

جدول رقم (٧)

تكرارات الإشارات إلى سمات الشخصية العربية مرتبة تنازليا

سمات الشخصية العربية	التكرارات *
العرب مفككون ومتنافسون فيما بينهم.	١٠٢
العرب يتسمون بعدم الأمانة ولايوثيق بهم.	٨٩
اشارة إلى بعض الصفات الطيبة للعرب.	٣٦
العرب يعيشون حياة بدوية.	٢٥
مستوى معيشة العرب منخفض.	١٨
تسود العرب اتجاهات غير ديمقراطية.	٨

وفى مقابل هذه الصورة المشوهة للعرب التى تركز على تفككهم والعدواة بينهم وعدم أمانتهم، تقدم صورة زاهية للشخصية الاسرائيلية، تركز على روحهم البطولية واعتمادهم على أنفسهم وكفاءتهم (١٠٥ مرة)، وأمانتهم وثقتهم فى أنفسهم (٢٦ مرة).

وقد أتاحت حرب أكتوبر ١٩٧٣، الفرصة مرة ثالثة لتقدير مقدار التغير فى اتجاهات الصحافة الغربية بوجه عام والأمريكية بوجه خاص ازاء العرب. وإذا كان الأداء البطولى للقوات المسلحة العربية فى ميدان القتال - الذى حاولت الصحافة الغربية، خضوعا منها

للتصوير الاسرائيلى بأن اسرائيل قوة لاتقهر، انكاره والتقليل من شأنه، خصوصا فى الأيام الأولى من الحرب- قد اضطر وسائل الاعلام الغربية اضطرارا إلى الاعتراف بايجابيات الشخصية العربية، إلا أن هذه الصحافة واصلت تشويه السلوك العربى وخصوصا فى مجال استخدامهم للبترول كسلاح فى المعركة، ووصفته بأنه ابتزاز عربى من قبل شعوب متخلفة، تريد تحطيم الدول الغربية الصناعية المتقدمة. ومن هنا يمكن القول أن حلقات الاستراتيجية الاسرائيلية الدعائية تتكامل مع تحيز وسائل الأعلام الأوروبية والأمريكية. غير إن ينبغى لكى نتعمق دراسة استراتيجية العدو، أن ندرس بشئ من التفصيل المفهوم الاسرائيلى للشخصية العربية فى أبعاده ومستوياته المختلفة.

الفصـل الرابـع

المفهوم الاسرائيلى للشخصية العربية

- تمهيد.
- تعريف بالمصطلحات الرئيسية.
- تصور الصفوة السياسية الاسرائيلية.
- تصور العلماء الاسرائيليين للشخصية العربية.
- الأفكار القومية النمطية عن العرب لدى الرأى العام الاسرائيلى.

تمهيد:

ان الفكرة التى مؤداها أن السمات المميزة للشخصية القومية العربية لها تأثير على تطور الصراع العربى الاسرائيلى، فكرة رائعة فى التراث العلمى المتعلق بهذا الصراع.

ومؤدى هذا النهج – كما يقرر بنيامين بين هولاهمى-(١) أن على الباحثين الغربيين اللجوء إلى نوع مامن «الدراسة السيكلوجية» للعرب، سعيا وراء تفسير سلوك الجانب العربى فى الصراع. وقد ربط الباحثون الذين عالجوا موضوع «الشخصية العربية» – بصورة صريحة أو ضمنية– بين تحديدهم لسمات الشخصية العربية وبين الصراع بين العرب والغرب بوجه عام، وبين العرب واسرائيل بوجه خاص.

واذا تفحصنا التراث النفسى الاجتماعى فى هذا الموضوع الذى تسوده أساسا الدراسات الأمريكية والاسرائيلية، فاننا نجد فكرة ذائعة هى «عدم العقلانية العربية»، التى تقبل كمسلمة يجهد الباحثون أنفسهم فى تفسيرها! ولعل خير ما يصور هذا الاتجاه ما ذهب اليه احد الباحثين فى وصفه لطرفى الصراع العربى الاسرائيلى من أن «هناك عدم تناسب ضخم بين وضع طرفى الصراع. فالسلوك الاسرائيلى تجاه العرب عبر السنين كان فى بعض الأحيان غبيا، وخاطئا خطأ فاحشا، ويتسم بعدم الحساسية، غير أنه مع ذلك أظهر جوانب للسلوك المتفهم بل والانسانى وخصوصا منذ يونيو ١٩٦٧، ويمكن القول– بصورة أو بأخرى أن العامل الموجه للسلوك الاسرائيلى كان هو تحقيق المصلحة الذاتية. غير أن السلوك العربى على العكس كان سلوكا غير بصير،

وتعصبيى، يحمل فى طياته خداع الذات والرغبة فى تدميرها، ويتسم بالجمود الشديد، وهو فى عديد من جوانبة منحط خلقيا»(٢).

ان السؤال الذى يثيره على الدوام أنصار هذا الاتجاه هو: ما هو تفسير العيوب الجسيمة فى السلوك العربى؟ ان طرح السؤال بهذا الشكل يتضمن فى حد ذاته ادانه للطرف العربى فى الصراع، وبحثا وراء تفسير سلوكه على ضوء مصطلحات علم النفس المرضى!

ويظهر تحيز هذه الدراسات من كونها لم تتعرض لسلوك الطرف الاسرائيلى الا نادرا(٣)، وهذا منطقى بطبيعة الأحوال، مادام حكم الإدانه قد تقرر سلفا، ولم يبق سوى صياغة حيثياته!

وأيا ما كان الأمر، فأننا نرى أهمية تحليل الابعاد المختلفة للمفهوم الاسرائيلى عن الشخصية العربية، ولن نقف عند حدود تحليل الكتابات العلمية التى تمثل الجزء الاسرائيلى من أدب النكسة بل سنوسع من منظور بحثنا بحيث يشمل تحليل تصور الصفوة السياسية الاسرائيلية من ناحية، ومفهوم الرأى العام الاسرائيلى للشخصية العربية من ناحية أخرى. ذلك أن الاحاطة بكل هذه الأبعاد فى تمايزها وفى ترابطها الوثيق فى نفس الوقت، جدير بأن يكسبنا الفهم العميق لمنطق واتجاه عديد من السياسات الاسرائيلية التى طبقت ازاء العالم العربى، عبر السنين الممتدة التى خاضها- ومايزال- الصراع العربى الاسرائيلى.

تعريف بالمصطلحات الأساسية :

كيف ينظر الاسرائيليون الى الشخصية العربية؟ وما أثر صورة العرب لدى الاسرائيليين فى الصراع العربى الاسرائيلى،

وخصوصا فى مرحلته الراهنة؟ وما علاقة هذا التصور الاسرئيلى بالمفهوم الغربى للشخصية العربية الذى أفضنا فى الحديث عنه فى الفصل الثانى؟

ان معالجة هذا الموضوع تقتضى- من وجهة نظرنا- ضرورة التمييز بين ثلاثة مصطلحات:

تصور الصفوة السياسية The political elite perception

الشخصية القومية National character

الأفكار القومية النمطية National stereotypes

واعتمادنا على هذه المفاهيم الثلاثة يرد الى أنه عن طريقها يمكن تكوين الصورة المتكاملة لتصور الاسرائيليين للعرب.

وهناك أهمية للتفرقة- حين دراسة مفهوم مجتمع ما عن الشخصية القومية لمجتمع أخر- بين مفهوم الصفوة من ناحية ومفهوم الجماهير من ناحية أخرى ذلك أن مفهوم الصفوة غالبا ما يستوى على أرضية أكثر عقلانية من مفهوم الجماهير(٤).

١- يمكن القول أن تصور الصفوة السياسية فى مجتمع ما للشخصية القومية لمجتمع أخر، قد لا تظهر الا فى حالات الصراع- أيا كان نمطة ايديولوجيا أو سياسياً أو اقتصاديا أو عسكريا بين المجتمعين وفى هذه الحالات على وجه الخصوص تظهر الأهمية البالغة لتحليل تصور الصفوة السياسية فى كل مجتمع ازاء المجتمع الأخر. وهذا التصور بالرغم من أنه قد يكون مشوها ومتحيزاً بدرجة صغيرة أو كبيرة، الا أنه فى الأغلب الأعم يستند إلى حقائق موضوعية، تجعله لايهبط إلى مستوى الأفكار القومية النمطية التى عادة ما تشيع بين العامة وغير المتخصصين فى أى مجتمع.

والواقع أن تحليل تصور الصفوة السياسية الاسرائيلية للشخصية القومية العربية يمثل أهمية خاصة فى فهم نشأة وتطور الصراع العربى الاسرائيلى ووضعه الراهن(٥).

٢- الشخصية القومية هى بوجه عام «السمات النفسية والاجتماعية والحضارية لأمة ما، التى تتسم بثبات نسبى، والتى يمكن عن طريقها التمييز بين هذه الأمة وغيرها من الأمم»(٦).

ويمكن القول أخيرا أن الافكار القومية النمطية هى-national ste-reotypes «السمات الشائعة الثابتة التى تسرى على شعب ما من جانب شعب آخر، والتى تأخذ شكل العقيدة العامة الجماعية، والتى تصاغ على غير أساس علمى أو موضوعى، تأثيرا بأفكار متعصبة تتسم بالتبسيط فى تصورها للأخر»(٨،٧).

على ضوء هذه التعريفات لهذه المفاهيم الثلاثة، سنعالج موضوع المفهوم الاسرائيلى للشخصية العربية من خلال مداخل أساسية:

تصور الصفوة السياسية الاسرائيلية للشخصية العربية.

مفهوم العلماء الاسرائيليين للشخصية القومية العربية.

الأفكار القومية الخطية عن العرب لدى الرأى العام الاسرائيلى.

أولا: تصور الصفوة السياسية الاسرائيلية للشخصية العربية

بالرغم من أهمية تصور الصفوة السياسية الاسرائيلية للشخصية العربية، وتأثير هذا التصور على تطورات الصراع العربى الاسرائيلى فى مراحلة المتتابعة الا أننا نستطيع لو فحصنا التراث العلمى حول الصراع- أن نجد دراسات متعددة فى هذا الموضوع.

وأيا ما كان الأمر، فتنبغى الاشاره الى أنه بالضرورة لابد أن

يكون تصور الصفوة السياسية الاسرائيلية قد تغير بصورة أو بأخرى- عبر الزمن تحت تأثير المشكلات المطروحة والاختلافات النوعية التى اتسمت بها مراحل الصراع المختلفة. فلاشك أن المراحل المتتابعة التى خاضها الاستعمار الاستيطانى فى فلسطين، خاصة قبل إعلان نشوء دولة اسرائيل عام ١٩٤٨، كان يطرح مشكلات خاصة فيما يتعلق بالعرب، تختلف جذريا عن المشكلات التى يطرحها الصراع العربى الاسرائيلى فى مرحلته الراهنة.

ولعل السؤال الرئيسى الذى كانت تطرحه مرحلة السعى لانشاء الدولة هو: ما هو الموقف الذى ينبغى ان يتخذه اليهود المستوطنون ازاء العرب اصحاب البلاد الشرعيين؟

إن الاجابة على هذا السؤال كانت تقتضى صياغة تصور محدد للعرب، ولعل الفكرة وحيدة البعد التى سيطرت على هذا التصور هى: هل يمكن للعرب ان يستسلموا للأمر الواقع، ويقبلوا الاستيطان اليهودى، أم أنهم سيقاومون ذلك، وبالتالى ليست هناك سوى وسيلة واحدة، وهى استخدام القوة معهم؟

إن طرح المشكلة على هذا النحو، جعل تصور الصفوة الاسرائيلية فى المراحل الأولى، لايذهب بعيدا نحو تعميق صياغة محددة للشخصية القومية العربية وإن كان يمكن لنا أن نستخلص بعض العناصر الكامنة فى تصور أعضائها البارزين.

على ضوء ذلك ينبغى أن نفرق بين تصور الصفوة الاسرائيلية التقليدية، التى جابهت مشكلة السعى لإنشاء الدولة، فى مرحلة تاريخية كان فيها الصراع فى مراحلة الأولى، وإن كان هذا التصور استمر لفترة بعد إنشاء الدولة، وتصور الصفوة الاسرائيلية

المعاصرة، التى تحكم نظرتها للشخصية العربية بالإضافة الى العوامل الخاصة بالتراكمات الذهنية التى تكونت لديهم عبر المراحل السابقة للصراع- موقف الضعف الذى يظهر به الطرف العربى فى الصراع، والذى أبرزته من ناحية هزيمة عام ١٩٤٨، وبصورة أشد وقعاً هزيمة عام ١٩٦٧(٩).

تصور الصفوة السياسية الاسرائيلية التقليدية :

سنعتمد فى عرض هذا التصور أساسا- على كتاب مايكل بريتشر وهو أستاذ فى العلوم السياسية، كندى يهودى، ويمكن اعتباره اسرائيليا، لأنه مقيم فى اسرائيل حاليا، وسبق له أن حارب مع الجيش اليهودى فى حرب ١٩٤٨ وأهمية بحث بريتشر ترد الى أنه لم يقنع بالتحليل النظرى، وإنما أجرى مقابلات واسعة المدى مع أعضاء الصفوة السياسية الاسرائيلية للحصول على بياناته، ومن هنا ثراء هذه البيانات وصعوبه العثور على مثيل لها فى مراجع أخرى.

وبالرغم من أن بريتشر يقرر فى بداية عرضه لصورة العرب فى ذهن الصفوة الاسرائيلية بأن «الصورة الاسرائيلية» عن العرب كعالم وكعقل وكمجتمع وكشعب وكعدو بالغة التحدد باعتبارها تحتل مكاناً مركزيا فى «رؤية العالم» التى لدى صانعى سياستها العليا»(١٠) الا أن ما يسميه صورة العرب فى ذهن الصفوة الاسرائيلية، هو أقرب ما يكون الى الاستراتيجيات المختلفة التى دعا لتطبيقها مختلف أعضاء هذه الصفوة تجاه العرب.

ويقرر بريتشر أنه ليس هناك صورة واحدة للعرب، بل صور متعددة متعارضة. وهذه الصور تعد حاسمة فى فهم الصراع حول

سياسة اسرائيل بين بن غوريون وموسى شاريت فى الفترة من ١٩٥٣– ١٩٥٦. وهناك فى الفكر الاسرائيلى تنميط ثلاثى «للصور الاسرائيلية عن العرب»[١١]. وهذا التنميط يشتمل على ثلاث صور متمايزة يطلق على التتالى: البوبرية والبنجوريونية، والوايزمانية، نسبة الى الفيلسوف مارتن بوبر، وبن جوريون. ووايزمان.

١- *البوبرية* : «**Buberism**»

التوافق مع العرب من خلال الحلول الوسط

Reconciliation through compromise

هذا الاتجاه نحو العرب أطلق عليه «البوبرية» نسبة الى الفيلسوف اليهودى الشهير مارتن بوبر[١٢] Martin Buber الذى حاول خلال السنوات التى قضاها فى فلسطين اسرائيل التوفيق بين اليهود والعرب.

وهذا الاتجاه فى جوهره يمكن إجمال منطقة فيما يلى: أن اليهودية دين يتسم بمعايير أخلاقية عالية، وهناك ظلم وقع على العرب، وبالتالى فعلى اسرائيل أن تكفر عن أفعالها غير الأخلاقية.

وليس هناك تعبير أكثر دلالة على هذا الاتجاه من هذه الفقرة التى وردت فى كتاب لبوبر، وعنوانها:The Samsonite

«حينما عدنا الى أرضنا بعد عدة مئات من السنوات، تصرفنا وكأنها كانت خلوا من السكان، بل واسوأ من ذلك، وكأن السكان الذين فيها والذين واجهناهم ليس لنا من شأن بهم، وكأنه ليس علينا أن نهتم، بعبارة أخرى كأنهم لم يدخلوا فى دائرة ادراكنا، ولكنهم دخلوا فى وعينا، ولكن ليس بوضوح كامل. ليس بالوضوح

الذى كان يمكن أن يتحقق لو كنا نحن الذين أدركنا وجودهم، لو كنا نحن الأهالى ورأينا أناسا أخرين يتوافدون بأعداد متزايدة لكى يقيموا فى الأرض. لم يكن ادراكنا لهم جليا، ولكنه كان واضحا بالقدر الكافى، وكان طبيعيا أن تتسع دائرة الوضوح من سنة الى أخرى ولكننا لم نلق بالا إلى ذلك، ولم نلق بالا إلى أنفسنا. ليست هناك سوى طريقة واحدة للتصرف فى ضوء هذا المشهد الصارخ، وهى أن نتعاون بشرف مع العرب، وأن نشركهم فى تنمية البلد. وفى عملنا وفى ثماره.. ولهؤلاء الذين أشاروا الى الحركة القومية العربية التى يتصاعد نموها وازدهارها، أجبنا أنه لاينبغى المبالغة فى شأنها، وأننا نستطيع أن نتعامل معها.

والسؤال هو: من هم الذين رآهم العرب يلعبون دور الغرباءphilistines الذين تسللوا إلى بلدهم، البريطانيون أم نحن؟ هذا السؤال يمكن أن يظل معلقا بلا جواب: غير أن الفرض الذى أقدمه هو: ان كلا البريطانيين ونحن كأننا طرف واحد».

ان هذه الصورة التى تبنتها المجموعة القديمة التى تدعو للثنائية القومية (Ihud) التى كان يتزعمها بوبرBuber وماجنسMagnes مع المابامMapam، وكذلك تبنتها بعض الأصوات المتناثرة فى الجامعات وبعض العناصر فى وزارة الخارجية وأماكن أخرى، تؤدى منطقيا الى سياسة تقوم على التنازلات.

وقد اختلف مضمون هذه التنازلات بحسب الجماعات وباختلاف المراحل غير أن جوهر هذه السياسة كان هو تجاه تقديم تنازلات من أجل السلام.

٢- *البنجوريونية* «Ben Gurionism»

(التوافق مع العرب من خلال استخدام القوة الفائقة)

Reconciliation resulting from superior strength

هذه الصورة التى تنسب الى بن جورين[١٣] تحتل مكانها فى أقصى دائرة الطيف، ويمكن أن تصاغ كما يلى:

«نحن اليهود قد اضطهدنا لفترة امتدت ألفى سنة، وأخيرا لقد استعدنا هذه البقعة من الأرض فى وطننا التاريخى، وكان ينبغى على العرب أن يستقبلونا بحرارة، باعتبارنا أبناء عمومة، ولكنهم على العكس، فانهم يحاولون أن يخلقوا لنا «جيتو» آخرghetto عن طريق المقاطعة والحصار».

ان جوهر البن جوريونية، أو صورة «قطعة الأرض الصغيرة»، يتمثل فى الاعتقاد فى أن العرب غير قادرين على قبول التعايش السلمى فى هذه الحقبة التاريخية. ولذلك فاسرائيل لابد أن تظهر قبضتها وتلوح بها بين حين وأخر.

وكانت النتيجة، هو اللجوء المتكرر لاستخدام القوة التى وجدت التعبير النموذجى عنها فى سياسة الردع policy of retaliation فى حكم بن حوريون وديان خلال الأعوام ١٩٥٥- ١٩٥٦، وفى الفترة التى أعقبت حرب الستة أيام أخذت شكل «عدم التنازل عن بوصة واحدة من الأرض العربية المحتلة».

وهناك عنصر أخر فى الصورة وهو أنه اذا استطاعت اسرائيل ان تحتفظ بصورتها، وبالحقيقة التى مبناها أنها ستظل هكذا لاتقهر، فذلك سيؤدى الى تغيير جوهرى فى نفوس العرب.

٣-*الوايزمانيه* «weizmannism»

(التوافق من خلال البحث العقلانى للحصول على حلول معتدلة)

Reconciliation through rational search for moderate solutions

المسلمة الرئيسية لهذه النظرة التى تنسب الى وايزمن(١٤) ان المواجهة العربية - الاسرائيلية ليس صراعا دوليا شاذا، بل هو نزاع حاد ومستمر، ولكنه يقع داخل دائرة «السواء» وينبغى النظر إليه كذلك. وأبعد من ذلك، فالصراع لايمكن حله عن طريق حل واحد مفرد، ولكن عن طريق سلسلة من التدابير غير الجذرية التى تنفذ عبر الزمن. وأنصار هذه النظرة مقتنعون بأن اسرائيل التى كانت تمثل سابقاً «دافيد» فى المنطقة، أصبحت «جوليات» Goliath وذلك فى اوائل الستينات، وكان ينبغى عليها أن تأخذ المبادأة.

ووجهة النظر هذه ترى أن حل الموقف يتمثل فى تغيير المناخ، وتخفيض المستوى العام للتوتر tensionعن طريق الأعمال البنائية. ولذلك ينبغى اعادة توجيه ومضمون «صوت اسرائيل» Kol Yisrael وهو «اذاعة اسرائيل الناطقة باللغة العربية»، لاستبعاد كل الاشارات المهينة للحضارة العربية، والسياسات العربية ... الخ.

ومن ناحية اخرى ينبغى توسيع الاتصال المباشر عن طريق الحث الرقيق للبنان لكى يسمح بالانتقال المباشر للسياح إلى اسرائيل من خلال بوابة الحدود فى رأس الناقورة Rosh Hanikra. وطريقة أخرى تتمثل فى اقامة حوار حقيقى مع الطلبة العرب فى الجامعات الامريكية والاوروبية، للوصول - تدريجيا - إلى قبولهم لحقيقة اسرائيل، وللامكانيات القصوى للتعايش السلمى الايجابى، لأن هؤلاء الطلبة هم قادة المجتمع العربى فى المستقبل.

والخطوة الرابعة تتمثل فى محاولة اقامة اتصالات اسرائيلية ولو غير مباشرة مع القادة العرب، وذلك حتى يتم نقل الأفكار والافترضات، من خلال طرف ثالث يثق فيه كلا الطرفين.

ويقرر بريتشر أنه فى حين أن البعض يرون أن هذه المقترحات كانت ممكنة فى منتصف الستينات حيث اتخذت بعض الخطوات التمهيدية، الا أن تفاعلات حرب الستة أيام جعل جميع الجهود الخاصة بالتوافق من خلال الحوار العقلانى تبدو أكثر بعداء، وغير ذات طابع عملى.

مناقشة:

هذه هى تصورات الصفوة الاسرائيلية التقليدية للعرب، وهى كما رأينا أقرب ماتكون إلى «نموذج مثالى» Ideal type يحاول عن طريق التجريد أن يصنف ويوجز التصورات الاساسية تجاه العرب.

ولعل أول مانلاحظه أن هذه التصورات لاتتضمن بذاتها صورة واضحة محدة المعالم للشخصية العربية عند الصفوة الاسرائيلية التقليدية، فهى - كما ذكرنا من قبل - أقرب ماتكون إلى الاستراتيجيات المختلفة التى دعا لتطبيقها مختلف أعضاء هذه الصفوة تجاه العرب. غير أننا لو بحثنا حول مزيد من التفصيل، فسنجد لدى كل اتجاه من هذه الاتجاهات صورة ما للشخصية العربية.

والصورة الأولى تكاد تنفرد بالنظرة المعتدلة للعرب، على أساس أنها تعترف بالظلم التاريخى الذى وقع عليهم، والذى تمثل فى طردهم من ديارهم بزعم أن «شعبا بلا أرض، قد وجد أرضا بلاشعب» ، كما ذهب إلى ذلك بعض غلاة الصهيونيين، وبالتالى

فهذه الصورة كانت ترى ضرورة التوافق مع العرب من خلال أعطاء عدد من التنازلات لهم، مما قد يؤدى إلى تحقيق ضرب من ضروب السلام بين اليهود والعرب.

ومما هو جدير بالإشارة أن هذا الاتجاه الذى يدعو للتعايش السلمى بين اليهود والعرب، والذى كان له دعاته خصوصا قبل حرب ١٩٤٨ ، قد انعكس فى الأدب العبرى[١٥] خصوصا فى الأعمال الأدبية لواحد من أعلام الأدب العبرى الحديث وهو «يوسف حاييم برنر» ، الذى لقى مصرعه عام ١٩٢١ ، خلال معركة قامت بين اليهود والعرب قرب يافا. كان برنر صهيونيا وصل إلى فلسطين قبيل الحرب العالمية الأولى من روسيا وكان يعتقد أن نجاح الاستيطان اليهودى فى فلسطين مسألة حياة أو موت بالنسبة لليهود.

ولذلك ركز على أهمية التعايش السلمى بين اليهود والعرب. وكان يرى ضرورة ذلك حتى لو أصبح اليهود أغلبية. ولم يكن ثمة تناقض بين المصالح الأساسية اليهودية والعربية فى فلسطين. ودعا إلى نبذ اسلوب اللجوء إلى القوة ودعا إلى الاعتراف المتبادل بحقوق «الأمتين» اليهودية والفلسطينية، وحقهما فى العيش فى سلام جنبا إلى جنب.

وتذهب الكاتبة الاسرائيلية يونابشور، أنه فى الوقت الذى تعرض فيه برنر لأهمية تعايش اليهود والعرب، التزم كاتب يهودى مرموق مثل صمويل يوسف عجنون[١٦] الصمت تماما، ولم يتعرض اطلاقا لهذا النوع فى أعماله.

غير أن أهم ماينبغى أن نلتفت إليه : أن أصحاب هذا الاتجاه كانوا يؤمنون بصواب الحل الصهيونى للمشكلة اليهودية[١٧]. فمارتن

بوبر زعيم هذا الاتجاه كان ينكر الارتباط التاريخي بين الفلسطينين وأرض فلسطين، ويظهر ذلك واضحا فى رده على رسالة أرسلها اليه زعيم الهند الراحل غاندى قال له فيها : «ان فلسطين تنتمي للعرب، وبالتالى فأنه من الخطأ وغير الإنساني فرض اليهود على العرب». فى هذا الرد الذى أعطى له بوبر عنوانا هو :«الأرض ومن يملكها : رد على غاندى» كشف الفيلسوف عن تناقضه الفكرى العميق، فهو يدافع عما اسماه «الحق اليهودى» فى فلسطين الذى لايمكن رفضه، ومن ناحية أخرى يناقش مشكلة «الأرض» مناقشة ميتافيزيقية خالصة لكي ينتهي الى أنه ليس للفلسطينيين حق كامل فى التراب الفلسطينى(١٨).

وهذا الموقف فى الواقع يعكس الانتهازية الفكرية لهذا الاتجاه، التى أعلنت عن حقيقتها حين بدأت حرب ١٩٤٨ ، فصرح بوبر قائلا: «مادامت الحرب قد قامت فلابد من خوضها حتى النهاية».

وعلى اى الأحوال فهذا الاتجاه قد انتهى منذ وقت طويل، وهو لايعبر إلا عن لحظة تاريخية من لحظات الوعى الاسرائيلى ازاء العرب.

أما الصورة الثانية لبن جوريون وأنصاره، فهى التى تركز على أن العرب لا يعرفون سوى لغة القوة والردع. وهذه الصورة بذاتها فى الواقع لاتعكس صورة هذا الفريق من أعضاء الصفوة الاسرائيلية التقليدية عن العرب فحسب، بل تعكس فى نفس الوقت عدوانية المشروع الصهيونى نفسه، والأساس الارهابى والتوسعى الذى يقوم عليه.

وهناك من أنصار هذا الاتجاه من حاول أن يختلف معه قليلا، كما

فعل شاريت فى خلافه مع بن جوريون. ولكنه كان- كما يقرر هو بنفسه- خلافا فى الأسلوب وليس فى المضمون، فى التكتيك وليس فى الاستراتيجية(١٩). فبدلا من صورة «العدو العربى» القائمة التى كان يركز عليها بن جوريون، والتى يشبهها بريتشر بصورة «العدو السوفييتى» التى كان يقيم سياساته على أساسها جون فوستر دالاس، القطب البارز لعصر الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتى، فان شاريت كان يذهب الى أن العرب شعب فخور بنفسه وحساس، وذلك فينبغى النظر اليهم كشعب وليس بمجرد عدو. ولكن هذا الاختلاط فى نهاية الأمر ضئيل القيمة، مادام بن جوريون وشاريت كانا متفقين على الخطوط الرئيسية للاستراتيجية الاسرائيلية ضد العرب.

ويبرز من انصار هذا الاتجاه موشى ديان، الذى لعله أوضح من عبر عن صورة العرب الكامنه لدى انصار اتجاه القوة والردع. فى تصريح صحفى له فى يناير ١٩٦٨ تحدث ديان عن «الشخصية العربية» التى يسودها فى نظره- التعلق بالأوهام قائلا(٢٠): «ان العرب يعيشون فى عالم غير حقيقى، وهم يفعلون ذلك غالبا مثلهم كمثل الشخص الذى يحتاج الى الحشيش حتى يحس أنه يعيش فى جنة عدن. فالحقيقة بالنسبة لهم هى الجحيم! والعلاج هو ابتلاع حبه من حبوب الكذب، التى تعطى لهم الأحساس بالجنة. غالبا ما يبدو لى أن كل العرب- وعلى كافة المستويات يتصرفون وكأنهم تحت تأثير المخدر. والحقيقة ان الوهم اسوأ من الكذب. فأنت قد تكذب عامدا وتسيطر على كذبتك، أما بالنسبة للوهم فهو الذى

يسيطر عليك فى النهاية. ان العقلية العربية لاتشغل فكرى كمشكلة سيكلوجية، أنها تفسر لى لماذا لايريد العرب الحرب»(٢١). وفى الحقيقة كان من المنطقى عقب نهاية حرب الأيام الستة، حينما اكتشف العرب اننا قابعون على ضفاف نهر الأردن وقناة السويس، ان يتجهوا الى المفاوضة ولكن- وبعد مرور عام كامل- لم يحدث شئ. ليس ذلك بسبب ان الحقيقة لاتثقل كاهلهم، ولكن لان عقليتهم تقف وكأنها حاجزا بينهم وبين الواقع، وتمنع عيونهم من أن تراه كما هو. انهم يفضلون تجاهل الواقع، مادامت المفاهيم الخيالية التى يعيشون على هديها لم تتحطم بعد».

ان ديان وهو يدين الشخصية العربية- تقريبا بنفس المصطلحات والمفاهيم التى يتحدث بها العلماء الاسرائيليون كما سنرى فيما بعد- يحاول أن يعطى المبرر لسياسة العدوان التى تمارسها اسرائيل ازاء العرب، ومن ناحية أخرى يجهد لابراز الرغبة الحقيقة فى السلام لدى اسرائيل التى يمنعها من التحقيق اتجاهات العرب العدوانية! ان هذا الاتجاه الذى عبر عن نفسه بوضوح بعد حرب ١٩٦٧، فيما يتعلق بضرورة ضم الاراضى العربية المحتلة وعدم التنازل عن بوصه واحدة منها، خير معبر عن طبيعة المشروع الصهيونى نفسه فى نزعاته التوسعية وفى عدوانيته.

وتبقى الصورة الأخيرة التى لاتقل فى اتجاهها العدوانى ازاء العرب عن الصورة الثانية، وان حاول أنصارها تغليف مفهومهم عن العرب بغلاف رقيق من ضرورة إقامة الحوار بين اليهود والعرب. فهى تحاول ان تترك الزمن يحل الصراع العربى الاسرائيلى عن طريق تراكم الخطوات الجزئية، التى تمهد للتلاقى بين الاسرائيليين

والعرب، ومعنى ذلك فى نهاية الأمر ترك الزمن يأخذ دورته حتى يترسخ المشروع الصهيونى متمثلا فى دولة اسرائيل، لتصبح بكل مشاريعها التوسعية حقيقة لايمكن زحزحتها فى المنطقة.

اذا كان هذا هو تصور الصفوة الاسرائيلية التقليدية عن العرب فماذا عن تصور الصفوة الاسرائيلية المعاصرة؟

تصور الصفوة الاسرائيلية المعاصرة :

يقرر بريتشر أن هذه الصفوة قد تشربت تصورات الصفوة التقليدية وأرهفت صياغتها. وأحيانا ما تنقل احدى الصور من مكانها الى مكان أخر، حتى تأخذ موضعها فى النسق الفكرى الاسرائيلى تجاه العرب. غير أن هناك فارقا جوهريا بين كلا الجيلين. فأعضاء الجيل الجديد من الصفوة الاسرائيلية يرون فى نفس الوقت البيئة المحيطة بهم والعالم الذى يحوطهم من خلال رؤية «مركبة» من عديد من التصورات. فالنسق القديم الذى يقف فى احد أطرافه تصور وايزمان، ويقف فى الطرف الآخر تصور بن جوريون، تراه هذه الصفوة الجديدة تبسيطا مخلا وتشويها للصور المعقدة التى يمكن أن تبعر عن السياسة الخارجية لاسرائيل. ولعل عبارة أبا ايبان بهذا الصدد تعبر خير تعبير عن انتهازية الصفوة الاسرائيلية الجديدة– التى ربما تكون أشد وطأة من انتهازية بعض اعضاء الجيل القديم– حين قرر أنه هناك صقور يرتدون ثياب الحمائم، وحمائم يرتدون ثياب الصقور»(٢٢).

غير أننا لو حللنا بدقة الصفوة الاسرائيلية المعاصرة للشخصية العربية، وللصراع العربى الاسرائيلى فسنلاحظ على التو، أن

قسمة أعضاء هذه الصفوة بين صقور وحمائم عملية خداعة، واننا نواجه مباشرة بالوجه القبيح للصهيوني المتعصب الذي انطلق من ضرورة الاستعمار الاستيطاني اليهودي لفلسطين، والذي ينادي في الوقت الراهن بضرورة ابتلاع الاراضي العربية المحتلة وضمها نهائيا إلى اسرائيل.

ما هو تصور الصفوة الاسرائيلية المعاصرة للشخصية العربية، وللصراع العربي الاسرائيلي في مرحلتة الراهنة؟

في مارس ١٩٧٢ أجرى الباحث دانيل هيرادفستيت[٢٢] سلسلة مقابلات مع مجموعة من أعضاء الصفوة الاسرائيلية بلغ عددهم أربعة وثلاثين شخصا. ونجد من بينهم رجال احزاب (من ابرزهم دافيد ورنر سكرتير حزب الماباى)، وكبار الموظفين في وزارة الخارجية الاسرائيلية (من ابرزهم موسى ساسون مساعد المدير العام لوزارة الخارجية، ومردخاى جازيت المدير العام لوزارة الخارجية) واساتذة جامعيون (من أبرزهم هاركابي مدير المخابرات الاسرائيلية السابق والاستاذ حاليا بالجامعة العبرية، ومايكل برتشر الاستاذ الكندي الاسرئيلي) والمتحدث العسكري الرسمي منحين زوهان.

وقد أجرى الباحث تحليلا كيفيا لاجابات المجموعة حول موضوعات متعددة تدور حول الصراع العربي الاسرائيلي، وتعرضوا من خلال اجاباتهم الى تصورهم للشخصية العربية.

ونستطيع ان نستخلص اطارا لبناء الشخصية العربية كما تصوره، وهذا الاطار يتضمن عدة عناصر.

(أ) العدوانية :

تتسم الشخصية العربية أولا- فى نظرهم- بعدوانية أصلية، عكست نفسها على الصراع العربى الاسرائيلى. فهم يعتقدون أنه اذا كان العرب لم ينجحوا حتى الآن فى تصفية دولة اسرائيل، فان ذلك ليس بسبب عدم توافر قصدهم، ولكن لانهم لم ينجحوا فى ذلك. غير أن أهم من ذلك ان هناك اجماعا بين أعضاء الصفوة السياسية الاسرائيلية المعاصرة (الذين خضعوا للبحث) عن انه لو كانت الدولة العربية قد ألحقت هزيمة عسكرية باسرائيل، فان أغلب اليهود الشرقيين والغربيين فى اسرائيل كانوا سيصفون جسديا.

أما تصورهم للقادة العرب فهو أنهم ليسوا مخلصين اطلاقا فى السعى نحو السلام. وتحدث عدوانية الشخصية العربية آثارها فيما يتعلق بالحرب والسلام على وجه الخصوص. ففى الوقت الذى يرون فيه أن اليهود شعب مسالم، يقررون أن العرب- بحكم مزاجهم العميق يحبون الصراع والحرب.

ويردون هذه العدوانية الأصلية فى الشخصية العربية الى الاسلام، الذى نادى بسمو المسلمين على غيرهم، بالاضافة الى أنه له نزعة حربية.

(ب) الانفعاليه :

السمة الثانية للشخصية العربية هى الانفعالية. فمشكلة العرب الرئيسية هى عدم قدرتهم على قبول دولة اسرائيل، وسبب هذا الرفض هو اتجاه العرب الانفعالى اللاعقلانى وخصوصا فيما

يتعلق باتجاههم ازاء اسرائيل، وهذه الانفعالية ترد فى نظرهم الى «ضعف حضارى». والعالم العربى فى نظرهم يعانى من «أزمة هوية» identity crisis أدت الى شعور العرب بالاحباط، الذى عكس نفسه على الاهتمام المفرط باسرائيل. ويرون ان العرب قد تخف درجة انفعاليتهم، ولكن ضعفهم الحضارى سيستمر فترة طويلة.

وقد اختلفوا حول تغير طابع الشخصية العربية، فذهب بعضهم الى ان «الاتجاه اللاعقلانى» لدى العرب قد يتغير فى جيل، فى حين ان فريقاً آخر ذكر ان ذلك سيستغرق أجيالا عديدة. وأجمعوا على أن هذا التغيير لن يحدث الا من خلال ثورة كاملة تضفى الواقعية على العالم العربى.

(جـ) الشعور الحاد بالاحباط:

ان فشل العرب فى عمليات تحديث مجتمعاتهم، قد عكس نفسه فى صورة شعور حاد بالاحباط، خصوصا حينما يقارنون بين ما حققوه وانجازات اسرائيل. ويرون أن ذلك فى حد ذاته ضد مصلحة اسرائيل، لأنه يؤدى الى شحن العرب بطاقات عدوانية موجهة ضد دولة اسرائيل.

مناقشة:

هذا هو النموذج الأساسى لبناء الشخصية العربية الذى يمكن استخلاصه من إجابات أعضاء الصفوة الاسرائيلية المعاصرة. والتحليل الدقيق لاجاباتهم عن الموضوعات الاخرى المطروحة، وخصوصا فيما يتعلق بموقف اسرائيل فى الصراع، واحتمالات السلام، يكشف عن أن هذه السمات التى ينسبونها للشخصية

العربية أقرب ما تكون الى ايديولوجية متكاملة ينسبونها للشخصية العربية (بالمعنى الخاص للكلمة، ونعنى الوعى الزائف بمكشلة ما) لتبرير عدوانية المشروع الصهيونى نفسه، ولتدعيم السياسات التوسعية للدولة الاسرائيلية. ان الشخصية العربية تعرض سماتها فى منطق أعضاء الصفوة الاسرائيلية المعاصرة من خلال ثنائيات مزيفة: عقلانية الاسرائيليين فى مقابل انفعالية العرب، مسألة اليهود فى مقابل عدوانية العرب، تقدم الاسرائيليين فى مقابل تخلف العرب، واقعية الاسرائيليين فى مقابل الأوهام التى تعيش فيها العرب.

هذه هى العناصر الأساسية للشخصية الاسرائيلية التى تعرض دائما بصورة صريحة او ضمنية فى مقابل صورة الشخصية العربية المزيفة، التى تحرص اجهزة الدعاية العلمية الاسرائيلية على الترويج لها فى العالم الغربى.

ان تصور الشخصية العربية لدى أعضاء الصفوة الاسرائيلية، سواء منها التقليدية أو المعاصره، قد تناوله العلماء الاجتماعيون الاسرائيليون لكى يصوغوا منه شبه نظرية متكاملة تتناول رصد سماتها الأساسية، وتفسير سر طابعها المتفرد كما تتحدث أيضا عن جمودها وعدم امكانية تغييرها.

وهذه النظرية كما سنرى، ليست سوى بلورة لكل الدعاوى العنصرية ضد العرب التى سادت التراث الغربى، وانحدرت منه الى الفكر الاسرائيلى المعاصر.

ثانيا - تصور العلماء الاسرائيليين للشخصية العربية

يمثل مفهوم الشخصية القومية أهمية خاصة بالنسبة لدراسة

المفهوم الاسرائيلى للشخصية العربية. ذلك لأن إحدى المعالم الرئيسية للاستراتيجية الدعائية الاسرائيلية هو التشوية المتعمد للشخصية القومية العربية. وقد برز ذلك بوجه خاص فى السنوات الخمس عشر الأخيرة(٢٤).

وهذه الحملات الدعائية ليست سوى حلقه من سلسلة موصولة من العداء الغربى للعرب على الصعيد الثقافى. وكما أدت النظريات العنصرية دورها فى القرن التاسع عشر، لكى تدعم الغزو الاستعمارى الاوروبى لشعوب العالم الثالث على مستوى الوعى الاجتماعى للشعوب الغربية، ولكى تثبت أسطورة رسالة «الرجل الابيض» فى تمدين الشعوب المختلفة، نجد المحاولات الاسرائيلية تدعمها بشدة المحاولات الغربية والامريكية على وجه الخصوص- كما أشرنا من قبل- تحاول تشويه الشخصية العربية، وكأنها بذلك تريد التخفيف من آثار العدوان الاسرائيلى فى نظر الغرب والغربيين. بل أن أسطورة «رسالة الرجل الابيض» تعود فى ثوب جديد حين تحاول اسرائيل اقناع الغرب انها هى حاملة شعار حضارته فى العالم العربى المتخلف، وهى التى ستنشر قيم الغرب فى المنطقة.

وإذا تأملنا الدراسات الاسرائيلية عن الشخصية القومية العربية يمكننا التمييز بين فئتين من الكتابات:

الفئة الأولى دراسات علمية أكاديمية: وهذه الدراسات تهدف أساسا إلى الفهم الموضوعى للسمات الأساسية للشخصية القومية

العربية، وهى بالتالى لا تجنح الى تشوية هذا الطابع بأى صورة. ولعل المثال البارز على هذا النمط من الدراسات الاسرائيلية- التى قد تكون قليلة فى ذاتها- هى أعمال البروفيسور جابريل باير الاستاذ بالجامعة العبرية.

ومن أهم كتب باير التى تكشف عن طابعه الموضوعى فى الدراسة كتابه «السكان والمجتمع فى الشرق العربى»[٢٥] و «دراسات اجتماعية فى التاريخ الحديث لمصر»[٢٦].

ويلفت النظر فى هذا الكتاب الأخير دراسة تتعلق بموضوعنا مباشرة عن «خضوع الفلاح وثورته»[٢٧] يحاول فيه ان يثبت باستخدام المنهج التاريخى، وعلى ضوء تحليله لعديد من المراجع والوثائق، كيف أن الفلاح المصرى على خلاف ما هو شائع عند المؤرخين والباحثين الأجانب فضلا عن المصريين أنفسهم لا يتسم بشخصية خانعه تقبل الظلم والقهر فى استسلام ذليل، ولكنه فعلا مارس الثورة مرات عديدة ضد مستغلبة وقاهرية.

والدراسة فى حقيقة أمرها تفنيد للأفكار النمطية الثابته عن الفلاحين المصريين.

الفئة الثانية- دراسات علمية دعائية: وهذه الفئة هى التى تعنينا فى المقام الاول فى دراستنا هذه. ذلك أن خطورتها تكمن فى انها ليست مجرد كتابات دعائية يكتبها كتاب غير متخصصين، ولكن من يكتبونها هم علماء اجتماعيون اسرائيليون يتقنون استخدام لغه العلوم الاجتماعية، ويتوجهون بكتاباتهم الى جمهور الباحثين الاجتماعيين فى البلاد الغربية، والى الرأى العام الغربى المثقف بوجه عام.

والهدف الرئيسيى لهذه الكتابات هو تشوية الشخصية القومية العربية وسنعتمد فى عرض التحليلات الاسرائيلية للشخصية القومية العربية على عدة مصادر اسرائيلية أهماها: الدراسة النظرية التى كتبها هاركابى عن «اسباب انهيار العرب فى حرب السته أيام[٢٨]. وتقرير لعالم النفس الامريكى اليهودى الدكتور فكتور صنوع[٢٩] صاغ فيها نتائج المقابلات النفسية التى أجريت على مجموعة من أسرى الحرب المصريين، ونشرته ساره هونجSarah Hong مراسلة الجيروزاليم بوست فى ١٨ أكتوبر عام ١٩٧٠[٣٠]، وكتاب شاؤول فريد لاندر «تأملات في مستقبل اسرائيل». وتحليل اسرائيل لآراء عدد من المثقفين المصريين عن الشخصية القومية المصرية.

وعلى ضوء تحليلنا لهذه الكتابات الاسرائيلية يمكن القول أنها تتضمن نظرية متكاملة عن البناء الاساسى للشخصية العربية، قدمها هاركابى وأيد مسلماتها صنوع، ثم تحليلا لمادة اعلامية مصرية استخلص منها جمهور الشخصية القومية المصرية، وأخيرا تحليلا لامكانية تغير الشخصية القومية العربية.

ونظرا لتفاوت المادة التى اعتمدت عليها هذه التحليلات المتعددة، فقد يكون من الأنسب عرض وتحليل كل منها على حدة، على أن تحدد بعد ذلك نواحى الاتفاق والاختلاف بينها.

البناء الأساسي للشخصية العربية: الفردية واتجاه العرب ازاء الحقيقة

والواقع يبدأ هاركابى من مسلمة صحيحة تماما هى ان النصر الاسرائيلى فى حرب يونيو ١٩٦٧، لايمكن رده فقط الى عوامل

عسكرية خالصة. فما دامت الحرب صراعا مسلحا بين طرفين، فلا بد من دراسة امكانيات وقدرات كل طرف، من وجهة النظر الاجتماعية والحضارية. ومن رأية أن النصر الذى يتم احرازه بواسطة طرف من أطراف الصراع لايرد فقط الى قوة هذا الطرف، بل الى ضعف الطرف الخاسر أيضا.

وعلى ضوء هذه المسلمة التى لانظن أن أحدا يختلف بصددها، يرتب هاركابى نتيجة أساسية مفادها أن «الهزيمة التى لقيها العرب نتيجة الانهيار الكامل لقواتهم المسلحة لايمكن أن ترد فقط الى الفشل الذى اصابهم فى ميدان المعركة. ذلك أن السبب العميق الكامن وراء هذه الهزيمة الكبرى، يكمن ولاشك فى ضروب الضعف فى الشخصية القومية، وفى النسيج القومى، وفى الروح القومية وكذلك فى المفاهيم الرئيسية السائدة».

ويضفى هاركابى على دراسته مسحة من الموضوعية، فيذكر انه ينبغى الحذر فى استخدام مصطلح الشخصية القومية، لأن هناك خطرا فى الاعتماد على التعميمات المبنية على ضروب التحيز المختلفة. غير أنه يعود فيقرر «أنه مع ذلك فعند مناقشة أوضاع الجماعات الاجتماعية والشعوب، فلا مناص من إسناد شخصية جماعية للجماعة محل البحث» ويعد هذه المقدمات النظرية قدم هاركابى فرضه الاساسى الذى يريد عن طريقه تحديد العامل الحاسم فى الهزيمة العربية وقد صاغة كما يلى :

«ضعف العلاقات الاجتماعية التى تربط العربى بالعربى هو المسؤول عن الهزيمة».

ويتقدم هاركابى بعد ذلك «ليثبت» الفرض الأساسى الذى قدمه

فيرى أنه بسبب هذا الضعف فى العلاقات الاجتماعية، يجد كل جندى عربى نفسه فى اللحظات الحرجة فى المعركة يحارب ليس باعتباره عضوا فى فريق، ولكن كفرد منعزل. ويترتب على ذلك أن كل فرد يميل أساسا الى أن ينظر لنفسه، مما من شأنه أن يفتت من الوحدة. وتبدو خطورة هذه السمة الاجتماعية، اذا ما نظر للحرب باعتبارها نشاطا جماعيا يقوم على التعاون. ومن المعروف ان الحرب تتضمن دائما المساعدة المتبادلة، فحين تتقدم دبابة تغطيها دبابه أخرى، ومعنى ذلك انها تعرض نفسها للخطر والدبابه المتقدمة تشق طريقها للأمام، لأن طاقمها يعرف ان الدبابات الأخرى تغطيها. ان هذا الأسلوب ينطبق على كل أنواع القتال، وعلى كل المستويات. وعلى ذلك ففى المعركة يرتبط الرجال ببعضهم بعضا، ويعرضون أنفسهم للخطر فى ظل رفقة أصيلة وفى موجهة الموت، حيث تجمعهم أخوة المقاتلين.

ويحاول هاركابى اثبات الدور الحاسم للروابط الاجتماعية فى الحرب على ضوء بحوث علم النفس الاجتماعى التى اثبتت أهمية روح الزمالة فى الحرب. ويستشهد بالبحوث التى قام بها الجيش الامريكى أثناء الحرب العالمية الثانية والتى أشرف عليها ستاوفر(٣١) والتى سئل الجنود فى بعضها السؤال التالى:

«ما الذى كان يثبت من عزائمكم فى لحظات الخطر، وما الذى كان يشجعكم على الاستمرار؟».

وقد أظهرت نتائج البحث أن قلة من الاجابات هى التى ذكرت

الكراهية كعامل دافعى، وقد ركز أغلب الجنود على شعورهم بضرورة تنفيذ التزاماتهم قبل زملائهم، ذلك الشعور الذى اطلق عليه «الدافع الانتمائى» affiliative motive

اذا سلمنا بهذه الحقيقة العلمية، فما هى تطبيقاتها بالنسبة للسلوك العربى فى ميدان المعركة؟

هنا نجد هاركابى يحشد اقتباسات متعددة من مصادر عربية واجنبية لكى يثبت فرضه الذى بدأ منه، وهو ضعف الروابط الاجتماعية بين العرب وانعكاس ذلك على السلوك فى المعركة، التى انتهت بالهزيمة للجانب العربى ويبدأ بعالم الاجتماع الامريكى مورو بيرجر الذى يذكر أنه بناء على عدد من الدراسات التى اجريت على العالم العربى، يمكن القول أن هناك ضعفا فى الروابط الاجتماعية، وان نسبة عدم الثقة والعداوة والتى تسود بين الناس مرتفعة.

وفى بحث آخر أجراه جيلسباى وأولبورت(٣٢)، على مجموعة من الطلبة من مختلف الجنسيات سئلوا فيه ان يسجلوا ثلاث حوادث رئيسية أثرت فى حياتهم وأظهرت نتائج البحث أن الطلبه المصريين، وصفوا خبرات سيئه عبارة عن حالات وضعوا فيها ثقتهم فى الآخرين، ولكن هؤلاء الأشخاص خذلوهم(٣٣).

والدرس الذى تعلمه هؤلاء الطلبة، انه لاينبغى الثقة فى الناس، بل يجب التعامل معهم على أساس الشك فيهم.

وهناك بحوث أخرى على مايقرر هاركابى أظهرت انه يوجد بين

العرب أكثر من غيرهم من الجماعات السلالية نسبة عالية من التحفظ والشك والعدواة ويستند الى بحثى حامد عمار: «التنشئة فى قرية مصرية» والدمرداش عبد المجيد سرحان «المصلحة والخضارات»(٣٤).

ومرة أخرى يستند الى برجر الذى خلص من تحليلاته الى أنه يوجد فى المجتمع العربى ما يطلق عليه علماء النفس الاجتماعيون «العدواة المنتشرة أو الطليقة»floating hostility أى العداوة الكامنة، التى لاتركز على عدو معين بالذات. وهذا الشك السائد يرد فى الظاهر الى الخبرة التى تتمثل فى أن الناس ينصرفون لخدمة مصالحهم، وانهم لن يساعدوا الآخرين، بالاضافة الى أن المرارة الناجمة عن خيبة الأمل فى الآخرين تكشف عن درجة من درجات اللامبالاة ازاء مشاكل الناس.

ويسوق هاركابى جملة من بحث الأب عيروط المعروف(٣٥) «الفلاح المصرى» يذهب فيها الى أن «الفلاح بالرغم من أنه يعيش فى حشدherd الا انه يبقى فى أعماقة منعزلا ووحيدا».

وتوجد بالاضافة الى ذلك لدى العرب ظاهرة عامة هى «الفردية السلبية» حسب ما يرى بيرجر، وهذه الظاهرة تعنى أن هناك تناقضا فى الأسرة العربية التى هى فى الظاهر تبدو متحدة بعمق، ولكنها فى نفس الوقت يسودها التنافس والنزاعات والاتجاهات المتناقضة وجدانيا (كالحب والكراهية)ambivalenta ttitudes

ويقدم بيجر تفسيرا للكرم العربى وللترحيب بالغير باعتباره – جزئيا– وسيلة لتحييد العداوة عن طريق خلق مسافة بين الناس.

وهو يذكر بالنص «ان الكرم العربى المبالغ فيه، وذلك الأدب المفرط هو- على الاقل فى جزء منه- رد فعل للعدواة المتطرفة» اذا كان الأمر كذلك، فإن ظاهرة العدواة الداخلية قد تكون فى نظر هاركابى- عميقة ولصيقة بالحضارة العربية.

وركز بيرجر- كما يستشهد به هاركابى- فى وصفه للعرب على السمات الاتيه: تضخم الأنا ego والفردية المفرطة. وينعكس ذلك على علاقاتهم الشخصية مما يسهم فى احساسهم بالتباعد. وهذا الاتجاه نحو التباعد يكمن أيضا فى العلاقات بين الحكام ولمحكومين. ولعل عدم الثقة بين الحكام والمحكومين يرد فى رأية الى التاريخ الطويل الحافل بالسلوك التعسفى من جانب مختلف الحكام ومن يمثلونهم من البيروقراطيين.

ودعم هاركابى عرضه ببعض الاستشهادات من كتاب لباحثة أمريكية لبنانية الأصل هى سنية حمادى[٣٦] التى ذكرت «أن العرب يظهرون فى علاقاتهم الاجتماعية قدرا كبيرا من العدواة... والقاعدة عامة، فمشاعرهم العدوانية لا تحول للداخل، ولكنها توجه للآخرين». وتقول فى موضع أخر:

«إن انعدام الثقة فى الغير صورة أخرى من الصور التى تتحقق فيها الفردية العربية.. وقد أظهر العرب عجزا عن الوحدة المنظمة والوثيقة. والمناخ الذى تسوده النزاعات هو الذى يمييز البيوت العرية... والعرب قد تمرسوا على قدرات الحماس الجماعية، ولكنهم لايستطيعون المتابعة الجماعية الدؤوب لنشاط ما».

وتضيف سنية حمادى الى أوصافها للعرب:

«ان الوعى الجمعى للعرب ليس ناضجا، ووعيهم الاجتماعى ضعيف وارتباطهم بالدولة مهزوز، وتوحدهم مع القادة ليس قويا، وأن «العربى نادرا ما يضع أهدافه فى خدمة أمته» وهكذا فالحكومة لا تمثل مجهودا جماعيا لاصلاح حال الكل، وإنما هى ليست الا هيئة تستطيع بفضلها القلة أن تحصل على امتيازات.

وخلاصة ذلك كله، أن ضعف الصلات الاجتماعية بين العرب كان لابد له فى نظر هاركابى أن ينعكس فى المعركة. فبدلا من ان يكون الجندى العربى عضوا فى فريق، ويستمد ثقته منه، يتحول الجندى العربى الى فرد وحيد ومنعزل ومادامت الصلات الاجتماعية ضعيفة، فمعنى ذلك ان الاطار الشكلى الذى ينتظمها ينهار بسرعة تحت وطأة المعركة.

ويركز هاركابى تفسيرة فى أسباب هزيمة العرب فى عاملين أساسيين: هما الفردية من ناحية، واتجاه العرب ازاء الحقيقة والواقع من ناحية أخرى.

الفردية:

يرى هاركابى ان الكتابات العديدة عن القومية العربية، وكذلك حملة الدعاية الخاصه بها تشهد بالاحساس بالحاجة الى خلق وحدة أصلية، والى زرع الاعتقاد بالمصلحة العامة والاستعداد للعمل من أجلها. وغالبا ما يصف العرب مقومات القومية ويعددون سماتها، ولكن بالرغم من ذلك، فيظهر ان هذه المقومات ليست كافية تماما، فهى قد تصلح لخلق شعور غامض بالوحدة التى لايسمى لتحقيقها فعلا ويبدو الأمر كما لو كان للأمة وجود رمزى فقط، وبذلك تبقى

الوحدة العربية على مستوى مجرد. ولعل الثناء المسرف على الوحدة العربية ينبع فى جزء منه من هذا الشعور بالوحدة والعزلة.

ومن ناحية أخرى «فالاشتراكية العربية» لم تخلق الوعى بالحاجة الى العمل فى سبيل الصالح العام. ان غياب الوعى السياسى، والصعوبات القائمة أمام جعل «الاتحاد الاشتراكى العربى» مؤسسة سياسية فعالة، ناجمة فى جزء كبير منها عن الاحساس بأن كل فرد عليه أن يحارب معركتة فى الحياة بفرده، وذلك نتيجة لتفتت المجتمع، وضعف الصلات بين أفرادة.

ويرى هاركابى أن هذه السمة لاتظهر عند العربى فقط باعتباره فردا، مادام يمتلك نفس القدرات والمواهب التى يمتلكها غيره من الناس، ولكنها ترد الى ضعف جماعى أو حضارى collective or cultvral weakness ضارب بجذورة فى أرضية العلاقة بين الفرد تجاه مواطنية وتجاه مجتمعه.

ان العرب فى رأى هاركابى- يفتقرون الى التكامل القومى، وهم واعون بضعفهم الداخلى. وليس أدل على ذلك من أنهم فى نقدهم الذاتى يركزون غالبا على الحقيقة التى مؤداها أنهم يتصرفون وفق مصالحهم الصغيرة فقط، وبغير مراعاة للصالح العام. ويستشهد هاركابى على ذلك بخطبة الرئيس جمال عبد الناصر فى ٢٣ يوليو ١٩٦٧ حين دعا كل فرد إلى أن يتحمل مسؤوليته، وألا يليقيها على غيره من الأفراد.

وفى مجال تركيز هاركابى على الأهمية الحاسمة للتكامل فى

الحرب استشهد بابن خلدون الذى ركز على أهمية التكامل فى الحرب، ودعاه بالعصبية، ويعنى بها التماسك الاجتماعى، والوعى الجماعى، وروح الجماعة. والعصبية- عند ابن خلدون- هى العامل الاساسى الذى قوم عليه كل التفسير السوسيولوجى للتغير الاجتماعى، ولنشأة الدول وزوالها.

ويجد هاركابى الفرصة سانحة أمامة لابداء بعض مشاعر التشفى ازاء الهزيمة العربية فيذكر انه من قبيل سخرية الأقدار، ان ابن خلدون لاحظ ان انهيار اليهود يرد الى ضعف العصبية بينهم، وانهم عانوا نتيجة ذلك المذله والهوان حين تركوا انفسهم نهبا لذكريات امجادهم السابقة، ولكن يبدو الآن ان البندول قد دار دورة كاملة.

اتجاه العرب ازاء الحقيقة والواقع:

اذا كانت الفردية هى العامل الأول الحاسم الذى أدى الى الهزيمة العربية، فان اتجاه العرب ازاء الحقيقة والواقع هو العامل الثانى. ويبدأ هاركابى تحليله بابداء دهشته من كثرة استخدام الكذب والتزييف فى حياة العرب العامة. فزعماء العرب- فى نظره- كثيرا ما يصدرون أقوالا كاذبة مما يؤدى الى تضليل شعوبهم.

ويلبس هاركابى مسوح الموضوعية حين يقرر ان مشكلة التزييف بالغة الدقة، وانه كاسرائيلى قد يكون متحيزا، ومع ذلك لايجد مفرا من مناقشة الموضوع.

يقرر هاركابى أولا مؤكدا مناقشته الموضوعية المزعومة أنه

بالطبع ليست هناك أمه تستطيع أن تزعم أنها مبرأة تماما من اصطناع الكذب أو التزييف ومن ناحية أخرى لايمكن للمرء أن يذهب الى حد القول إن كل العرب كاذبون، بالرغم من أن الكذب بارز فى حياتهم العامة.

ويزعم هاركابى أن هناك باحثين جادين سجلوا غلبة الكذب وتكراره بين العرب(٣٧)، ويقنع بالاشارة الى هذا المؤلف المفرد، ويعتبر حكمه حقيقه غير قابلة للجدل ولايبقى أمامه سوى التصدى لمحاولة تفسيرها!

ويستعرض هاركابى التفسيرات المتعددة التى قدمت لشرح أسباب هذه الظاهرة. ويبدأ أولا بكتاب سنية حمادى عن العرب، وهو المرجع الأول الذى يستند اليه والذى سنعرض له بشئ من التفصيل فيما بعد، ونحن بصدد تقييم هذه التحليلات المتعددة للشخصية العربية. ترى سنية حمادى ان سبب ميل العرب للكذب يُرد الى صميم حضارتهم. ولتدعيم رأيها تقتبس فقرة من كتاب الفيلسوف الغزالى «احياء علوم الدين»، يذهب فيها الى انه «إعلم ان الكذبة ليست حراما فى ذاتها، ولكن فقط بسبب النتيجة السيئة التى قد تصيب سامعها فتجعلة يعتقد فى شئ على غير الحقيقة... واذا كانت الكذبة هى الطريق الوحيد للوصول الى نتيجة صالحة فهى حلال».

وهكذا فالكذب ليس خطأ فى ذاته perse، والتفرقة بين الحقيقة والكذب رهين بتحقيق النتيجة، وعلى ذلك فالحقيقة والكذب لهما قيمة عملية pragmatic value فقط. وتقرر سنية حمادى «ان العربى

لايشعر بالحرج حين يكذب اذا ما كان ذلك يحقق له أغراضة، فضميرة يتمتع بمرونه فائقة».

ويرى هاركابى انه من الصعب تقدير مدى صحة تفسير سنيه حمادى.

وينتقل الى تفسير آخر يرد الظاهرة الى اللغة العربية وأساس ذلك أن اللغة العربية تساعد العربى على أن ينحو نحو التطرف والمبالغة، ويغريه فى ذلك استخدام التعبيرات اللفظية، بغير ان يهتم بما تعنيه فعلا. ويرفض هاركابى هذا التفسير أيضا سعيا- كما سنرى- نحو تدعيم فرضه الاساسى وذلك على أساس أن اللغة مجرد أداة، وهى بذلك لايمكن لها- فى حالة اللغة العربية أن تدفع العرب بحكم خصائصها الى الكذب، وبالتالى فلا يمكن القول أن العرب هم ضحايا لغتهم.

ولايبقى أخيرا سوى تفسير هاركابى نفسه، الذى يذهب الى ان الكذب هو وليد العدواة بين الناس. فسيادة الكذب بين العرب يمكن ان يرد الى العدواة بينهم فكلما كان الفرد قريبا من الآخر كلما تحرج من أن يكذب عليه.

وبعد ان يقدم هاركابى تفسيره يحاول أن يظهر بصورة الباحث الموضوعى حتى آخر المدى، فيقرر أنه حتى هذا التفسير لايبدو كافيا لتفسير هذه الظاهرة المحيرة!

ويشير هاركابى فى النهاية الى خطورة الكذب فى مجال القوات المسلحة، اذا ما قدمت القيادات الى رئاستها تقارير مضللة أو كاذبة، مما يؤدى الى بناء صورة مزيفة عن الذات. بالاضافة الى ان الكذب

لايقتصر على عدم تقديم التقارير غير الصادقة، ولكنه يعنى أيضا عدم الأمانة في التنفيذ الذى يكشف عنه العمل السطحى أو المعيب، وهذا التزييف يأخذ شكل التخطيط المعيب، والأوامر غير الدقيقة والتنفيذ غير المضبوط.

وينهى هاركابى تقييمة للشخصية العربية بقوله أنه بالرغم من أن الكذب وضعف الصلات الاجتماعية تعد عناصر أساسية فى المجتمع العربى، الا انه لا ينبغى اعتبارها سمات أبديه. فالشعوب يمكن أن تتغير تغييرا جوهريا من شخصيتها القومية، ويضرب مثلا بذلك باليهود فى اسرائيل، غير أنه يعود فيقرر ان تغيير الشخصية القومية ليس عملا سهلا مادام يتطلب اعادة صياغة للنسق الحضارى بأكملة.

تأييد صنوع لنظرية هاركابى:

يعالج صنوع موضوع الشخصية القومية من مدخل لايعتمد على التحليلات النظرية، وإنما على حصيلة لنتائج الاختبارات النفسية التى طبقت على أسرى الحرب المصريين. على أننا سنلاحظ بوضوح أنه محض ترديد لنفس المسلمات والنتائج التى سبق لهاركابى أن صاغها.

ويرى الدكتور صنوع ان الشخصية العربية، تعد عاملا أساسيا من العوامل التى تؤثر على الصراع فى الشرق الأوسط. وقد قرر فى بحث قدمه عن هذا الموضوع الى المجلس الدولى لعلماء النفس الذى عقد فى اكتوبر ١٩٧٠، فى جامعة بارايلان الاسرائيلية.

«غالبا ما يقال أن الخيال(*)» أو «عدم العقلانية»(*) أو «القابلية للإنخداع(-)» هى سمات لغير المتعلمين ومن ناحية أخرى يفترض ان العرب بمرور الزمن، ومع ازدياد درجة تشبههم بالعالم الغربى، سينمون اتجاهات العقلانية فى تفكيرهم، غير أنه مع ذلك، يبدو أن هذا لم يتحقق فى العالم العربى».

وقد اعتمد صنوع فى تقريره على اقتباسات من مقابلات ذكر أنها أجريت مع أسرى الحرب من المصريين، الذين سئلوا عما اذا كانوا قد شاهدوا بأعينهم طائرات أمريكية او انجليزية تقصف مصر. ويقرر صنوع:

«وجد أن الجنود، وأغلبهم من الفلاحين قرروا أنهم لم يشاهدوا هذه الطائرات فى حين أن نسبة عالية جدا من ضباطهم، الذين ينتمون الى الصفوة المتعلمة، كانوا متأكدين من انهم شاهدوا مثل هذه الطائرات بأعينهم».

«ومن ناحية أخرى كان هناك ارتباط سلبى بين التعليم وقول الحقيقة، اذ أن هؤلاء الرجال حين سئلوا عن البناء الاجتماعى المصرى، ذكر الضباط أنهم ينتمون الى مجتمع لا طبقى».

ما هو تفسير هذه الاتجاهات للمصريين ازاء الحقيقة والواقع؟ يقرر صنوع «أن التفسير لا يكمن فى القول بان العالم العربى متخلف، ذلك أنه يعتبر متقدما بدرجة عالية للغاية، اذا ما قورن بالعالم الثالث. فالعرب لديهم حضارة عظيمة، ولكن يبدو أن هذه الحقيقة فى ذاتها، التى تجعلهم يرتبطون بمضايهم تؤخرهم بدلا من أن تدفعهم للتقدم. فهم ينظرون لمجدهم الغابر، وذلك لكى

يدعموا احساسهم الراهن بالأهمية. ان التأكيد على التاريخ الماضى يعطى الوهم بان التاريخ سيعيد نفسه. ولكن هذا يمثل عقبة كؤودا، لأنه يمنع التغير. ويبدو ان الاقطار المتخلفة التى نالت استقلالها حديثا، قد يكون أسهل بالنسبة لها أن تتكيف مع التكنولوجيا الحديثة، من الدول العربية، لأنها متحررة من أثقال الماضى».

ويؤكد صنوع أن جوهر المشكلة يتمثل فى اتجاه العرب ازاء الواقع وتسامحهم ازاء الكذب، وميلهم الى المبالغة.

وإذا كان حقا ان دولا عديدة تستخدم أنصاف الحقائق أو الأكاذيب لأغراض الدعاية، الا أن الأكاذيب فى الشرق الأوسط تستخدم بغزارة وبدون أن تصفى من خلال أى شبكة منطقية واخفاق العرب فى التفكير المنطقى يمكن أيضا أن يفسر استمرار العرب فى التمسك بحقوق من هم فى حالة حرب، بدون ان يعترفون للاسرائيليين بنفس الحقوق، واذا كانت دولة ما فى حالة حرب ضد دولة أخرى، فكيف يمكن لها أن تمنع الدولة الأخرى الطرف الآخر فى الحرب من الاستناد الى حقوقها كدولة محاربة؟ ومع ذلك فحين هاجمت اسرائيل العرب الذين نادوا بضرورة تدميرها، وصفت بأنها «معتدية».

ويحرص صنوع– تماما مثل هاركابى على أن يرتدى ثوب الموضوعية العلمية فيقرر أن هذه السمات لاينبغى النظر اليها باعتبارها جوانب قصور فطريه موجوده لدى كل فرد عربى، ولكنها نابعة من نسق كلى شامل لمعايير اجتماعية– حضارية.

ويرجع صنوع الى أبحاث الباحث الأنثروبولوجى المصرى حامد

عمار فى بحثه المعروف عن «التنشئة الاجتماعية فى قرية مصرية» الذى تفسر نتائجة بعض الانماط السلوكية، على ضوء دراسة أساليب تربية أطفال فى قرية مصرية. وتوجد بين هذه الأساليب، طريقة لفرض الطاعة من خلال تخويف الأطفال من كائنات خرافية، فالغول مثلا يصور باعتبارة وحشا ضخما غزير الشعر يفترس الأطفال المشاغبين. ويشير صنوع الى أن حامد عمار فى بحثه يذكر أنه تحدث مع عديد من الأطفال فى قرية فى الدلتا واكدوا له انهم فعلا سبق لهم رؤية الغول. والطفل لكى يهرب من العقوبة، يبتكر حيله لكى يكذب ويقتبس من عمار قوله «أن آثار هذا التكنيكات الخاصه بالخوف واجبار الأطفال على اللجوء الى الأكاذيب والخداع، ينعكس مؤخرا فى حياتهم يشبون عن الطوق ويصبحون رجالا راشدين، يسود حياتهم الشك، والتكتم والخوف»(٣٨).

ويضيف صنوع أنه اذا كانت الدراسة السابقة لعمار تتعلق أكثر ما تتعلق بالمصريين غير المتعلمين، فقد وضع عدد من العلماء الاجتماعيين اياديهم على مشاعر الشك السائدة بين المصريين المتعلمين. ويشير مثل هاركابى تماما الى بحث جليسباى وأولبورت الذى سبق أن أشرنا اليه، ويركز على اجابات بعض الطلبة المصريين الذين كانوا يدرسون فى الولايات المتحدة الأمريكية (وهم عينة البحث) والتى وافقوا فيها بأغلبية كبيرة على العبارة التالية التى وردت فى استمارة البحث «العالم مكان تسوده المخاطرة، حيث الناس أشرار بصفة أساسية ويتساوون بالخطورة».

ويرى صنوع فى النهاية أن الغربيين- بما فيهم الاسرائيليين-

غالبا مايفشلون فى فهم الخلفية الحضارية للعالم العربى، ومن هنا الاعتقاد الذى ساد بين بعض كبار الباحثين النفسيين الامريكيين من أن سرحان بشارة سرحان الذى قتل روبرت كيندى هو مجنون. ويرى صنوع رأيا مخالفا، فمع تسليمه بأن بشارة يعانى من بعض اضطرابات الشخصية، الا أنه لايمكن تشخصية باعتباره شخصية شبة قصامية(٣٩) بالمعنى الغربى لهذا المصطلح فاستجابات بشارة على اختبار الرور شاخ(٤٠) تضمنت ذكر «الدم» وهى استجابة اعتبرها عديد من السيكلوجيين غير صحية. غير أن كلمة «الدم» غالبا ما تستخدم فى البيان العربى. واذا كانت رؤية الدم فى بطاقات «الرور شاخ» فى الغرب تعتبر استجابه مرضية، الا أن الأمر ليس كذلك بالنسبة للشخص العربى. والحقيقة التى مؤادها أن بشارة رأى الدم فى بطاقات «الرور شاخ» تعنى أساسا انعكاسا لخلفيته الحضارية، أكثر منها انعكاسا لمرضه العقلى.

وأخيرا ينهى صنوع تحليله للشخصية العربية بالقول بأن صراع الشرق الاوسط أخذ ينزع نحو حدود المرض النفسى، وليس هناك صراع فى العالم قد لقى اهتماما مثله، ولعل هذا جزء من المشكلة، وربما لو توقفت اذاعة أنباء الشرق الأوسط فى رأى صنوع فهذا قد يساعد على احداث بعض الآثار فى الموقف الراهن (!!) غير أنه لايرى امكانيه قبول العرب لاسرائيل كحقيقة فى المستقبل القريب.

اذا كانت التحليلات الاسرائيلية السابقة تتمثل فى تعرض عدد من العلماء الاجتماعيين الاسرائيليين مباشرة لتحليل البناء

الاساسى للشخصية القومية العربية، فانه مما يلفت النظر بشدة حرص بعض المجلات اليهودية الصهيونية على تعقب وتحليل كافة المناقشات الفكرية التى تثور فى العالم العربى عن الشخصية القومية العربية. وقد استغلت هذه المناقشات للترويج لفكرة مؤداها أن الشخصية العربية تتسم بالجمود والتصلب، وانها غير قادرة على تجاوز سلبياتها العديدة نتيجة سمات غريزية تتسم بها.

ولعل ابرز مثل على ذلك ما نشرته مجلة «الجويش اويزيرفر أندميدل ايست ريڤيو» فى عددها الصادر فى أول ديسمبر ١٩٧٢، من تحليل لمجموعة آراء لعدد من المثقفين والكتاب المصريين عن الشخصية القومية المصرية: مدى ثابتها وتغيرها[٤١].

ولعل عنوان المقال التحليلى ذاته يكشف فورا عن وجهة نظر كاتبه «مصر: نفس اللامبالاة القديمة تثقل على الاتجاهات التى لم تتغير منذ القرن التاسع عشر»[٤٢].

ويبدأ المقال بالاشارة الى كتاب ادوارد لين المعروف «عادات المصريين المعاصرين وشمائلهم»، ويقتبس منه فقرة يراها مفتاحا للشخصية المصرية. يقول لين «أن المصريين تأثرا منهم بعقيدتهم فى القدر- يظهرون فى أوقات الأزمات الحادة صبرا مثاليا، وبعد كل حادثة جسيمة تصيبهم، يظهر بدرجة ملحوظة احساسهم بالضياع واليأس، الذى يكاد يقترب من اللامبالاه وغالبا ما يعبرون عن أسفهم باطلاق تنهيدة، ويترديد عبارة: الله كريم».

ويواصل الكاتب رجوعه الى كتاب لين، فيذكر ان لين يتحدث فى

موضوع أخر عن «الكسل» الذى يرى أنه «ينتشر بين كل طبقات المصريين ما عدا هؤلاء الذين تجبرهم ظروفهم على كسب ١١ المصرى عيشهم عن طريق العمل اليدوى الشاق».

ويقول الكاتب ان هذه الملاحظات عن المصريين كتبت من ١٣٦ عاما. وبعد كتابتها بقرن كامل وجه الكاتب المصرى ابراهيم عبد القادر المازنى لمواطنية الاتهام بأنهم «تركوا انفسهم يستسلمون للحياة المترفه والكسل، وتوانوا عن ممارسة القوة والشجاعة والقتال، انهم ليس لديهم ميل للمغامرة».

ويتساءل كاتب «الجويش اويزيرفر» ولكن ماذا عن مصر اليوم؟ ان مصر- كما ذكر أحد الكتاب المصريين فى مجلة اسبوعية قاهرية- قد لحقت بها تغيرات هامة وجذرية، وهى اليوم تواجه معركة مصيرية، ولاتستطيع ان تخوضها اذا كانت سمات المصرى كما وصفها المازنى. لقد ذهب الصحفى المصرى ليسأل عددا من كبار المثقفين والكتاب المصريين ليتعرف على ارائهم بصدد التغير الذى لحق بالشخصية القومية المصرية. ويرى كاتب الجويش أويزيرفر أن الاجابات التى حصل عليها الصحفى المصرى كانت على الاجمال- هروبية وتبريرية وبالغة العمومية. ولكنها بالرغم من ذلك كله فإنها- كما يرى- تكشف عن أشياء ذات دلالة.

ويلخص كاتب الجويش أويزيرفر اجابات المثقفين والكتاب المصريين[٤٣] كما يلى:

يرى توفيق الحكيم أن ما دفع المازنى الى وصف المصريين بذلك من ٣٦ سنة يرجع الى «سلوك الأحزاب السياسية فى ذلك الوقت وتكالبهم على السلطة والامتيازات وفشلهم فى توحيد قوى الأمة

لمجابهة المحتلين» ومع ذلك فمصر كما يرى الحكيم «قد خاضت تحديات عديدة بغض النظر عن نتائج هذه التحديات. والجانب الحاسم- فى رأى الحكيم- الذى ينبغى التركيز عليه فى الاعداد لمعركة المصير فى الجانب الحضارى. فليست هناك معركة متناسبة يمكن أن تقوم بين أناس ينتمون للقرن العشرين واناس ينتمون للقرن العاشر أو الخامس عشر.

ويذهب كاتب الجويش اوبزيرفر الى انه من الغرابة الشديدة أن نجد اثنين من المثقفين المصريين اللذين سئلا عن سمات الشخصية القومية المصرية، قد ذكرا بعض السمات التى سبق لادوارد لين أن ذكرها من مائة وستة وثلاثين عاما.

فقد قرر عبد الرحمن الشرقاوى أن سمتين أساسيتين من سمات الشخصية المصرية هما الصبر، وقوة التحمل وهاتان السمتان ليستا علامة على السلبية، اذ انهما فى معناها الحقيقى يمثلان المقدمة اللازمة قبل انتهاج طريق واع لايتم التحول عنه. ويضيف الشرقاوى أن المصريين قاوموا دائما الطغيان والظلم، ولعل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كانت قمة هذه المقاومة.

وذكر يوسف السباعى أن سمات الشخصية المصرية هى: الصبر، وتحمل الألم، والذكاء، والمرح، والمثابرة فى العمل، والصلابة فى مواجهة الأعداء والاعتقاد فى الله.

وذهب نجيب محفوظ الى أن عبارات المازنى لايمكن أن تنطبق على شعب غالبيته عمال صبورين من الذين يعيشون وفقا للشعار: «من كل بحسب قدرته، الى كل من يستطيع أن يساعده على الحياة».

وما قاله المازنى ينطبق أكثر ما ينطبق على الطبقة التى ورثت ثورة عام ١٩١٩ عن طريق الانقلابات غير المشروعة، تماما كما ورثت ثورة ١٩٥٢ واستغلتها.

ويقرر كاتب الجويش أويريزفر أن صلاح عبد الصبور كان هو الوحيد بين الكتاب المصريين الذين أكد أن المصريين قد تغيروا.

اذ ذكر أن «الشخصية المصرية الجديدة تواصل مرورها بمرحلة النمو، وهى حين تصل الى مرحلة الازدهار الكامل ستكون أكثر قدرة على مجابهة المجهول، وأكثر استعدادا لموجهة المغامرة. ان هذه السلبية قد أضرت بمصر، وأعتقد أن مصر الآن قد انطلقت فى الطريق».

وينهى كاتب الجويش أويزيرفر عرضه لآراء المثقفين والكتاب المصريين بقوله: «يبدو أن لين كان على حق- على الأقل فى واحدة من ملاحظاته- حين قرر أن المصرى مازال يرفض أن يصوغ أى اقتراض فيما يتعلق بمستقبلة».

ولعلنا لسنا بحاجة الى اثبات التحيز الواضح للمجلة اليهودية الصهيونية. فقد تجاهل المحرر تماما كل السمات الايجابية التى نسبها المثقفون المصريون للشخصية المصرية، ليستخلص حكما عاما مؤداه أن الشخصية المصرية تتسم بالجمود، وانها لم تتغير منذ قرون. ويتضمن هذا الحكم عدم قابلية هذه الشخصية القومية للتطور، وعجز المصريين عن خوض اختبارات التحديث والعصرية.

ويوحى هذا الحكم الاجمالى الذى صاغة الكاتب الصهيونى ان السمات السلبية التى تلصق بالشخصية المصرية أو بالشخصية العربية بوجه عام، سمات غريزية تكمن فى صميم البناء النفسى

للعرب، مادامت قد مرت عليها القرون وهى فى صميم البناء النفسى لن يتغيرا.

ولكن لم يصل الى هذا المدى من التحيز والتزييف الصريح كل الكتاب الصهيونيين أو الاسرائيليين، فبعضهم كما سنرى بعد قليل– يستنكرون الحكم الصهيونى السابق، وينفون أن يكون العجز العربى الراهن محصله سمات سلبية غريزية، اذن ما هو التفسير الذى يقدمونه؟

امكانية تغير الشخصية العربية وشروطه

قدم هذا التفسير البرفيسور الاسرائيلى شاؤول فريد لاندر. وهو على عكس هاركابى وصنوع لم يقم بدراسة مستقلة عن الشخصية العربية، وإنما تعرض لتحليلها عرضا فى كتابه «تأملات حول مستقبل اسرائيل»(٤٤)، واستخدام فى هذا التحليل بعض الأفكار الأساسية التى وردت فى دراسة هاركابى. غير أن الذى يدعوا الى عرض أفكارة أنه يثير بذكاء المشكلة الهامة الخاصة بامكانية تغيير الشخصية العربية، وهى المشكلة التى سنعرض لها بشئ من التفصيل فيما بعد.

يعرض فريد لاندر للشخصية العربية من خلال طرح سؤال رئيسى مؤداه: لنفترض قيام العرب بشن حرب على اسرائيل، عن طريق توجيه هجوم مفاجى دون أى أستفزاز من جانب اسرائيل، وعدم تدخل الاتحاد السوفييتى مباشرة، فماذا يمكن أن تكون نتيجة المعركة؟

يقرر فريد لاندر أن دراسة أجريت على سلوك الضباط والجنود المصريين فى حرب يونيو ١٩٦٧ أثبتت وجود فجوات فكرية عميقة

لديهم، فضلا عن نقاط ضعف سيكولوجية خطيرة، وتتجلى الناحية الأولى فى الصعوبة التى يشعرون بها فى استخدام عتاد حديث للغاية والاشراف عليه، فى ظروف معقدة للقتال على نطاق واسع، تواجه فيها بعضها مئات من الأسلحة وعشرات الألوف من الجنود(٤٥).

وبعد ما اعتمد على هاركابى فى الاشارة الى نقاط الضعف الكامنة فى صميم المجتمع العربى، والتى تعتبر من أسباب هزيمة العرب، طرح السؤال الهام التالى: «هل تعتبر نقاط الضعف هذه ملازمة حقا للمجتمع العربى وتقاليده الثقافية واتجاهاته السيكولوجية العميقة، أم أن الأمر يتعلق بظاهرة عارضة يمكن أن تختفى نتيجة لثورة اجتماعية حقيقية».

ويجيب فريد لاندر: ان المرء لايمكنه الا أن يفكر هنا فى حالة الصين ففى بداية هذا القرن كانت أوروبا تعتبر جنود وقادة الصين الامبراطورية عاجزين ذاتيا عن خوض حرب حديثة. ولم تكن جيوش تشاينج كاى تشيك فيما بعد أفضل حالا، وكان يمكن للمراقب أن يرجح جبن الضباط وجعجعة قادتهم وتبلد حس الجنود والفساد المتفشى بين الجميع الى عوامل تتعلق بالعقلية الصينية. ولكن أشياء كثيرة تغيرت بعد تطبيق الشيوعية لبضعة أعوام (أم ترانا نحن واهمين؟). ومن المعروف ان «الاشتراكية» لم يكن لها نفس التأثير على المجتمعين المصرى أو السورى. ولكن ماذا يحدث اذا ما طبق نظام شيوعى؟»

ويواصل فريد لاندر «وفيما يتعلق بى، فإنى أشك فى أن يكون

القصور العربى متأصلا فى تكوينهم، ويبدو لى أن من شأن تغيير المجتمع جذريا القضاء عليه، ولاشك فى أن مثل هذا التغيير لايقع بين يوم وليلة، ولكن اذا ما امكن لاسرائيل أن تعتمد على الآجل القصير والمتوسط، أى فى السنوات المقبلة، على نقاط الضعف العربية أنفة الذكر، فانه من الخطر أن تعتمد على ذلك لفترة أطول»(٤٦).

واذا كان التحليل الذى يقدمه فريد لاندر يكشف عن كونه ليس متحيزا تماما فى تصوره للعيوب الكامنة فى الطابع القومى للشخصية العربية وامكانية التغلب عليها فى المدى الطويل، لو تغيرت ظروف المجتمع العربى تغيرا ثوريا، الا أنه يعود فيشكك فى امكانية حدوث هذا التغير، مقرراً «لنفترض... وقوع تحول عميق فى العالم العربى أو فى مصر وحدها، وإقامة نظام سيرفع مستوى معيشة الفلاح بصورة منتظمة ويستغل مصادر المواد الاولية ويصنع البلاد ويدمج المثقفين فى الحركة العامة لادخال الاساليب العصرية...الخ ليست هناك استحالة فى وقوع مثل هذا التحول، وإن كان ذلك غير محتمل»(٤٧).

وهكذا يصل فريد لاندر الى النتيجة التى وصل اليها هاركابى وصنوع من قبله. وهى أن العيوب الجسيمة اللصيقة بالشخصية القومية العربية ليس محتملا ان تتغير فى المدى القصير أو المتوسط، وهكذا تستطيع اسرائيل ان تستغل هذه الفرصة التاريخية السانحة، وتفرض الأمر الواقع كما تراه على العالم العربى، والذى لا يتمثل فحسب فى تأكيد بقاء اسرائيل فى المنطقة

كدولة معترف بها بالفعل، وإنما فى اقتطاع ما تشاء من الأراضى العربية المحتلة، وضمها اليها ضما صريحا، وتغيير معالمها الجغرافية والديموغرافية، وصبغها نهائيا بالصيغة الاسرائيلية.

اذا كان العرض السابق قد سمح لنا بأن نتابع الحملة الدعائية الاسرائيلية التى تتقنع بقناع العلم، والتى تهدف فى المقام الأول الى تشوية ملامح الشخصية القومية العربية بوجه عام، والشخصية القومية المصرية بوجه خاص، فلعل السؤال يثور عن ما هى اتجاهات الرأى العام الاسرائيلى ازاء العرب، وهل استطاعت المؤسسات الاسرائيلية المختلفة، كوسائل الاعلام، والمدرسة، والجيش، أن تجعل الاسرائيلى العادى يكون فكرة نمطية ثابتة عن العربى، تركز أكثر ما تركز على السلبيات دون أى اشارة الى الايجابيات التى تتسم بها شخصيتة القومية؟

ثالثا : الأفكار القومية النمطية عن العرب لدى الرأى العام الاسرائيلى

تمثل دراسة وتحليل الأفكار القومية النمطية عن العرب لدى الجمهور الاسرائيلى أهمية خاصة. ذلك لأنها تعكس بوضوح شديد الآثار المجسمة للسياسات الاسرائيلية المتعددة، سواء فيما يتعلق بنوعية التنشئة الاجتماعية لليهود الاسرائيليين وما تتضمنة من تشوية تاريخ العرب، وتزييف شخصيتهم القومية(٤٩)، أو ما يتعلق بالسياسات التطبيقية التى تتعلق بوضع القيود على حركة العرب، واعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية، مما ترتب عليه تحديد الصلات الاجتماعية بين اليهود الاسرائيليين والعرب فى دوائر بالغة الضيق لا تسمح بالتفاعل الاجتماعى العميق.

ومن المعروف فى بحوث علم النفس الاجتماعى أن قلة التفاعل بين أعضاء حضارات أو قوميات مختلفة يؤدى الى تكوين أفكار قومية نمطية national stereotypes تتضمن اتجاهات عدائية(٥٠)، فاذا أضيف فى حالة المجتمع الاسرائيلى التى تسودة أغلبية اسرائيلية وأقلية عربية- حالة الحرب والعداء بين اسرائيل والعالم العربى، أدركنا كيف ان كل هذه الظروف الحضارية والاجتماعية، تشكل تربة صالحة لتبلور أفكار قومية نمطية سلبية عن العرب لدى اليهود الاسرائيليين، يدعمها ولا شك الفروق الحضارية والحواجز اللغوية.

ومن الأهمية بمكان- قبل أن نعرض للأفكار القومية النمطية لليهود الاسرائيليين عن العرب- أن نتعمق أولا فى مفهوم الأفكار القومية النمطية(٥١).

مفهوم «الفكرة النمطية» stereotype يستخدم بكثرة فى تحليل العلاقات بين الجماعات السلالية المختلفة غير أنه حتى الآن ليس هناك اتفاق بين الباحثين حول دلالته السيكولوجية، ولايسود الاجماع حول علاقتة بمتغيرات أخرى مثل «التعصب».

وتشكل الافكار النمطية عادة ما ينظر اليها باعتبارها عملية ادراكية(٥٢) perceptual process. وهذا هو الذى يجعلنا نثير السؤال الهام الذى يتعلق بمدى قرب أو بعد الفكرة النمطية من الواقع.

أثبت عديد من الباحثين أن الفكرة النمطية لا تتطابق مع الشخصية المنوالية modal personality للجماعة التى صيغت عنها(٥٣). ومعنى ذلك أن الذى يهيمن على الاتجاه السائد فى الفكرة

النمطية هى عوامل وقوى اجتماعية نفسية تحدث فعلها فى مجال الحياة الاجتماعية لمن يعتنقونها.

بعبارة أخرى، الافكار القومية النمطية لليهود الاسرائيليين عن العرب لا تتطابق مع الواقع من ناحية، تؤثر عليها فى نشأتها واستمرارها وتغيرها عوامل متشابكة ومتعددة: سياسية واقتصادية واجتماعية، لصيقة ببنية المجتمع الاسرائيلى من ناحية، ومتعلقة بتطورات الصراع العربى الاسرائيلى من ناحية أخرى.

ويرى بيريز وليفى أن هناك نظرة أخرى للأفكار النمطية لا تذهب الى المدى الذى ذهبت اليه وجهة النظر السابقة، فترى أن لها مثلها باقى العمليات الادراكية- علاقة بالواقع، غير أن هذه العلاقة ليست مباشرة وليست بسيطة وحجج هذا الرأى تتمثل فيما يلى:

١- ان الفكرة النمطية تؤدى وظيفة التمييز بين الجماعات المختلفة من الناس، وهى لذلك تسودها نزعة لتجاوز السمات العامة للجماعة المعنية، مع التركيز فى نفس الوقت على السمات المميزة. وفى حين أننا نجد أن العضو العادى فى جماعة سلالية من المحتمل أن يتشابة الى حد كبير مع أعضاء الجماعات السلالية الأخرى، الا أن «العضو النموذجى» لابد له أن يحمل سمات مميزة.

٢- ان الفكرة النمطية تعبر عن الدور الذى تلعبة جماعة محددة فى التاريخ الجماعى للمدركين الذين صاغوا الفكرة. بعبارة أخرى، الفكرة النمطية لليهود الاسرائيليين عن العرب تعبر عن الدور الذى لعبة العرب فى تاريخهم الجماعى، وتؤثر فى صياغة هذه الأفكار النمطية الحوادث التاريخية المصيرية.

٣- تتغير الفكرة النمطية بحسب الموقف الذى يوجد فيه أعضاء الجماعة السلالية التى صاغت الفكرة (اليهود الاسرائيليين) وأعضاء الجماعة السلالية الأخرى المضادة (العرب).

وهناك عدة عوامل أساسية تحدد هذا الموقف الذى تؤثر تأثيرا بالغا فى تشكيل الأفكار النمطية وهى:

(أ) توزيع القوة بين الجماعتين. وبالرغم من أن هناك عوامل أخرى تؤثر فى تشكيل الأفكار النمطية، الا أن هذا العامل يبدو أنه الحاسم(٥٤). والصور التى تتبناها الجماعات السائدة فى مختلف المجتمعات لها سمات عامة مشتركة فيما بينهما وهناك أيضا تشابه ملحوظ بين الأفكار النمطية التى تلصق بالجماعات ذات المكانة المنخفضة(٥٥).

وهناك امكانية لقياس تأثير هذا العامل، وذلك بدراسة حالة جماعتين- حدث تاريخيا- كما هو الحال بالنسبة للفلسطينيين واليهود- ان تبادلتا مراكز القوة فاصبح من كانوا أغلبية أقلية، ومن كانوا أقلية أغلبية. فاذا كان عامل توزيع القوة هو حقا العامل الحاسم، فلنا أن نتوقع أن صورة كل فريق عن الأخر، لابد لها تتبدل بحسب الأدوار الجديدة التى أصبح يشغلها كل منهم.

(ب) العامل الثانى المؤثر على الأفكار النمطية كما أشرنا من قبل- هو مدى الاتصال الاجتماعى بين الجماعات السلالية. ذلك أن قله الاتصال أو انعدامه تساعد على صياغة وبلورة الأفكار النمطية، وعلى العكس كثرة الاتصال تسهم فى تصحيح كثير من الانطباعات المشوهة الكامنة فى الأفكار النمطية.

(جـ) المدى الذى تتصادم فيه المصالح الرئيسية لكلتا الجماعتين السلاليين، بعبارة أخرى دائرة الصدام اليهود الاسرائيليين والعرب فى اسرائيل، يؤثر تأثيرا بالغا الأفكار النمطية التى يصوغها كل منهم عن الآخر.

والآن- بعد هذا التأصيل النظرى لمفهوم الفكرة القومية النمطية- ما هى الأفكار القومية التى صاغها الرأى العام الاسرائيلى عن العرب(٥٦)؟

إن الاجابة على هذا السؤال تقتضى فى البداية أن تحدد ملامح الاطار السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى تبلورت فيه هذه الأفكار القومية النمطية.

ومن الأهمية فى هذا الصدد تحديد الأصول التى نبعث منها صورة الذات اليهودية وصورة الذات العربية، وكذلك كل منهما عن الآخر.

يزعم بعض الباحثين الاسرائيليين(٥٧) أن الصراع بين اليهود بين والعرب ظهر أولا باعتباره صراعا بين الثابت والمتحرك، بعبارة أخرى كان العرب يمثلون العنصر الثابت غير القادر على التطو، فى حين كان اليهود يمثلون العنصر الديناميكى، الذى يغير كلا من طبيعة الأرض الفسطينية ومن النظام الاجتماعى السائد.

والحقيقة أن صياغة القضية بهذه الصورة فيه تضليل متعمد فنظرة العرب لليهود سيطرت عليها حقيقة واحدة لا مجال فيها لخداع النفس أو الزييف هى نظرة الوطنى صاحب الأرض للاجنبى المحتل. ولم يقتنع العرب بتكوين صورة نمطية عن اليهود، بل لقد

قاوموا وناضلوا ضد الاستيطان اليهودى، ولكن خاب مسعاهم لأسباب متعددة لعل الانتهازية السياسية لحكومة الانتداب البريطانية فى هذا الوقت أهمها جميعاً، هذه الانتهازية التى كانت جزءا من خطة السيطرة الامبريالية الغربية على العالم العربى.

ومما لا شك فيه أن حرب ١٩٤٨ كان لها تأثير واضح على تنمية أفكار قومية نمطية لدى العرب واليهود. فانتصار اعطاهم الإحساس بالقوة والنجاح فى حين أن الحرب فى نظر اليهود وفى نظر انفسهم- كانوا يمثلون الشعب والمنهزم الذى يسوده الاحساس بالضعف.

وقد اعقبت حرب ١٩٤٨ تغيرات واسعة المدى لحقت المجتمع الفلسطينى، لعل اهمها فرض القوانين العرفية، وتقييد حركة العرب وتحديد اقامتهم فى بعض المناطق ومن ناحية أخرى انقلب الميزان السكانى لحساب اليهود بشكل واضح، فبعد ما كان عدد السكان اليهود فى فلسطين عام ١٩٤٧ ٦٣٠,٠٠٠ يهودى، فى حين كان عدد العرب١,٢٠٠,٠٠٠٠ عربى، أظهر الاحصاء الاسرائيلى عام ١٩٥١ أن عدد اليهود أصبح ١,٤٠٤,٤٠٠ يهوديا وانخفض غير اليهود ليصبح ١٧٣,٤٠٠ (الغالبية العظمى منهم عرب، أما غير العرب فلا يمثلون سوى أقلية ضئيلة).

ولعله أن الأوان لنستعر أبرز نتائج البحوث الميدانية التى أجريت على مجموعات من اليهود والعرب لتحديد الأفكار القومية النمطية التى صاغتها كل مجموعة عن الأخرى.

ولن يعنيننا هنا سوى الأفكار القومية النمطية التى كونها اليهود

عن العرب لعل أهم ما نلاحظة بهذا الصدد ندرة الدراسات الأسرائيلية والغربية بوجه عام التى أجريت لتحديد أفكار القومية النمطية التى صاغها اليهود الاسرائيليون ازاء العرب وبالرغم من أن هناك بحثا منشورا للباحثين الاسرائيليين «بيريز وليفى»(٥٨) تعرضا مباشرة لهذا الموضوع، الا أن القراءة النقدية لبحثهما وطريقة عرض بياناته، تبرز أنهما تخاشيا الصياغة الواضحة للأفكار القومية النمطية التى صاغها اليهود الاسرائيليون ازاء العرب والبحث كله عبارة عن تحليل كيفى لصورة مجموعة من الطلبة اليهود عن مجموعة من الطلبة العرب والعكس، غير أن هذه الصورة مصاغة بطريقة بالغة العمومية، تركز على تفاصيل الحياة اليومية. وعلى أنماط السلوك الاجتماعى، أكثر من التركيز على الاحكام العامة الاجمالية لليهود عن العرب أو العكس.

غير أن حقيقة الأفكار القومية النمطية التى صاغها اليهود الاسرئيليون ازاء العرب، قد كشفت عنها بعض البحوث التى قام بها باحثون أجانب فى اسرائيل. ومن ابرز هذه البحوث الدراسية الميدانية التى قام بها «ادوارد روينز» أستاذ الانثروبولوجيا بجامعة وسكونسن والتى نشرها بعنوان: «الاتجاهات والأفكار النمطية، وضروب التعصب بين العرب واليهود فى اسرائيل»(٥٩).

يتفق «روينز» ومنذ البداية مع النتائج التى توصل اليها «بيريز وليفى» فيما يتعلق بدرجة تركيز اليهود الاسرئيليين واهتمامهم بمشاكل العرب فاليهود لم يعنوا كثيرا بالتفكير فى مشاكل العرب، أو بحسب تعبير «روينز» ربما كان اتجاه اليهود الاسرائيليين

السائد ازاء العرب هو اللامبالاة، وهو اتجاه يفوق رسوخة اتجاه الشك فيهم(٦٠).

وهكذا يقرر روينز- حين يستفيد العرب فى اسرائيل من بعض التطورات الاقتصادية فان اليهود الاسرائيليين ينتظرون منهم أن يشعروا بالامتنان، ويدون أن يلقوا بالا الى أهمية الجوانب الروحية التى يركز عليها العرب، ويرون فى عدم تحقيقها خسارة لا يكون أن نعوضها أى فوائد مادية سواء كانت دائمة أو عارضة إن اليهود الاسرائيليين ينكرون على العرب ما اعتبره هم الدافع المحرك لهجرتهم الى فلسطين، وهو تحقيق الذات القومية.

وغالبيه اليهود الاسرائيليين كما يقرر «روينز سياسات الحكومة الاسرائيلية الخاصة بفرض القيود العنيفة على العرب، برغم أن اعتبارات أمن اسرائيل لها الأولوية على حقوق العرب الانسانية.

ومن ناحية أخرى ينكرون حقوق الاجئين الفلسطينيين على اساس أن مشكلتهم ينبغى على الدول العربية ان تجد حلا لها.

ويقرر «روينز» بمنتهى الوضوح يبدو أن الدولة الاسرائيلية قد نمت ودعمت الاتجاهات بين السكان اليهود حتى لا يهتمون بالعرب ولا بمشكلاتهم، وحتى لا تصبح لامبالاتهم بهم اتجاها راسخاً.

واليهود الاسرائيليون مشغلون بأنفسهم ويركزون كل اهتمامتهم عليمشكلاتهم، وهم لذلك نتيجة لجهد الدولة وإجهزتها الدائبة فى تدعيم الوعى الزائف لديهم- أصبحو عاجزين عن تقدير الموقف الحقيقى للعرب بصورة واقعية، وهم ينظرون لاسرائيل باعتبارها يهودية،أما العرب فهم الأجانب.

ان اتجاهات الشك ازاء العرب، تبريرها عند اليهود الاسرائيليين فيما يطلقون عليه «العقلية الشرقية». وهكذا عدنا مرة أخرى الى النغمة الرئيسية التى ما أكثرت ما ترددت ونحن بصدد عرض المفهوم الاسرائيلى للشخصية القومية العربية، ثم تابعنا كيف صاغ هذا التصور فى شكل «نظرية» العلماء الاجتماعيون الاسرائيليون (هاركابى وصنوع وفريد لاند)، وهانحن أخيرا، وعلى مستوى الرأى العام الاسرائيلى نجابه بنفس التصور، بملامحة وقسماته الرئيسية هذه العقلية الشرقية، وتتسم فى نظر اليهود الاسرائيليين بملامح تتمثل فى عدم الصبر على التعليم، الافتقار للطموح العدام الاخلاق، نظرة تقليدية ومحافظة للعالم، وتركيز الاهتمام على الاسرة وليس على مصلحة البلد.

ومن هذا يتضح بجلاء الترابط الوثيق بين الابعاد المختلفة للمفهوم الاسرائيلى للشخصية العربية.

وإذا كانت هذه الأفكار النمطية الذى صاغها اليهود الإسرائيليون ككل بما فيهم اليهود الشرقيون ازاء العرب فمن الاهمية البالغة أن نشير الى أنها تتشابة الى حد كبير مع الأفكار النمطية التى يعتنقها الغربيون ازاء اليهود الشرقيين[٦١].

ولعل هذا هو الذى يجعل عداء اليهود الشرقيين للعرب بالغ الضراوة والعنف، ذلك لأنهم على حد تعبير «روينز» يتلذذون من عكس الادوار الخاصة بالأغلبية فى مقابل الاقلية، وبالأسى فى مقابل الادنى منزله.

إن الاحباط الشديد الذى يعانية اليهود الشرقيون من معاملة

اليهود الغربيين لهم، يجد منفذا له من خلال عملية العثور على «كبش فداء» يصبون عليه جام غضبهم وينفسون فيه عن طاقات عدوانهم الكامنة.

ان هذه الأفكار النمطية التى صاغها اليهود الاسرائيليون ازاء العرب والتى عرضها «رونين» فى بحثه وحللها بطريقة كيفية، قد وجدت التعبير الكمى عنها فى قياس للرأى العام قام به معهد «لوس هاريس» لقياس الرأى العام الاسرائيلى تجاه مسائل الحرب والسلام، وذلك لحساب مجلة التمايمز ونشرت نتائجة فى العدد الصادر فى ١٢ ابرايل ١٩٧١.

وقد وجه السؤال الى الاسرائيليين اليهود:

هل توافق على العبارة التالية؟	(نعم)	(لا)
– العرب أكثر كسلا من الاسرائيلين	٥٣٪	٣٦٪
– العرب أقل ذكاءا من الاسرائيليين	٧٤٪	١٩٪
– يشعر العرب بحقد أعمى أتجاه الاسرائيليين.	٦٨٪	٢٦٪
– العرب أشد قسوة من الاسرائيليين	٧٥٪	١٤٪
– العرب ليسوا فى شجاعة الاسرائيليين	٨٠٪	١٢٪
– العرب أقل أمانه من الاسرائيلى	٦٦٪	٢٠٪
– العرب أدنى من الاسرائيليين.	٦٧٪	٢٣٪

اذا تأملنا هذه العبارة التى وجهت لقياس الرأى العام الاسرائيلى تجاه العرب، نستطيع أن نقرر ببساطة انها اذا أصبحت معا بطريقة عضوية، فانها تمثل عناصر الشخصية القومية العربية، التى تلح

أجهزة الدعاية الاسرائيلية وأجهزة التنشئة الاجتماعية فى المجتمع الاسرائيلى عليها. ويبدو اذا ما أعتبرنا العينة التى وجهت لها هذه الاسئلة ممثلة للاسرائيليين اليهود- ان المؤسسة العسكرية- السياسية فى اسرائيل، قد نجحت الى حد يعيد فى أن تخلق لدى الإسرائيليين اليهود فكرة نمطية ثانية عن العرب. وهذه الفكرة النمطية لا تختلف فى مكوناتها عن الصورة المزيفة التى حاول خبراء الدعاية العلمية الاسرائيليون هاركابى وصنوع وفريد لاندر وغيرهم، رسمها وترويجها.

اذا نجد هذا القياس تركيزا على عدد من المتغيرات الاساسية فى الشخصية القومية القدرة العقلية فى الذكاء، والاتجاهات التى تكشف عن مدى نضج الشخصية القومية وانسانيتها، ونعنى الرحمة والقسوة، والايجابية المتمثلة فى النشاط والاقبال على العمل فى مقابل السلبية المتمثلة فى الكسل، والخلق القويم المتمثل فى الامانهفى مقابل الانحراف الذى تكتشف عنه خيانه الأمانه، وأهم من ذلك جميعا الشجاعة فى مقابل الجبن.

وخلاصة النتائج أن العرب ينتمون فى نظر الغالبية العظمى من الاسرائيليين اليهود الذين سئلوا فى هذا القياس بالسمات الاتيه:

كسالى، ذكاؤهم منخفض تملؤهم مشاعر الحقد تجاه اسرائيل، قساة، خونه جبناء. ولا يتورع من صاغوا قياس الاتجاهات عن صياغة جامعة، تسمح باعطاء حكم اجمال على الشخصية القومية العربية فى مقابل الشخصية الاسرائيلية (أن صح أن هناك مثل هذه الشخصية)، وذلك حين وضعوا هذه العبارة بمنتهى البساطة لأخذ الرأى بالنسبة لها «العرب أدنى من الاسرائيليين».

هذا هو الواقع المفهوم الذى تحاول اسرائيل أن تصل الى غرسة فى أذهان الاسرائيليين اليهود أولا، ثم فى أذهانالأفراد والجماعات الاجتماعية والحكومات فى العالم الغربى ثانيا، وذلك علس أساس أن هذه الفكرة النمطية الثابتة لو استقرت فى الأذهان، فان شأنها أن تساعد اسرائيل لدرجة كبيرة على مواصلة سياستها العدوانية التوسعية ازاء العالم العربى، وعلى حساب العرب الذين لا يستحقون وفقا لمنطق الدعاية الاسرائيلية الصهيونية اهتماما كبيرا ما داموا أدنى من الاسرائيليين.

وقد أدت هذه الفكرة النمطية الثابتة عن العرب، التى يبدو أن أجهزة السلطة الاسرائيلية نجحت فى تدعميها فى أذهان الاسرائيليين اليهود لدرجة جعلتهم يتبنون أزاء العرب اتجاهات تماثل تماما اتجاهات التمييز العنصرى السائد لدى البيض الامريكيين تجاه السود فى الولايات المتحدة الامريكية.

وهكذا يمكن القول أن الفكر العنصرى الذى كان وراء انشاء دولة اسرائيل باعتبارها دولة يهودية خالصة، قد بسط نطاقة على مستوى السلوك الاجتماعى لكى يوثر فى اتجاهات الاسرائيليين اليهود تجاه العرب.

ويكشف عن كل هذه الحقائق قياس اتجاهات قام به معهد لوس هاريس لحساب مجلة التمايز، وأذاعت نتائجة و. أ. ف نيويورك.

نجد فى هذا القياس النتائج التالية:

٢٣ ٪ من الاسرائيليين يشعرون بالضيق من الجلوس جنبا الى جنب مع عربى فى مطعم.

٤٢٪ يشعرون بالضيق اذا استقرت أسرة عربية فى منزل مجاور.

٧٤٪ يشعرون بالضيق اذا شاهدوا أطفالهم يرتبطون بروابط وثيقة مع أطفال العرب.

٨٤٪ يشعرون بالضيق اذا تزوج صديق أو قريب من عربية.

واذا كان يمكن توجيه الاعتراض التقليدى عليهذه النتائج على اساس أنها تعبر عنسسلوك لفظى ليس شرطا ان يتطابق مع السلوك الفعلى، الا أن هناك دراسات تثبيت أنه ليست هناك فجوة كبيرة بين السلوك اللفظى كما يتمثل فى اتجاهات الاسرائيليين هذه ازاء العرب والسلوك الفعلى لهم(٦٢). ومعنى ذلك أن السلطات الاسرائيلية التى تهيمن عليها اتجاهات العدوان ازاء البلاد العربية تكون قد نجحت الى حد كبير فى تنفيذ خطتها الخاصة بخلق وتدعيم فكرة نمطية ثابتة عن الشخصية العربية فى أذهان الاسرائيليين مما انعكس على سلوكهم الاجتماعى ازاء العرب. إن إذكاء العدواة الدائمة بين الاسرائيليين والعرب فى اسرائيل على مختلف المستويات، هو الضمان الاكيد لاستمرار الصفوة الاسرائيلية الحاكمة فى تنفيذ مخططاتها التوسعية والعدوانية ازاء العالم العربى.

وما جدير بالإشارة أن نجا الصفوة الحاكمة الاسرائيلية فى اشاعة وتدعيم الأفكار القومية الثابتة عن العرب من خلال أجهزة المجتمع المتعددة، وبواسطة سياستها التمييزية ازاء العرب فى اسرائيل، تساعد من طريق على تدعيم اتجاهاته العدوان لدى الاسرائيليين تجاه العرب.

ومما يكشف عن ذلك بجلاء اتجاهات الاسرائيليين ازاء مستقبل المناطق العربية المحتلة وفيما يلى عرض لعينة من قياسات الرأى العام:

١- فى استفتاء أجرته صحيفة جويش كرونيكل يوم ٨ يناير ١٩٧٠ حول ضم الأراضى المحتلة كانت النتائج كما يلى:

١٠١ ٪ يوافقون على الانسحاب من الاراضى المحتلة بدون توقيع اتفاقية السلام.

٤٤ ٪ يفضلون الاحتفاظ بهذه الأراضى الأن.

٤١,٥ ٪ يرون دمج هذه الأراضى فى اسرائيل.

٢- وفى استفتاء اجراه يوم ١٩٧٠/٢/٣٠ معهد بورى الاسرائيلى لقياس الراى العام:

٦٠ ٪ أعربوا عن معارضتهم لاعادة أية منطقة من الأراضى التى أحتلت فى ٥ يونيو.

١٣ ٪ مستعدون لاعادة بعض المناطق.

١٣ ٪ مستعدون لاعادة جميع الأراضى ما عدا القدس.

٣- وفى استفتاء للرأى العام الاسرائيلى نشرته مجلة بارى ماتش يوم ١٩٧٠/٥/١٦.

٦٠ ٪ من الاسرائيليين يعارضون اعادة الأراضى المحتلة المثلة بأى شكل كان.

١٣ ٪ يؤيدون أجراء تعديلات على الحدود.

١٣ ٪ يؤيدون اعادة الاراضى فيما عدا القدس.

٩ ٪ يؤيدون العودة الى حدود ١٩٦٧.

٤-.وفى استفتاء اجرته الصحافة الفرنسية ونشرت نتائجة يوم ٦/ ٤/١٩٧١ بعنوان «المعتدون قلة فى اسرائيل».

٩٦٪ من الاسرائيليين يرفضون مبادلة الاراضى المحتلة بالسلام.

٧٢٪ يريدون الاحتفاظ بشرم الشيخ.

٣٦٪ يريدون الاحتفاظ بالجولا.

١٣٪ يريدون الاحتفاظ بالقدس العربية.

٥- وكل هذه الاتجاهات الثابتة الرأى العام الاسرائيلى ازاء ضرورة اغتصاب الأراضى العربية المحتلة، تعكس نفسها بجلاء ووضوح قياس حديث الرأى العام الاسرائيلى أجراه الابحاث الاجتماعية التطبيقية ومعهد العلاقات العامة فى الجامعة العبرية(٦٣) حيث أجاب المشتركون (١٨٧ فردا) عن رأيهم فى اقامة مستوطنات مدنية فى المناطق المحتلة كما يلى:

	يؤيدون	لا يؤيدون
- على امتداد غور الأردن.	٩٠٪	١٠٪
- فى مرتفعات الجولان.	٩٦٪	٤٪
- فى مشارف رفح وشمالى سيناء.	٧٥٪	٢٥٪

وخلاصة ذلك كله أن الوظيفة التى تقوم بها الأفكار القومية النمطية الثابتة عن العرب لدى الرأى العام الاسرائيلى، لا تقف عند حدود تشوية صورة العرب، ولكنها تستخدم كأسس لخلق وتدعيم

الاتجاهات العدوانية والتوسعية ازاء العرب لدى الرأى العام الاسرائيلى كما تكشف بكل جلاء نتائج الرأى العام السابقة(٦٤).

والأن ما هى النتائج الرئيسية التى تستطيع أن نخلص اليها على ضوء دراستنا؟

١- اولى هذه النتائج أنه ليس هناك مفهوم اسرائيلى واحد للشخصية العربية، ولذلك عنينا بالتمييز بين مفاهيم ثلاثة أساسية، حتى نضع تحليلات العلماء الاسرائيليين موضعها الصحيح بين التصورات الاسرائيلية عن العرب. وهذه المفاهيم فى: تصور الصفوة الاسرائيلية للعرب، الشخصية القومية العربية، وأخيرا الافكار القومية النمطية عن العرب.

٢- ومن ناحية أخرى يمكن القول أن هناك تكاملا واضحا بين مكونات تصور الاسرائيلية للعرب، والسمات التى نسبها خبراء دعايتهم العلميون لشخصيتهم القومية، والأفكار القومية النمطية عنهم.

واذا أردنا فى النهاية أن تكون مرة صورة مركبة للعرب على ضوء المفهوم الاسرائيلى فماذا تكون ملامح الصورة؟

إن ملامح الصورة يمكن أن تكون كما يلى:

«العرب لا يفهمون سوى لغة القوة، ولذلك فاتباع سياسة الردع والعنف معهم هى الاسلوب الامثل وهم قوم فرديون، مفككون، يميلون الى الكذب والمبالغة وخداع الذات وهم بالمقارنه بالاسرائيليين كسالى وجبناء، وخونة، ومستوى ذكائهم منخفض، وعلى الجملة هم أدنى من الاسرائيليين».

الفصل الخامس

تقييم المفهوم الغربي- الاسرائيلي للشخصية العربية

- نظرة نقدية للتحليلات الغربية.
- نظرة نقدية للتحليلات الاسرائيلية.

نظرة نقدية للتحليلات الغربية

نستطيع أن نميز فى التراث العلمى الغربى الوفير عن المجتمع العربى والشخصية العربية، بين نمطين من البحوث والدراسات:

النمط الأول: يتسم بما يمكن أن نطلق عليه- بتعبير برجسون- بالفهم التعاطفى[١] sympathetic understanding ويكشف عن ذلك توحد الباحثين مع موضوع دراستهم، ونعنى بصدد موضوعنا الدراسة الموضوعية للعرب مع الوضع فى الاعتبار ماضيهم، وحضارتهم الأصلية، والمشكلات التى يعانون منها فى الوقت الراهن، وتكييف هذه المشكلات فى ضوء استخدام المنهج التاريخى، الذى لايعزل الظواهر الاجتماعية الايجابية منها والسلبية عن سياقها بطريقة ميكانيكية متعسفة.

النمط الثانى: يتمثل فى البحوث المتنوعة التى يجريها باحثون يصدرون عن تحيز مسبق ضد العرب- نتيجة أسباب وعوامل شتى- مما يدفعهم الى محاولة التشوية المتعمد للوضع الراهن للمجتمع العربى والشخصية العربية.

ولعل ما يمثل النمط الأول خير تمثيل برنامج متكامل لدراسة العوامل الحضارية والاجتماعية والنفسية السائدة فى الشرق الأوسط، نشرت خطوطه العريضة فى عام ١٩٥٩ وقدم له بمقدمة تتسم بالموضوعية والنزاهة العلمية جورج جاردنر[٢].

ويتبنى جاردنر فى عرضه لمشكلات الشرق الأوسط العربى[٣] منهجا حضاريا وليس سياسيا. ويقرر أن أسلوب الحياة فى الشرق

الأوسط العربي سبق وصفه وصفا صحيحا بأنه «فسيفسائى»Mosaic وذلك لأنه يتضمن الوحدة والتنوع معا، هذا النوع الذى قد يصل أحيانا الى التضاد.

ويرد جاردنر عوامل التنوع والتضاد الى تعدد الأتساق الحضارية، وتعدد اللغات فى منطقة الشرق الأوسط، وقد ساعد على ذلك أيضا أن جغرافية المنطقة تتراوح بين المناطق الجبلية من ناحية والصحارى من ناحية أخرى. وقد أدى ذلك الى ظهور شبكة معقدة من التنافسات والصراعات بين الجماعات المختلفة، مما شحذ الاحساس بالولاء للجماعات الداخلية. وأضعف فى نفس الوقت من نمو الاحساس العريض بالتوجد مع المجتمع والناس فى هذه المنطقة يفخرون بسماتهم المتميزة ويحرصون على الحفاظ عليها.

غير أن هناك عوامل تساعد على الوحدة. واذا كان مصطلح «الفسفيساء» يشير الى التغاير، الا أنه يشير أيضا الى النظام والتصميم والتحدد فالبرغم من تغايرهم، فان شعوب الشرق الأوسط ينتمون- فى غالبيتهم- الى أصل سلالى واحد (هو نمط البحر الابيض المتوسط Mediterranean) ويستخدمون لغة واحدة رئيسية هى اللغة العربية التى تسود فى غالبية المنطقة، ويساعد هذه الشعوب على الوحدة تبنيها لنسق دينى- أخلاقى مشترك، بالرغم من تعدد الديانات بالاضافة الى أن هذه الشعوب عرفت الوحدة من قبل خلال فترات متعددة من تاريخ العالم، وهناك دلائل تشير الى أنه فى العقود القادمة وتحت تأثير التحدى الأجنبى فان هذه الشعوب ستتوحد مرة ثانية.

ويرى جاردنر أن هناك عوامل تسهم فى تشكيل الوضع الراهن للمجتمع العربى مما يترك آثارا بارزة على سمات الشخصية العربية، وهذه العوامل هى:

١- وجود التنظيم القبلى وانتشاره فى المنطقة مما أدى الى تقوية الروابط التسلطية فى الأسرة.

٢- انتشار الأمية بنسبة عالية (تتروح بين ٧٠٪، ٨٠٪ وتصل المناطق الريفية الى ٩٠٪).

٣- تؤدى نوعية الحياة الدينية فى المنطقة الى التركيز على الخضوع لمشئية الله، مما يؤى الى سيادة اتجاهات القبول والاذعان لمختلف مشكلات الحياة اليومية.

٤- تأثير البدو الرحل- بالرغم من قلة عددهم- على الريفيين وسكان المدن. وهذا التأثير الذى كان أحيانا سلبيا، ويتمثل فى الغزوات والتخريب لبعض المناطق الحضارية، الا أن تأثيرة الايجابى ظهر أحيانا فى مجال تدعيم الدين المصفى من الخرافات وفى مجال التفكير المجرد(٤).

٥- هناك تركيز على روابط الولاء داخل الجماعات الاجتماعية الضيقة (كالأسرة والعشيرة والطائفة) مما أدى الى نمو معيب فى احساس الفرد بمسؤليته ليس تجاه المجتمع ككل وإنما تجاه الجماعة الاجتماعية الضيقة التى ينتمى اليها.

غير أن جاردنر لايقنع بسرد هذه العوامل بطريقة استاتيكية وكأنها هى التى ستسم المجتمع فى الشرق الأوسط العربى الى أبد الأيدين، وإنما يحرص على ابراز عوامل التغيير التى أدى فعلها

وتأثيرها الى تغير كبير فى هذه السمات الحضارية والاجتماعية.

وأهم هذه العوامل تأثير الحربين العالميتين على المنطقة، ووقع العلم الحديث على الطريقة التقليدية فى الحياة، وظهور الوعى بأهمية بناء مجتمع جديد. وقد أشار كثير من الباحثين الى عملية التغير الاجتماعى العميقة التى تأخذ مجراها فى هذه المجتمعات، باعتبارها تمثل أزمة تمر بها منطقة الشرق الأوسط العربى. غير أن جاردنر يحذر من أن يفهم مصطلح «الأزمة» باعتباره شيئا غامضا أو اذ طابع «شرقى» لايمكن للعقل الغربى أن يتفهمه. ذلك أنه ينبغى كما يقرر- عوامل التغير التى تمر بها هذه المجتمعات أن تضع أمام أعيننا صورة هذه الشعوب التى تتسم بما يلى:

- بعد فترة طويلة من التجزئة، تكتسب هذه الشعوب بسرعة الوعى الجمعى بأوضاعها وبطرق تجاوزها. وهى الآن تمتلك القوة التكنولوجية الكافية والقوة البشرية، والقوة الحضارية، والتى تستطيع أن تلعب بورقتين بالغتى الأهمية هما: الموقع الجغرافى، ومصادر البترول الهائلة(٥).

- وهذه الشعوب تواجه ضرورة التفكير على أساس وقع العالم الحديث على نظرتها التقليدية الدينية الأخلاقية.

- وهذه الشعوب تتسم بأنها شعوب ذكية، حساسة ومرهقة، واعية بامتلاكها لتاريخ طويل زاخر بالمفاخر، وإن كانت فى نفس الوقت تعانى من احساس عميق بالدونية نتيجة قرون طويلة من السيطرة الأجنبية.

- وتتميز هذه الشعرب فى الوقت الراهن بأنها فى حالة تغيير

دائم للعناصر المكونة للبناء الاجتماعى لمجتمعاتها. وقد يبدو للمراقب الخارجى أن العالم العربى يظهر باعتباره مجتمعا مفككا وميئوسا من حالته، حيث نجد أن الشعوب تقف ضد حكامها، والأسر ضد بعضها، والدول فى صراع مع دول أخرى والاديان ضد أديان أخرى.

غير أن العرب فى الواقع- اذا ماتعمقنا النظر كما يقول جاردنر- يحاولون من خلال عملية طويلة وبطيئة ومؤلمة تحقيق التماسك والنظام، وهذه العملية التى بدأت منذ حوالى قرن من الزمان، حين بدأت «اليقظة القومية» على يد حفنة من المثقفين العرب، غير أن هذه اليقظة أضعف من فاعلية تأثيرها القوى الأجنبية التى وقفت حائلا دون تصاعدها وتحقيقها للأهداف التى كانت موضوعة لها.

غير أن نمو الشعور بالقومية فى الفترة الأخيرة هو الخطوة الأولى نحو ارهاف الحس بالمواطنية والمسؤولية تجاه المجتمع. وتبقى اخيرا امام هذه الشعوب أن تحل مشكلة السيطرة الأجنبية ومشكلة التحدى الصهيونى فى المنطقة.

من الواضح من العرض السابق أن جاردنر وفريق البحث الذى اشترك معه يمثل الاتجاه الموضوعى فى دراسة العالم العربى، الذى لايصدر عن فروض أو نظريات متحيزة يريد اثباتها بأى وسيلة كما يفعل عديد من الباحثين الغربيين.

ويكشف عن هذا الاتجاه بوضوح نوعية المشكلات التى حاول هذا البرنامج دراستها والبحث عن اجابات علمية بصددها، باصطناع مناهج وأساليب البحوث الاجتماعية، التى تعتمد على البحث

الميدانى، أكثر من اعتمادها على النظريات التأملية أو الأحكام التعميمية التى تستند الى دراسات متناثرة لاتتسم بالتساق من ناحية، ولا سلامة المنهج من ناحية ثانية.

ولعل روبرت ماكلويد(٦) فى عرضه للمشكلات الاجتماعية النفسية التى تستحق الدراسة فى الشرق الأوسط العربى، يعبر بشكل عينى محسوس عن الاتجاه الموضوعى لجاردنر. فقد اقترح دراسة بحث تأثير التعليم المصبوغ بصفة غربية على نظرة الشباب العربى للحياة، تأثيرا التكنولوجيا الغربية على تغيير النماذج الدافعية motivational patterns للأجيال الشابة فى المجتمع العربى، ودراسة مضمون القومية العربية كما يحسه ويشعر به الناس فى المجتمع العربى، ودراسة الى أى حد تغيرت النظرة الى الدين باعتباره دليلا وموجها للحياة.

وبالاضافة الى ذلك حاول البرنامج دراسة ديناميات الاتجاهات السائدة فى المجتمع العربى، ولذلك ركز على دراسة خمس موضوعات أساسية:

العوامل المؤثرة على تكوين الشخصية، التغير فى التنظيم الأسرى، العوامل المؤثرة فى تشكيل الاتجاهات بوجه عام، دراسة اتجاهات الشباب بوجه خاص وتأثير الانتماء الدينى الشكلى على نسق اقيم والاتجاهات للأفراد المختلفين فى الديانة.

هذا البرنامج مجرد عينة للبحوث والدراسات وفهم وتفسير الظواهر الحضارية والاجتماعية والنفسية التى يرخز بها المجتمع العربى فى الوقت الراهن.

غير أنه بالاضافة إلى ذلك، هناك النمط الثانى من الدراسات، والتى تمارس ضارا بالعرب، ويصورتهم القومية، وهى تلك التى تعمد الى تشوية صورة المجتمع العربى، والشخصية العربية، وهناك بحوث متعددة تمثل النمط الثانى من الدراسات الغربية عن الشخصية العربية والتى تتسم بالتحيز. من بينها الفصل الذى عقدة مورو بيرجر فى كتابه «العالم العربى اليوم»(٧) عن شخصية العرب وقيمهم» وترد أهمية أراء بيرجر بالنسبة لموضوعنا الى أنه أنه يمثل مرجعا من المراجع الأساسية التى استند اليها هاركابى فى تريبقة لصورة الشخصية القومية العربية والآن كيف ينظر برجر للشخصية العربية؟

ان مصادر الشخصية بحسب تعبيرة- يمكن ردها الى:قيم البدو الرحل التى هيمنت على المجتمع العربى أثرت على الاسلام، ودعاوى الاسلام ذاته، والتاريخ الطويل للخضوع للأجنبى، والفقر الساحق، وأخيرا نماذج تربية الأطفال، التى تنبع فى جزء من هذه المصادر، وتدعمها فى نفس الوقت جيلا بعد جيل(٨).

ويغير أن نخوض فى تفصيلات يكفى أن نشير الى أن بيرجر يخلص من محاولته الى ان التاريخ الاجتماعى للعرب، ونموهم الشخصى قد انتجا مجتمعا يسودة الإحساس بالإفتقار الى الأمن، والعدواة والشك، والمنافسة الحادة ولعل السؤال الذى يهمنا الاجابه عليه هو: ما هى السمات المميزة لمحاوله برجر رسم صورة الشخصية.

يحاول مورو بيرجر منذ البداية أن يتحاشى النقد الذى يتوقع أن

يوجه لمحاولته تعميم الأحكام عن «الشخصية العربية» فيقرر أنه لايمكن صياغة حكم موجز يصف العرب بكل اختلافاتهم، وتفردهم: الشيوخ والشباب والذكور والاناث المسلمين والمسيحيين، المتغربين (نسبة الى الغرب) والتقليديين، الفلاحين والعمال، المتعلمين وغير المتعلمين. ولذلك يلجأ الى الحيلة التقليدية للباحثين فى مجال دراسات الشخصية القومية بوجه عام، ونعنى أنه عمد الى تجاهل الفروق المميزة بين الجماعات الاجتماعية- المتعددة داخل المجتمع العربى، وذلك لكى يركز على ما يسميه- نقطة متواليه(٩) modal point يمكن للعرب جميعا أن يتسموا بخصائصها بدرجة صغيرة أو كبيرة بحسب الأحوال.

غير أنه بالرغم من هذه التحوطات المنهجية التى حاول عن طريقها بث الثقة فى صدق أحكامه، فإن محاولته ينطبق عليها كثير من الانتقادات التس سبق أن أشرنا اليها، والتى توجه للاستخدام المعيب الذى يمارسه بعض العلماء الاجتماعين لمفهوم للشخصية العربية.

١- يبدو ذلك أولا اذا ماناقشنا المصادر التى اعتمد عليها بيرجر فى صياغته لتصوره عن الشخصية العربية(١٠).

لن نتعقب بيرجر بطبيعة الأحوال لنرى كيفية استخدامه لكل مصدر من مصادره- فالمجال لايتسع لذلك- ولكننا سنقنع بالاشارة الى اعتماده اعتمادا رئيسيا على مرجع مجرح علميا، وهو الكتاب الذى ألفته كاتبه أمريكية لبنانية الأصل هى سنيه حمادى، ثم سنبين كيفية اجتزائه لبعض الفقرات وردت فى كتابات بعض

العلماء الاجتماعين العرب مثل حامد عمار وجميل صليبا، لكى يدعم فروصه وتفسيره للشخصية العربية(١١).

أما كتاب سنية حمادى «مزاج العرب أخلاقهم» الذى رجع له بيرجرخمس مرات فى فصل لا يزيد عدد صفحاته عن ثلاثين صفحة، فهو- كما ذكرنا مرة فى ثنايا البحث- مستودع زاخر بكل السمات السليمة للعرب. والرجوع إليه والاعتماد عليه، فى الكتابات الغربية التى حاولت التعرض للشخصية العربية يعطى الانبطاع للقارئ، غير المدقق أن كاتبا عربيا يكتب عن قومه لايمكن أن يكون متحيزا، فى حين أن الدراسة المتأنية لهذا الكتاب تثبت أن كاتبته- بالاضافة الى التهافت المنهجى الواضح لبحثها- كاتبه متحيزة ضد العرب، وقد قدمت بكتابها هذا أداة ثمنية لكل الكتاب الغربيين المتحيزيين ضد العرب وللكتاب الاسرائيليين لكى يعتمدوا عليه كما طاب لهم تجريح الشخصية العربية.

والآن ما هو التقييم المنهجى الموضوعى لهذا الكتاب؟

فلنترك أولا لسنية حمادى أن تقدم تصورها لموضوع بحثهاولمنهجة قبل أن نناقش هذا التصور مناقشة موضوعية.

أشارت المؤلفة الى اهمية التحليل النقدى للنفس، بالمعنى الحضارى للكلمة بعبارة أخرى أهمية أن يخضع العرب قيمهم وعاداتهم وسلوكهم للتحليل النقدى، حتى يريد استبصارهم بالمشكلات التى يعانون منها فى عمليه التغير الاجتماعى الواسعة المدى التى يمرون بها. غير ان هذه العملية- فيما ترى عملية ليست هينة ولا ميسورة مادام صعبا أن «يتحرر الانسان من نفسه»(١٢).

ثم تنتقل المؤلفه لوضع حدود دراستها فتقرر[١٣].

«ان الطابع الذى أقدمه يشتق منبعه مما هو «عام» فقط بين العرب وهذا ما يسمح لى بأن أصوغ مجرد تعميمات بسيطة».

ثم تضيف «وبالرغم من أننى معنية أساسا بشخصية العربى المتوسط فى الوقت الراهن، إلا أننى وجدت- بالنسبة لبعض الجوانب. مثل مفهوم السلطة والفردية والبناء الاجتماعى- أنه مما يزيد من القاء الضوء تعقب نشأة بعض الاتجاهات والنظم الاجتماعية تاريخيا، وذلك بغرض رصد التأثيرات التى شكلت بعض السمات الخاصة التى تميز العربى المعاصر».

ان الفقرة الأولى التى ترجمناها بالنص تشير الى مدى اتساع نطاق المحاولة التى أقدمت عليها سنية حمادى، فهى تتحدث عن الشخصية العربية على وجه الاجمال، ومما هو معروف فى مناهج البحث، انه كلما اتسع مجال النظرية، كلما قل احتمال صدقها.

ولعل هذا الذى دفع سنية حمادى الى الاعتراف منذ البداية الى أنها لن تصوغ سوى «تعميمات بسيطة» على حد تعبيرها، غير أن هذا التحذيرالمنهجى المتوارى فى الصفحات الأولى من تصدير الكتاب سرعان ما تنساه المؤلفة نفسها، حين حذرها فى ثنايا الكتاب وتتحدث بلهجة التقرير والتوكيد عن سشخصية العربى المعاصر» ومن الطبيعى ان ينسى أو يتناسى المؤلفون الغربيون مثل مور بيرجر، والاسرائيليون مثل هاركابى، هذا التحذير ويغرقون فى الاقتباس من كتابها، وكأن احكامها قضايا ونظريات علمية محققة ليست قابلة للتشكيك فى مدى صدقها. غير أن حمادى أضافت الى

ما سبق قولها «أننى لم أضع فى الاعتبار بطريقة شاملة التغيرات التى لحقت بالنباء الاجتماعى العربى والتى مازالت تحدث فية تأثيرها».

ومعنى ذلك ببساطة أن المؤلفة قد التفتت عن أم التغيرات العميقة التى يمر بها المجتمع العربى والانسانى فى الوقت الراهن، سعيا وراء صياغة «نمط مثالى» عن الشخصية العربية مستمد أساسا من مادة تاريخية عتيقة، ومن مصادر فولكلورية يمكن الطعن ببساطة فى شرعية استخلاص صورة موضوعية عن قيم العربى وسلوكه على أساسها، فأى موضوعية اذن فى هذه الدراسة «الكلاسيكية» التى رأت صاحبتها أنها رائدة فى ميدانها، والتى أصبحت «أستورا» لكل من أراد تجريح الشخصية العربية.

ولكن ما هى المبرات التى تسوقها حمادى لهذا التجاهل المتعمد لتأثير التغييرات العميقة فى البناء الاجتماعى العربى على الشخصية العربية؟

تقرر المولفة ببساطة شديدة: «أن هذا (التجاهل) يبرز نتيجة للحقيقة التى مؤداها ان التغيرات التى لحقت بالطريقة العربية فى الحياة، وبالتالى تلك التى غيرت من الشخصية والسلوك العربيين، بالغه البطء، ومحدود بصورة جوهرية بحدد الطبقات العليا والمناطق الحضرية».

وفى يقيننا أن هذا الحكم لا يصمد اطلاقا أمام أى تحليل سوسيولوجى متعمق. فالتغير الاجتماعى فى أى مكان بوجه عام، وبالتالى فى المجتمع العربى، لايمكن أن يصيب طبقات معينة دون

الأخرى، ولامناطق بذاتها دون غيرها. فهو عملية اجتماعية تتسم بالشمول تتزايد سرعتها فى قطاعات معينة، وقد تبرز آثارها بالنسبة لشرائح اجتماعية ما، ولكنها بالقطع لابد أن تؤثر على الوعى الاجتماعى بشكل شمولى بحيث يكون من الصعب لقطاع أو لطبقة أن تفلت من نتائجها.

لنأخذ حركة التصنيع فى مصر ونشأة القطاع العام من ناحية، والإصلاح الزراعى من ناحية أخرى، وما أحدثه ذلك من تغيرات الغور فى البناء الاجتماعى وضروب السلوك. أضف الى ذلك أيديولوجية تنادى بالاشتراكية بما يتضمنة ذلك من نشر قيم المساواة، وفتح أبواب الأمل والمطامع الى مالا نهاية. أليس كل من ذلك من شأنه أن يغير من الاتجاهات والقيم التى ظلت السنين الطوال فى ظل البناء الاجتماعى الرأسمالى؟

اذا كانت هذه هى حدود دراسة سنية حمادى والتى تكشف- بغير كبير عناء- عن تحيزها المسبق، بحكم تضيقها المتعمد لمجال دراستها، حتى لا تشمل التغيرات الراهنة فنر ما هو المنهج التى اعتمدت عليه؟

فيما تيعلق بمنهج سنية حمادى يمكن القول أنه يتضمن الأبعاد الآتية:

١- فى الإطار التصورى للبحث اعتمدت على المنهج المقارن، بمعنى المقارنة مع الدراسات التى أجريت على المجتمعات البدائية والمجتمعات المعاصرة.

٢- أما منهجها الرئيسى فيعتمد على ذاكرتها!! وهى تقرر أن

معلوماتها عن سمات العرب تراكمت من خلال ادراك غير متحيز نسبيا(١٣).

٣- ويضاف الى ذاكرتها ملاحظاتها الشخصية التى تمارسها أيام كانت تقيم فى لبنان، والتى كانت تلقائية، ولاتنطلق من أى أطار نظرى ولذلك- فيما نرى لم يحدث خلط بين الوقائع وتفسيرها.

٤- اعتمدت على نفسها «كاخبارى»(١٤) عن حضارتها، بالإضافة الى أنها استدعت الى ذاكرتها بطريقة استبطانية تاريخ حياتها، مما ساعد على بلورة السمات التى حاولت أن تتذكرها فى الحضارة العربية.

٥- ولجأت الباحثة أخيرا الى جمع بعض الملاحظات من اختلاطها بعينات متعددة من الطلبة العرب الذين يدرسون فى الويات المتحدة الأمريكية.

وصاغت المؤلفة بناء على كل ذلك بعض الافتراضات، التى حاولت اختبارها وتنميتها باستخدام ما تسميه «المنهج الأدبى»، وتعنى به جمع المراجع التى ألفها عرب أو أجانب وتحدثت عن سمات العرب فى الماضى والحاضر، فى حالتهم البدائية وفى العصر الحديث، فى الريف والحضر.

اذا كان هذا هو المنهج الذى اعتمدت عليه سنية حمادى، والذى ينهض فى جوهرة على ذكراتها الشخصية، وعلى الشخصية أيام كانت تقيم فى لبنان، وعلى استبطان تاريخ حياتها، فان لنا أن نتشكك كثيرا فى الدقة المنهجية لبحثها، وهو شك بطبيعة الأحوال على نتائجها.

وحتى ما ذكرته عن اختلاطها الحميم مع الطلبة العرب الدراسين فى الولايات المتحدة الأمريكية، لم تستطع أن تقدم بصددة أى وصف منهجى مقنع فلم تذكر ما هو موضوع ملاحظتها، ولانوع الاسئلة النى وجهتها لهم، ولا مدى اتفاق نتائج هذه المقابلاتمع حصيلة ذكرياتها وجماعملاحظاتها الشخصية؟

ومع ذلك كله، بل بسبب ذلك كله، يصبح كتاب سنية حمادى هو المرجع الأساسى للباحثين الغربيين والاسرائيليين عن الشخصية العربية. وقد يكون من المهم أن نتعقب مورو بيرجز أخيرا لنرى المواضع التى اقتبسها من سنية حمادى لنعرف ما الذى كان يريد تأكيدة الاعتماد عليها(١٥).

تنحصر هذه الاقتباسات فيما يلى:

أولا- فى تأكيد الفردية الصارخة التى يتسم بها العربى.

ثانيا- فى تأكيد سمه الشك فى الآخرين التى يتسم بها العربى

ثالثا- فى تأكيد سمة المسابرة والنفاق

رابعا- فى رد روح التعاون كلها التى تسود العرب الى أسس نفعية بحتة.

وهكذا نستطيع ان نلخص الى أن كتاب سنية حمادى بضعف منهجة الواضح، وتعميماته الجارفة، وبتحيزة ضد العرب استطاع ان يقوم بدوره كاملا كزخذ أسلحة الدعاية العلمية التى يتفنن العلماء الاجتماعيون الغربيون والاسرائيليون فى استخدامها فى الحرب الشرسة الموجهه ضد العرب، وضد كل محاولاتهم لاثبات وجودهم القومى والانسانى بين دول والعالم.

٢- ولا يقنع برجر بمجرد الاعتماد على مراجع مجرحة من وجهة النظر المنهجية ولكن تحيزة بظهر فى كيفية استخدامه لعدد أخر من المصادر وخصوصا العربية منها أيهاما للقارئ بالموضوعية العلمية.

يعتمد برجر فى محاولته على كتاب «حامد عمار» التنشئة الاجتماعية فى قرية مصرية». من المهم أن ترى ماذا أخذ برجر من حامد عمار؟ فى محاولة بيرجر تأكيد ان العربى يتسم بالشك ازاء الأخرين يذكر حامد عمار يقرر أنه حين شرع فى اجراء دراسته الميدانية فى قرية «سلوا» بمحافظة اسوان، فإن أهل القرية ترددوا كثيرا قبل موافقتهم على اعطاذه أى بيانات عن القرية أو عن أنفسهم أو غيرهم وقرر أن اتجاهاتهم بهذا الصدد تتمثل فى أن المشكلات الشخصية ينبغى ان «تغطى» لا أن تكشف للأخرين.

والسؤال هنا: هل يمكن بالاعتماد على حامد عمار فى هذه الفقرة التعميم على العربى- هكذا على وجه الاطلاق- أنه يتسم بالشك ازاء الآخرين؟

أن بيرجر نفسه، قد حس يتهافت الدليل الذى يقدمه من كتاب عمار ولذلك قرر: «أن هذا لا تجاه (تغطية المشكلات الشخصية) هو اتجاه يسود فى كل مكان فى العالم، حيث يخفى الشخص الحقائق التى قد يخجل من إعلانها».

وإذا كان هذا عالميا، فماذا اذن يساق للتدليل على أن العربى يتسم بالشك العميق إزاء الأخرين؟

ومرة أخرى يعتمد بيرجر على جميل صليبا فى كتابه «التيارات

الفكرية فى سوريا ولنان» (معهد الدراسات العربية العالمية، والقاهرة ١٩٥٨) ويجتزى منه فقرة محددة هى التى تعنية من كل الكتاب لأنها تساعده فى التدليل على الفردية العميقة الجدور (١) التى يتسم بها العرب.

يقرر صليبا «أن السوريين واللبنانيين- بالرغم من فرديتهم المفرطة يسألون الحكومة أن نزرع لهم الصحراء بالتين والزيتون، وان تجعل أبارهم ترخر بالمياه، أن تستصلح لهم الأراضى، وأن نضمن لهم وكل فرد بفضل أن يعمل بمفرده».

من الواضح من هذه الفقرة أنها مقصورة أساسا على اللبنانيين والسوريون وبالتالى فلا يمكن تعميم الحكم منها على كل المجتمعات العربية، وأخطر من ذلك فإن هذا الحكم التقييمى الذى قد يورده هو غيره من الكتاب العرب فى معرض نقد بعض الأوضاع السلبية التى قد تسود كجتمعا عربيا ما، أو بعض قطاعاته فى مرحلة تاريخية ما ليس معنى ذلك أنه يتعلق بسمة أساسية فى الشخصية العربية.

ولسنا بحاجة الى بذل مزيد من الجهد لتنفيذ دعاوى بيرجر بهذا الصدد ويكفى أن نشيرالى أنه فى المجتمع المصرى. كثيرا ما يجمع الأهالى فى الريف المصرى النقود بطريقة تعاونية، ويقدمونها للحكومة لكى تبنى لهم مدرسة لأولادهم، وأحيانا يتبرعون بقطعة الأرض ذاتها التى ستبنى عليه المدرسة. وقد انتقل الحرص على التعليم، الى مجال الجامعات، اذ جمعت بعض محافظات مصر آلاف الجنيهات بمبادرة من الأهالى لانشاء جامعات اقليمية فى محافظاتهم.

٣- ويبقى أخيرا- حتى من بيرجر- الاشارة الى تعميماته الجارفة التى لا تنهض على أساس. ولعل أخطرها أنه فى المجتمع العربى تسود ظاهرة معينة يطلق عليه «العداوة الطليقة» أى عدواة صادرة من كل الناس وموجهة لكل الناس وتكشف هذه العداوة عن نفسها فى مظاهر شتى وحتى الكرم العربى التقليدى يراه بيرجر محاولة من العربى لتحييد العداوة ويفشل بيرجر تماما فى التدليل على صدق تفسيره، أو فى تقديم التفسير المقنع لهذه العدواة الناشئة بلا مصدر محدد، والموجهة الى غير هدف واضح!

ويطول بنا الحديث لو حاولنا أن نعرض لمختلف البحوث الغربية التى تعرضت بصورة أو بأخرى لتحليل الشخصية العربية.

فبعضها مجرد تأملات خالصة لبعض الباحثين، تزدحم بالفروض والنظريات والتفسيرات التى تحتاج لعشرات البحوث الميدانية للتأكد من صحة مسلماتها وفروضها ونتائجها. ومن بين هذا النمط من الدراسات دراسة «هيج خاتشا دوريان» القناع والوجه: دراسة فى ازدواجية السلوك فى مجتمع الشرق الأوسط»[١٦]. فى هذه الدراسة لصاحبها أستاذ الفلسفة بالجامعة الأمريكية فى بيروت، أحكام اطلاقية واسعة المدى عن الشخصية العربية. فالعربى يتسم بازدواجية فى سلوكة «وهذه السمة موروثة اجتماعيا وهذه السمة تعبر عن نفسها فى أن ما يقوله العربى لا يعبر اطلاقا عما بفعله لدرجة أن هذه السمة لفرط تجذرها فى شخصيتة، لا يمارسها خوفا من رؤسائه فى العمل مثلا، أو نفاقا للسلطة، ولكن يمارسها حتى لو خلا لنفسه! فى المجتمع العربى، (هذا المجتمع الخرافى الذى

يبنيه السيد الفيلسوف من خيالاته بالرغم من أنه عاش بين ظهرانية) يكذب الأبناء على ابائهم والصغار على الكبار والكبار على الكبار دائرة شيطانية من ازدوجية اسلوك، تلف فى أحابيلها كل أعضاء المجتمع العربي.

ولكن ما سبب هذه الظاهرة؟ الرد بسيط عند خاتشادرويان، انه الخوف الذى يسود المجتمع ليس مجرد الخوف من السلطة، بل خوف الناس من الناس.

ونستطيع أن نلاحظ هنا الشبة الواضح بين نظرية خاتشادرويان فى «الخوف المطلق» الذى يسود المجتمع العربى، بنظرية بيرجر فى «العدواة الطليقة».

ونستطيع أن نسوق أيضا فى هذا الاتجاه دراسات متتابعة لميكيان(١٧) الأستاذ بالجامعة الأمريكية فى بيروت عن «التسلطية» أجراها على عينه من الطلبة العرب فى الجامعة الأمريكية وعلى عينة أخرى من الطلبة الأمريكيين واستخدمت هذه الدراسات المحدودة فى عيناتها، والمنتقدة فيمنهجها(١٨)، بعبقرية فذة للتعميم على الشخصية العربية كلها.

ويبقى أخيرا- حتى نصفى- حسابنا مع ترسانه البحوث والدراسات الغربية المتحيزة التى عمدت لتشوية الشخصية العربية- الاشارة الى دراسة شهيرة عن «تأثير اللغة العربية على سيكلوجية العرب» كتبها «شوبى».

سبق لنا أن أشرنا فى مقدمة البحث الى هذه لدراسة فى معرض الحديث عن اتجاه بعض الباحثين الاسرائيليين الى تحميل الغة

العربية بسماتها المتميزة التى من أبرزها- كما يقرر شوبى- المبالغة وزر الصراع العربى الإسرائيلى(١٩).

ترى هل هناك اصرار على الخداع والتضليل أبعد من ذلك؟ تجاهل الباحثون الاسرئيليين أصل الصراع وكيفيفة نشأت ومؤمرات الصهيونية العالمية، والعدوان المبيت المكترر من جانب اسرائيل على البلاد العربية، تنفيذا لمخططان التوسع على حساب العرب، تركوا كل ذلك لمحاكمة اللغة العربية برغم أنها بحكم ما تزخر به من ألفاظ مجنحة دفعت بالعرب الى الاسراف فى التعبير عن المشاعر العدوانية ضد اسرائيل، وهذا فى حد ذاته أحد أسباب حدة الصراع العربى الاسرائيلى(٢٠).

وشوبى كما تعرف به «مجلة الأوسط» التى له مقاله باحث فنى متخصص فى علم النفس الاكلينكى وعلم النفس الاجتماعى، ولغتة الأولى هى العربية، وهذا ما مكنه من طرق هذا الموضوع الصعب،كما يقرر المجلة ومقاله «شوبى» كما يقرر هو نفسه مقالة نظرية خالصة، عبارة عن مجرد مدخل للموضوع ووعد بأن يعمقها على أساس تحديد الخطوط السكلوجية الفكرية بعد ذلك فى المجلات المتخصصة ولكنه فيما يبدو لم يفعل كل الاشارات له تقنع بالاشارة الى هذه المقالة والغرض من مقالته هو دراسة جانب ندرت فيه الدراسات ويعنى بذلك دراسة تأثير اللغة على سيكولوجية الشعوب بدلا من دراسة تأثير سيكولوجية الشعوب على اللغة، الذى هو الاتجاه الغالب فى الدراسات من هذا القبيل.

ولا نريد أن ندخل فى مناقشة تفصيلية لمقال «شوبى» وقد يعنى

بمناقشها بعض المتخصصين العرب فى اللغويات، غير أنهما يلفت النظر أن بعض هؤلاء ممن يعملون بالجامعات الأمريكية، قنعوا بمجرد الاشارة اليها باعتبارها دراسة ممتازة دون مناقشتها، وكان نتائج (شوبى) أصبحت مسلمات لا يتطرق اليها الشك(٢١).

خلاصة ما نريد أن نؤكده فى ختام تقيمنا للتحليلات الغربية للشخصية العربية، أن الباحثين الغربيين المتحيزين، اعتبروا الدراسات المنشورة العربية أو الغربية عن جانب أو أكثر من جوانب الشخصية العربية، مجرد أدوات لخدمة أغراضهم التى تتركز فى تشوية هذه الشخصية فمهما كان الدراسةمحدودة المجال كدراسة حامد عمار عن قرية لوا بأسوان أو معيبة فيمنهجها كدراسة سنية حمادى، أو تضمنت فقرة تشير الى بعض السلبيات فى المجتمع العربى ككتات جميل صليبا أو اعتمدت على تطبيق مقياس سيكولوجى على حفنه من الطلبةالعرب كدراسات ميليكيان، كل هذا لا يهم، المهم اجتزاء فقرة من هنا واقتباس فكرة جزئية من هناك، للتوصل فى النهاية الى تشكيل صورة مزيفة للشخصية العربية. ان هذه المحاولات الغربية، تمثل فى الواقع المصدر الرئيسى للباحثين الاسرائيليين الذى استوحوا منه أدلتهم (العلمية) للتدليل على سلبية الشخصية العربية وايجابية الشخصية الاسرائيلية.

نظرة نقدية للتحليلا الإسرائيلية

لم يبق أمامنا مجال واسع لتفنيد التحليلات الاسرئيلية للشخصية العربية، خصوصا وقد أفضنا فى نقد التحليلات الغربية، وكان هذا طبيعيا لأنها هى المراجع التى تستند اليها

التحليلات الاسرائيلى. ولعل أهم ملاحظة نبديها بصدد الدراسات النفسية الاجتماعية والحضارية عن الصراع العربى الاسرائيلى انها ركزت جهودها على استكشاف الملامح الرئيسية لدى طرف واحد من أطراف الصراع هو الطرف العربى، وأهملت عن عمد اهمالا يكاد تاما الطرف الاسرائيلى.

والنتائج التى يجنيها العدو الاسرائيلى ممثلا فى جبهته العلمية من وراء هذا التحيز العلمى الصريح هامة. ذلك أنه فى غياب مقارنات مبنية على دراسات وبحوث أجريت على طرفى الصراع معا، يمكن الزعم أن بعض السمات النفسية والاجتماعية وخصوصا السلبية منها تمز بصورة أساسية الطرف العربى وذلك بدون أن يعطى الباحث العلمى أو القارئ المحايد أو الموضوعى، فرصه المقارنة.

فالحديث عن الشخصية العربية القومية وسماتها، وارتباط بعض هذه السمات بتصعيد الصراع العربى الاسرائيلى من ناحية، والمسؤولية عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ من ناحية أخرى، بغير الحديث عن الطابع القومى للشخصية الاسرائيلية- ان كان ثمة هذا الطابع أو سمات المجتمع الاسرائيلى التى قد تكون مسؤولة عن تصعيد الصراع، يصبح حديثا الغرض منه القاء عبء المسؤولية فى الصراع بكاملة على الجانب العربى.

وقدأبدى ملاحظات شبيهة بتلك التى نبديها الآن البروفييسور بنامين بيت هولاهمى(٢٢) فى عرضه الموضوعى للتراث السيكلوجى والحضارى المتعلق بالصراع العربى الاسرائيلى.

يقرر بيت هولاهمى وهو يصدد عرضة لبحوث فكتور صنوع عن الشخصية المصرية «أن صنوع يعد الممثل البارز للتيار الذى يذهب الى أن الشخصية العربية عامل رئيسى من عوامل الصراع» ودراساته السيكلوجية للصراع تعد- فى نظر بيت هولاهمى- جد طموحة، ذلك أنه «يحاول أن يعمم من دراسات امبيريقيه أجريت على جماعات صغيرة، على السلوك العربى الكلى تجاه اسرائيل وهو يرى أن الوضع العربى أكثر جمودا من الوضع الاسرئيلى، وهذا بذاته يمثل عقبة أمام حصل الصراع. وهذا الموقف الجامد نتائج لعدد من السمات العربية المحددة، التى ترد الى الحضارة واللغة الفكر».

غير أن المنهج الذى اتبعه- فى رأى هولاهمى- يحد من صحته قلة الاهتمام بدراسة الطرف الاخر من الصراع، أى الاسراذيليين ويشير هولاهمى بذكاء الى أن صنوع «يولى الاعتبارات السيكلوجية فى الصراع وخصوصا سمات الشخصية العربية- أهمية أكبر الحقائق التاريخية والسياسية».

ومن ناحية أخرى يشير الى دور اللغة العربية فى زيادة حدة الصراع العربى الارسرائيلى، غير أنه لم يشر باحث غربى أو اسرائيلى واحد لأهمية دراسة اللغة العبرية من هذه الزواية؟ اليست هى لغة الطرف الآخر من أطراف الصراع كما يقرر- بحق- بيت هولاهمى؟

غير أن أهم ما يلفت النظر فى التحليلات الاسرئيلية للشخصية العربية هى ما يمكن أن نطلق عليه «التزييف العلمى الصريح». نجد

عند هاركابى وصنوع على الخصوص هاركابى- على سبيل المثال- يشير الى سيادة الكذب المجتمع العربى، ويتساءل بدهشة مصطنعة عن سر هذه الظاهرة وكونها حقيقة علمية مقررة؟ كل ذلك يسوقة متشحاً برداء الموضوعية- التى يكثر من الحديث عنها فى مجال دراسة الصراع العربى الاسرائيلى(٢٣)، متناسياً التاريخ الطويل للمنظمات الصهيونية الحافل بالخداع والتضليل والاكاذيب من كل لون، ونستطيع أن نجد عشرات الأدلة على هذا السجل الحافل، فى اعترافات على لسان زعماء الصهيونية أنفسهم فى مذاكرتهم، بالاضافة الى ما تمارسة اسرائيل فى الوقت الراهن. ويكفى أن نشير الى التصريحات الإسرائيلية الرسمية التى أعلنت منذ فترة والتى قررت أن كل ما روجت له الصفوة الاسرائيلية الرسمية التى أعلنت منذ فترة والتى قررت أن كل ما روجت له الصفوة الاسرائيلية الحاكمة قبيل حرب ١٩٦٧ من خوفهم من أن تسحق اسرائيل بواسطة البلاد العربية كانت أكاذيب لا أساس لها، وأن اسرائيل استدرجت البلاد العربية فى حرب لتقضى على قوتها العسكرية.

ونجد صنوع حين يتحدث أيضا بدوره عن الكذب لدى العرب، يقرر أنه فى كل مجتمع يمارس الكذب، غير أنه فى الغرب كَذب مصفى من خلال شبكة منطقية متماسكة، أما فى البلادالعربية فهو كذب ساذج لا يحكمةمنطق!

ترى هل يمكن الاطمئنان الى تحليلات علمية على أيدى باحثين اسرائيليين يزيفون هكذا الوقائع بكل بساطة، ويركزون البحث على الطرف العربى، ويتجاهلون تماما الطرف الاسرائيلى؟. أن

بعض الابحثين الغربيين مثل هولاهمى يقرر صراحة أنه من السهل تجريح غالبية البحوث التى تحدثت عن الشخصية العربية لأنها ليست أكثر من تأملات ذاتيه، أو انطباعات تتسم طابع قصصى، أكثر منها دراسات علمية محققة.

ومن ناحية أخرى ذهب باحث أخر هو تريباندس(٢٤) الى أنه يعترض على مفهوم «الشخصية العربية» وذلك على أساس أن الأنماط المجتمعية قد تكون هى المسؤوله عن ضروب السلوك التى تنسب للعرب، أكثر من كونها سمات لصيقة ببناء أساسى لشخصيتهم.

ومن ناحية أخرى، فالسمات التى تنسب للعرب تتسم بالعمومية بحيث نجدها متوافرة لدى غيرهم من الشعوب، وكذلك لدى الاسرئيليين أنفسهم فكيف يمكن استخدام هذه السمات من منظور سلبى– بمعنى رصدها وتحديدها باعتبارها مسؤوله عن جانب أو اكثر من جوانب الصراع العربى الاسرائيلى؟

وخلاصة ما سبق وعلى ضوء تقييمنا للتحليلات الغربية والاسرائيلية للشخصية العربية، نستطيع أن نخلص الى أن هذه التحليلات– فى غالبيتها العظمى لم تهدف للفهم الموضوعى ولا للتفسير العلمى، بقد ما حاولت تشوية المقومات الأساسية للشخصية العربية.

الفصل السادس

المفهوم العربى للشخصية العربية

- نظرة على الدراسات والبحوث التى
  أجريت على الشخصية القومية العربية
- الشخصية القومية العربية باعتبارها
  من بين عوامل الهزيمة العربية.
- تقييم المفهوم العربى للشخصية القومية العربية.

نظرة عامة على الدراسات والبحوث التى أجريت على الشخصية القومية العربية

يمكن القول أن الدراسات والكتابات العلمية العربية التى عالجيت موضوع الشخصية القومية العربية محدودة للغاية من ناحية، وتنذر فيها الدراسات التى طبقتمناهج وأساليب البحث الميدانى، ومن هنا يغلب عليها الطابع التأملى، وهى بهذه الصورة تفتقر الى كثير من شروط البحث العلمى بمعناه الدقيق، الا أن ذلك لاينفى أننا نستطيع أن نجد فى أكثرها أصالة فروضا متعددة، تستحق أن توضع التحقيق التاريخى والتجريبى معا.

وحين نستعرض فى هذه الدراسات القليلة نجد أن بعضها حاول الحديث عن الشخصية القومية العربية، بغير تمييز بين الخصائص النفسية والاجتماعية الفارقة بين شعب عربى وشعب أخر. ولعل من زبرز هذه الدراسات التى يحلو للكتاب الاسرائيليين والأمريكيين الرجوع اليها دائما لا زدحامها بالصفات السلبية للعرب- كتاب سنية حمادى.

ونجد كتابا أخر يختلف عن كتاب سنية حمادى فى كونه مجرد انطباعات وتعميمات جارفه، وهو «أزمة التمدن العربى» لمحمد وهبى(١) حيث اشتمل على فصل عن الشخصية العربية. وفى نفس الاتجاه، صدر كتيب لمدثر عبد الرحمن الطيب بعنوان «أزمة المجتمع العربى المعاصر»(٢)، ويعد هذا الافكار نجد دراسات متكاملة عن الطابع القومى للشخصية العربية، كتبها باحثون أو كتاب عرب، وذلك فى حدود علمنا بطبيعة الحال.

فاذا انتقلنا بعد ذلك للدراسات العربية التى عالجت الشخصية القومية لشعب عربى بعينه، سنجدها مجموعة متناثرة ومحدودة من الدراسات لعل من زبرزها دراسة على الوردى عن «دراسة طبيعية المجتمع العراقى»(٣) وبحث جابر عبد الحميد عن «الشخصية العراقية»(٤) يتميز بأنه دراسةأمبيريقية طبقت أساليب البحث فى عالم النفس على عينه من الطلبة العراقيين(٥) وذا انتقلنا الى مصر فاننا نجد الكتاب الشهير للأب هنرى عيروط اليسوعى «الفلاحين» الذى نشره بالفرنسية وترجمة الى العربية الدكتور محمد غلاب، حيث نجد اشارات الى شخصية الفلاح المصرى. ثم نجد كتابا لعبد العزيز الرفاعى عن «الطابع القومى للشخصية المصرية: بين الايجابية والسلبية»(٦)، وهى محاولة هامشية يغلب عليها السرد التاريخى غير المتعمق لبعض الفترات فى تاريخ مصر ثم محاولة نظرية هامة لحامد عمار عن «الشخصية الفهلوية»(٧)، ومن الاسهامات الهامة فى هذا المجال عدد ممتاز اصدرته مجلة «الفكر المعاصر» القاهرية فى أبريل ١٩٦٩ بعنوان «الشخصية المصرية» أسهم فيه عدد من العلماء الاجتماعيين المصريين بدراسات متنوعة أهمها ما يلى: شخصيتنا القومية: محاولة فى النقد الذاتى، الطابع القومى للشخصية، مصر النهرية، البعد الاجتماعى للشخصية المصرية الحاضرة، الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية والقروى المصرى بين التقليد والتجديد، التفكير الدينى وازدواجية الشخصية، ظاهرة الموت فى حياة المصريين، وشخصيتنا بين القدرية والتواكلية، نحن وظاهرة الاغتراب نزعة الابتعاد عن الواقع،

شخصيتنا فى المأثورات الشعبية، مفاهيمنا الأخلاقية والعودة الى النبع، ملامح من شخصية المرأة المصرية[8].

ومن الدراسات الهامة غير المنشورة دراسة الحمامصى عن «تأكيد الهوية المصرية فى المنظور التاريخى»[9].

وإذا تركنا المعالجات العامة والمباشرة لموضوع الشخصية المصرية، فاننا نستطيع ان نجد عددا من الدراسات الخاصة التى ركزت على موضوع معين لكنها بأضواء تتفاوت فى قوتها على الشخصية المصرية. من هذه الدراسات كتاب حامد عمار: التنشئة فى قرية مصرية[10] وهو كثيرا ما ترجع اليه الدراسات الغربية التى تكتب عن الشخصية المصرية، كتب سيد عويس، ومن اكثرها ارتباطا بالموضوع: ملامح المجتمع المصرى المعاصر: رسائل الى ضريح الامام الشافعى، واتجاه المصريين المعاصرين ازاء ظاهرة الموت والموتى[11].

وكتاب نجيب اسكندر، ورشدى فام منصور التفكير الخرافى[12]. ومن بين الدراسات الهامة التى أجريت بعد حرب ١٩٦٧ والتى ترتبط ارتباطا وثيقا بالشخصية القومية العربية الدراسة التى أجراها حليم بركات، بيتر ضود، النازحون: اقتلاع ونفى، دراسة علمية، والبحث الميدانى الذى أجرته أميرة حبيبى «النزوع الثانى: دراسة ميدانية لنزوح ١٩٦٧».

والجدير بالاشارة ان هذه الدراسات والبحوث أجريت بغرض الفهم العلمى للشخصية القومية العربية بوجه عام، أو للشخصية القومية العربية فى بعض الاقطار العربية بوجه خاص. غير أن

التحليلات التى تعرضت للشخصية القومية العربية بغرض تفسير الهزيمة العربية فى يونيو ١٩٦٧ هى التى تعنينا مباشرة فى هذا البحث ولذلك سنعرض لها بشئ من التفصيل، بالرغم من أنها اعتمدت أساسا على عدد من الدراسات والبحوث الاسبق الإشارة اليها.

الشخصية القومية العربية باعتبارها

من بن عوامل الهزيمة العربية

أولا مفهوم الشخصية العربية الفهلوية، محاولة تأملية:

لعل كتاب صادق جلال العظم «النقد الذاتى بعد هزيمة» يعد من أنضج الكتابات العربية فى دراسات النقد الذاتى التى مارسها المفكرون العرب بعد هزيمة، ويرد ذلك أساسا الى المنظور المتكامل الذى تنباه المؤلف، والذى سمح له بالتركيز على الجوانب السياسية والاجتماعية والحضارية والربط بينها بطريقة دينامية خلاقة ولايعنى ذلك بطبيعة الحال أن العظم كان موفقا فى كل التحليلات التى قدمها بصدد الشخصية القومية العربية، أو فيما يتعلق بالسمات الاساسية لبناء المجتمع العربى فى مرحلة تطوره الراهنة، أو فى رسم خطوات التغيير الثورى التى ينبغى أن تأخذ مجراها أن أراد العرب لانفسهم أن يتجاوزوا الهزيمة، ولكن أهم ما يميز محاولته الجسورة، أسلوبة العلمى فى تناول الموضوع ووضوح المسلبات التى يصدر عنها، وحرصه على تحليل الواقع الحى للمجتمع العربى، كما يفصح عن نفسه فى المؤسسات السياسية والاجتماعية(١٣).

وقد يكون من أبرز التفسيرات التى حاول العظم أن يصوغها لتحديد عوامل الهزيمة العربية عام ١٩٦٧، ارجاعه الهزيمة الى النوعية الخاصة للشخصية القومية العربية:

ويرى العظم أن الشخصية العربية تميل الى ازاحة المسؤولية عن النفس واسقاطها على الغير(١٤)، وقد تجلت هذه النزعة بكل وضوح فى نظرة بعد هزيمة الخامس من يونيو وتمثيل هذه النزعة فى محاولة ارجاع الهزيمة العربية الى عوامل خارجية سعيا وراء البعد عن النفاذ الى حقيقة الاوضاع العربية الداخلية الخاصة بتنظيم المجتمع العربى، والتى أسهمت مباشرة فى تحقيق الهزيمة.

غير أن العظم لا يقنع بصياغة هذا التعميم، وإنما يحاول تعميقة على أساس ربطه «بعوامل اساسية تدخل فى بنيان المجتمع العربى التقليدى ولا تنفصل عن خصائص الشخصية الاجتماعية التى تربيها البيئة العربية المتوارثة فى كل واحد منا وتنميها فيه»(١٥).

وقد اعتمد العظم فى دراسة خصائص الشخصية الاجتماعية، وبوجه خاص فيما يتعلق بظاهرة المنطق التبريرى العربى، على دراسة حامد عمار «الشخصية الفهلوية» وقد حرص العظم على أن يشير الى أن الشخصية الفهلوية ليس الا تجريدا، «لا وجود فى الواقع الحى، الا على صورة خصائص وأنماط سلوك وردود فعل ومشاعر واحساسات يتصف بها الأفراد فى بيئات اجتماعية معينة وبنسب مختلفة قد تزيد وقد تنقص من فرد الى آخر وفقا للظروف والأوضاع»(١٦).

اذا كان الأمر كذلك، لقد يكون من الأنسب أن يعتمد على

دراسة حامد عمار نفسها لنرى مفهومة عن الشخصية الفهلوية(١٧).

صاغ حامد عمار هذا المفهوم وحدد خصائصه فى اطار دراسة متكاملة جعل لها عنوانا «التربية الاجتماعى للشخصية» وقد تحدث فيها عن «منهم الحضارة والشخصية» وقرر أن «المعروف لدى علماء الاجتماع أن للمجتمع محورين من الزمان والمكان تدور حولهما حياته وحضارة المجتمع بالمعنى العام تشمل الى جانب العناصر المادية مقومات اجتماعية وسيكلوجية تحدد الطريقة التى تدار بها دفة الحضارة فى مختلف المجالات وأنواع الدوافع والمحركات والقيم والمثل العليا، وعوامل الطمأنينة والقلق وصور التكيف والنشار و السوء والشذوذ، ويتكون من حصيلة البعدين الزمانى والمكانى وعناصر الحضارة المادية والاجتماعية للشخصية نمط الزم الجوانب لاستكمال وصف المجتمع وصفا حيويا يعين المصلحين على احداث التغيير المنشود، وتقدير نتائجة» وبعد أن تحدث عن النمط الاجتماعى للشخصية وعرض لنماذج من التشكيل الاجتماعى للشخصية. حرص على وضع حدود استخدام مصطلح النمط الاجتماعى للشخصية فتحدث عن «النمط والمخالف والاستمرار والتغيير» ليبين أن النمط الاجتماعى للشخصية يمثل السمات الغالبية فى شخصيات الافراد، وليس معنى ذلك لانه لايوجد بينهم من يشذ عن هذا التوقع أو يحيد عن المسلك «الوسط» بالمعنى الاحصائى المعروف. ومن ناحية أخرى تحدث عن امكانية تغير النمط الاجتماعيللشخصية ثم تساءل: «ما هو النمط الاجتماعى القائم لشخصية المصرى الذى تألفت عوامل الزمان والمكان وأوضاع الحياة

علـى تشـكلـية فى هـذا النـمط؟ ومـا هـى هـذه الـعوامـل التـى أدت الى تكشلية على هذا النحو؟»(١٨).

اختـار حـامـد عمار لـفظ «الفهلـوية» للدلالة عـلـى هـذا النـمط، ومـن هـنا حديثه عن «الشـخصية الفهلوية».

والآن ما هـى السـمات الأساسية للشـخصية الفهلوية؟

١- أولى هـذه السـمات هـى القدرة على «الـتكيف السـريـع لمختلف المواقـف وادراك ما تتـطلبـة من استـجابات مـرغوبة. والـتصرف وفـقا لمقتضياتها الى الحد الذى يراه مناسبا».

غير أن حامـد عـمـار حـرص علـى أن يؤكد على أن هـذه القدرة على التكيف الـسريع تتميز مـجانـبين متلازمين: أحدهـما المرونـه والفطنة والقـابلية لـهضـم والـتمثيل لـلـجديد، والآخـر هـو المسـابـرة السطحـية والمجاملة العابرة الـتى يقصـد بها منها تغطية الـموقف وتورية المشاعر الحـقيقـية مما لا يـعنـى الارتباط الـحقيـقى بمـا يقولـه المرء أو بمـا قد يقوم به مـن مظاهـر سلوكية.

٢- الـسمـة الـثانيـة هـى النكتـة المواتية، الـتى غدت من الـخصـائص يتميز بها النمـط المصـرى.

٣- الـسـمـة الـثالـثة هـى المبـالـغة فـى تأكيد الـذات والميـل المـلـح الى أظهـار القدرة الـفائقة والـتحكم فى الأمـور.

٤- الـسـمة الـرابعة هـى سيادة نظرة رومـانتيكية للـمـساواة. حيث يشـعـر المـصرى فـى قراءة نـفسـه بالـنقـمة والـسـخـط عـلـى الأوضـاع والتفرقة أيا كان نوعها، ومهما تكون دوافعهاومبرراتها. ويتصل بهذا عدم الاعتـراف بالسلـطة أو الرئاسة والـتنكر لـهـا فـى أعماق الـشـعور.

ويقرر حامد عمار أنه من بين أهم المعدات النفسية التى تتزود بها الشخصية الفهلوى هى عملية «الازاحة والاسقاط» وبفضل ازاحة المسؤولية على غير من الناس أو اسقاطها على أمور خارج نطاق الذات ليتيسر تبرير ما قد يقع فيه المرء من مواقف محرجة، أو تقصير فى المسؤوليات الاجتماعية. وتزداد الفهلوة بازدياد القدرة على احكام هذه العمليات الازاجية والاسقاطية.

٥- والسمة الخامسة هى الطمأنينة الى العمل الفردى وايثاره على العمل الجماعى.

٦- السمة السادسة هى سيادة الرغبة فى الوصول الى الهدف باقصرالطرق وأسرعها، وعدم الاعتراف بالمسالك الطبيعية.

اذا كانت هذه هى العناصر او المقومات الأساسية المتخصصة الفهلوية كما صاغها حامد عمار، الا أنه بحسة المنهجى الدقيق، حرص على أن يورد تحفظات متعددة بصدد هذا «النموذج المثالى» الذى صاغة، واعتبره مجرد «فرض» يحتاج الى مزيد من المناقشة واستكمال الأدلة التى تثبته أو تدحضة ومن ناحية أخرى أكد أن هذه السمات جميعا هى وليدة الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأنواع المؤسسات والنظم التى ترتب كيان المجتمع، وأنها ليست مقومات «طبيعية» فى المصرى نشأت ونمت وستظل هى مقومات أبدا، وأنما هى قابلة للتغير والتحوير..»

هذا هو نمط الشخصية الفهلوية كما حدد سماته حامد عمار، فكيف استخدمه صادق جلال العظم لتفسير الهزيمة العربية عام ١٩٦٧؟

يرى العظم[٢٠] أن الخصال الفهلوية التقليدية «تجعلنا عاجزين عن تقبل الحقيقة والواقع، وفقا لما تفرضة الظروف الحرجة من تصرف سريع وتضطرنا لاخفاء العيوب والفشل والنقائص بغية انقاذ المظاهر والحفاظ على ماء الوجهويستشهد بفترة من مقال كتبه محمد حسنين هيكل فى[٢١] الاهرام، عن «بعض شوائب السلوك» التى بدت من المسؤولين العسكريين العرب حين ضربت مطارات جمهورية مصر العربية صباح يوم الحرب.

يقول «هيكل» ان الحساب الاسرائيلى اعتمد على بعض شوائب السلوك التى يسببها نقص الانضباط، وهى شائبة التأخر فى ابلاغ الحقيقة اذا كانت سيئة الى المستويات الأعلى. إن هذه الشائبة فى السلوك أعطت العدو عشر دقائق التى كانت هى ما يحتاجة بالضبط لكى يحقق المفاجأة لاحد عشر قاعدة جوية ركز عليها ضربته الأولى... ولقد كانت الغارة الاولى على بعض المطارات المتقدمة فى سيناء لكن شوائب السلوك لعبت دورها فى عدم سرعة الابلاغ وضاعت دقائق غالية لا تقدر..».

«ان اعتماد الاسرائيلى على هذه الشائبة من شوائب السلوك ليس استنتاجا أو اجتهادا من جانب وانما هو قول قائد الطيران الاسرائيلى نفسه الجنرال موردخاى عود فى شرح توقيتات خطته..»

ويعقب العظم على هذه الفقرة بأن الفقرة بأن الجنرال «هود» لم يضع توقيتلت خطته على أساس- مجرد شائبه سلوك بسيطه، بل «وضعها على اساس فهم دقيق للخصال التى يتصف بها النمط

التقليدى للحياة العربية المتوارثة، وتقدير مضبوط لطبيعة أنماط السلوك وردود الفعل التى يكتسبها الفرد فى مثل هذا المجتمع الاتباعى، ولنوعية الأولويات التى انغرست فى نفسيته بالنسبة يقيم الحياء، واخفاء العيوب والتستر على الحقيقة اذا كانت سيئه».

ومن ناحية أخرى، يرى العظم أنه اذا كانت من سمات الشخصية الفهلوية نزوعها الى الحماس المفاجئ والاقدام العنيف والاستهانة بالصعاب فى أول الطريق. تم انطفاء وفتور الهمة عندما يتبين للفهلوى أن الآخر يستدعى المثابرة والجلد والعمل المنتظم الذى لاتظهر نتائجة الا ببطء وعلى شكل تراكمى، فان هذا السلوك مارسه- فى رأية عديد من الشبان العرب الذين اندفعوا اثناء المعركة يطلبون السلاح، رغم أن مقدرتهم على استخدامه جد محدودة هؤلاء سرعان ما فتر حماسهم بعد ذلك ولفتهم موجات الحياة اليومية فى رتابتها وجسودها. وفى رأى العظم أن المشكلة الرئيسية التى يعانى منها الشباب العربى الثورى الملتزم أن ثورتهم تبقى فى أغلب الأحيان ثورة على المستوى السياسى لا أكثر «أى أنها لا تتعدى مستوى الأطر الفوقية ولا تمس بصورة عملية وفعلية مستوى العلاقات الاجتماعية وتسيجها التقليدى الذى بطبع الصعيد السياسى الأول بطابعة المتخلف والبطئ»(٢٢).

ويربط لعظم بين سمة أخرى من سمات الشخصية الفهلوية وين سلوك العرب قبل الحرب،، ونعنى السمة الخاصة بالمغالاة فى تأكى الذات، والميل الملح لإظهار القدرة الفائقة فى التحكم بالأمور. فقد لوحظ كما يقرر العظم (٢٣)- ميل العرب «الى الأستهتار بقوة

العدو وطاقاته والاستخفاق بع وتأكيد النفس، هذه النفس غير المطمئنه الى وضعها فى أعماقها، عن طريق الادعاءات الرنانة والتقيد بالمظاهر الخارجية والشكليات التى جعلتها ننظر الى مظهر امتلاك طائرات الميج وكأنه امتلاك عدد من الخرزات الزرقاء التى سوف تحمينا من الشر المحدق بنا».

وينتقل العظم الى ربط الشعور الحقيقى بالنقض تجاه الأخرين الذى تنطوى عليه الشخصية الفهلرية، هذا الشعور الذى لا تستطيع البوح به لانها تتمسك بقيم الحياء والخوف من الفضيحة أكثر مما تتمسك بالواقعية والموضوعية وبضرورة الاعتراف الصريح بالنقض لمعالجته والتغلب عليه، وبين نمط العلاقات بين الدولة العربية. فهذه العلاقات- فيما يراه- تتصف بالمسايره السطحية والمجاملة العابرة، التى يعتمد منها تغطية المواقف كما هى على حقيقتها وينطبق ذلك بوجه خاص على علاقات الدول العربية بعضها ببعض قبل الحرب الأخيرة وحتى بعدها. •كل الاشارات هنا الى حرب يوينو ١٩٦٧).

ويثير العظم مسألة هامة مبناها كيف تتصرف الشخصية الفهلوية حين تجد نفسها فى مأزق حرة؟

أن هذه الشخصية اذا وجدت نفسها فى مأزق «سيفضح حتما عجزها وتقصيرها تبرع فى ازاحة المسؤولية عن نفسها واسقاطها عل يقوى خارجية يمكن عن طريق تبرير النتائج السلبية التى جاءت على يدها» «كذلك تلوم«كذلك تلوم (٢٤) . وتماما مثلما لا يلوم الطالب الفهلوى العربى نفسه عندما يرسب فى الامتحان بل يلوم

الحظ، والاستاذ والأسئلة الصعبة، «كذلك تلوم الأمة العدو، والاستعمار، والغدر ، والحظ، وكل ما يخطر لها على بال فتهون بذلك على نفسها وتحفظ ماء الوجه، وتصون المظاهر، وتراعى المشاعر، وترفع المعنويات عوضا عن أن تنفذ الى بيت الداء وتستأصله» (٢٥).

والشخصية القهلوية – فى نظر العظم – تزدهر فى المجتماعت التى تركز فى سلوكها ونظراتها على نمط الحياة التقليدى الاتباعى، حيث تتوجه انظار الافراد وأفكارهم وردود فعلهم نحو التقاليد العريقة والسنن السلفية والمتوارثة مما جعل الفرد فى مثل هذه المجمعات انسانا محافظا عقلاوجسدا، يدور دوما فى فلك محدود وهو فلك اتباعى يبقى القديم على قدمه، ويحافظ عليه لينقله الى ابنائه (٢٦).

وخطورة ذلك كله، أن «صفات البطء ونزعه التقليد والتقيد بالقوالب الجاهزة والالتصاق بها والابتعاد عن الايتكار السريع والمبادهة المباشرة فى اتخاذ القرارت قد تركت آثارا سلبية خطيرة على تنظيماتنا العسكرية وعلى مفهومنا لطبيعة الحرب الحديثة، وكانت مسؤولة الى حد كبير عن الهزيمة السريعة التى حلت بنا(٢٧).

هكذا حاول صادق جلال العظم الربط بذكاء بين سمات الشخصية الفهلوية كما سبق أن حددها حامد عمار – وبين السلوك العربى قبيل المعركة واثناءها وبعدها.

وإذا كانت هذه المحاولة تأملية أساسا وان كان هذا لا يقدح بذاته

فى أصالة عديد من الأفكار التى تنطوى عليها وعمقها الا أنه من المفيد أن نستعرض بعض النتائج الأساسية لعدد من البحوث الميدانية التى أجريت عقب حرب يونيو ١٩٦٧ مباشرة، والتى من خلال دراسة أسباب نزوح السكان العرب من الضفة الغربية حاولت أن تضع يدها على بعض سمات الشخصية العربية.

ثانيا- نزوح العرب من الأرض المحتلة وعلاقته بالشخصية القونية العربية على ضوء البحوث الميدانية.

أجريت بعض [٢٨] الدراسات والبحوث الميدانية عن اسباب نزوح السكان العرب من الضفة الغربية أثناء الحرب وبعدها. ومن أهمها بحثان ميدانيات البحث الأول أجراه حليم بركات وبيتر ضود [٢٩]، وهو عبارة عن مسح اجتماعى سريع لعينه من النازحين، والبحث الثانى أجرته أميره حبيبى [٣٠] وهو عبارة عن رسالة ماجستير تقدمت بها المؤلفة الى الجامعة الأمريكية فى بيروت، وهو دراسة تتسم بالعمق، لأنها اهتمت بربط الموضوع بالتراث السوسيولوجى الخاص بالكنبة وسلوك النكبة ذلك أن العلوم الاجتماعية بدأت فى تنمية عدد من الفروض والنظريات الخاصة بالسلوك الانسانى ازاء النكبات.

نعرض أولا لبحث حليم بركات وبيتر ضود. اختار الباحثان عينه البحث من «مخيم زيزياء» الذى أقيم فى الضفة الشرقية للأردن لكى يأوى اليه سكان الضفة الغربية الذين تركوا ديارهم نتيجة للعدوان الاسرائيلى فى يونية ١٩٦٧.

وكانت وحدة الدراسة هى العائلة، وقد اختيرت عينه ممثله لمخيم

بلغت مائه عائلة حوالى ثلاثة الآف نازح فى المخيم (٣١) وتم البحث عن طريق اجراء مقابلات حرة توجهها استمارة بحث تتضمن حوالى خمسين سؤالا رئيسيا ودارت هذه الاسئله حول وضع العائلة وتاريخها، ومكان سكناها السابق وموارد رزقها وتركيبها الاجتماعى، وتعلقها بالمناطق التى تم النزوح منها، والدرجة الثقافية عند اعضائها ومشاعرهم قبل الحرب وأثناءها وبعدها، وعملية النزوح من منازلهم وكيف تمت، ووضعها الحالى، ومشاعرهم أفرادها تجاه الهزيمة والعرب واسرائيل والغرب، واخيرا رغبتها فى العودة (٣٢)، وقد توصل البحث فيما يتعلق بأسباب النزوح الى أربعة أسباب مباشرة وأربعة أسباب غير مباشرة.

الأسباب المباشرة. تتعق بالأحداث التى جرت أثناء الحرب وهى: تهديم القرى والمنازل وطرد أهلها، والخوف والحرب النفسية، وأخيرا الضغط الاقتصادى.

الأسباب غير المباشر: وتتعلق بتركيب المجتمع والاستعداد النفسى الاجتماعى والقيم السائدة وهى: المفاجأة (بالسرعة التى نشئت بها الحرب وبكثرة الطائرات المهاجمة) وفقدان الروابط الاجتماعية ضمن مؤسسات ومنظمات وأحزاب ٠ ذلك أن الروابط الوحيدة الفاعلة فى المجتمع العربى هى الروابط العائلية) والقيك القيم العربية ونظرة العرب الى الجنس، والشك فى العلاقات العربية.

وقد أورد البحث جدولا بين أسباب النزوح المباشر وفق بيانها الذى أشرنا اليه، وهو كما يلى (٣٣).

جدول رقم (٨)

أسباب النزوح	عدد العائلات التى ذكرت فى هذه الأسباب
١- الخوف :	
- الخوف من الطائرات	٥٧
- الخوف من انتهاك الأعراض	٣٠
- الخوف من القبض على الشباب	٢٢
- الخوف من دير ياسين ثانيه	٨
٢- الحرب النفسية	٢١
٣- تهديم القرى والطرد	١٩
٤- الضغط الاقتصادى	١٠
المجموع	١٦٧

(ملاحظة: عدد كبير من العائلات ذكرت أكثر من سبب لنزوحها لذلك يزيد المجموعة على المائة (٣٤). غير أن البحث للأسف- لم يورد جدولا مقابلا لبيان أسباب النزوح غير المباشرة وهى التى تعنينا فى المقام الأول، ولصلتها بالطابع للشخصية العربية.

وأيا كان الأمر فالبحث يشير- فى معرض ذكره للأسباب غير المباشرة- أن من أهمها طغيان الروابط العائلية على ما عداها مما دفع بالنادحين الى النزوح خوفا على بناتهم ونسائهم وأطفالهم وشبابهم وليس خوفا على أنفسهم. ومن ناحية أخرى يقرر البحث أن مفهوم «العرض» عند العرب لعب دورا هاما فى عملية النزوح (ذكرت ثلاثين عائلةمن مجموعة عدد العائلات موضوع البحث

(١٠٠ عائلة) ان الخوف من الاعتداء على الأعراض كان سبب نزوحها)(٣٥).

أما بحث أميرة حبيبى فقد تم اجراؤه فى اطار بحث حليم بركات وبيتر ضود، غير أنها عمقت البحث عن طريق ربطه بالتراث السوسيولوجى من النكبة كما سبق أن أشرنا.

تحدد الباحثة الهدف من دراستها بأنه- فى أحد جوانبه توضيح الأسباب الخفية للنزوح أكثر منه دراسه للأسباب الفعلية له، وذلك عن طريق بحث العوامل التى أدت اليه اللصيقة بالنظام الاجتماعى.

ومن هنا اتجهت الى بحث عاملين رئيسيين:

(أ) مكونات النكبة، وتأثيرها على السلوك، وردود الفعل التى نتجت عنها.

(ب) النظام الاجتماعى الذى عانى من النكبة، بما أن النكبة هى تحديدا تفكيك الوضع الاجتماعى.

وقد تعرضت الباحثة لدراسة ثلاث مراحل للنكبة: ما قبل النكبة، تأثير النكبة، وما بعد النكبة. وقررت أن دراسة ما قبل النكبة تحتل مركزا رئيسيا فى دراستها كما أن هذه المرحلة تحدد نوع السلوك الذى سيمارس فى المرحلتين التاليتين، ومعنى ذلك أنه لا يمكن تحليل سلوك النكبة تحليلا فعالا دون فهم سابق وأساسى لبناء النظام الاجتماعى للمجتمع العربى. وقد تبين للباحثة أن العائلة باعتبارها الوحدة الاجتماعية الانسانية، تنتقل معايير المجتمع وقيمه وأهدافه للأجيال القادمه. وقد اتضح لها أن:

(أ) الأدوار والانماط فى العائلة العربية التقليدية، واضحة ومعروفة.

(ب) الفرد وثيق بعائلته.

(جـ) التزاماتومسؤوليات الفرد الحياتيه هى أولا تجاه عاذلته وثانيا تجاه نفسه.

(د) قيم العائلة مبنية على الولاء والاحترام، وهناك رباط قوى من المحبة بين جميع أفراد العائله.

(هـ) يجب الابقاء على طاعة الوالدين والارتباطات العائلية القوية(٣٦). وقد حاولت الباحثة أن تربط بين هذه الملامح الرئيسية للعائلة العربية وبين سلوك العرب أثناء النكبة.

وقد انتهت هذه الدراسة الى عدة نتائج تتعلق بكشف العوامل التى ساعدت على الهروب، وليس تلك التى سببت الهروب، وذلك بسبب نقاط نقص فى العينة أشارت اليها الباحثة تفصيلا(٣٧). وقد لخصت الباحثة نتائجها وبصدد أسباب مغادرة الوطن فى الجدول التالى:

جدول رقم (٩)

الأسباب المعطاة لمغادرة اقرى أو المدن

الأسـبـاب	عدد الاجابات	النسبة المئوية
- العائلة :		
الخطر على حياة أفرادالعائلة	٥٦	٪٣٥
الانضمام الى أفراد العائلة.	٣٦	٪٢٠
- الخطر على العرض :	١٤	٪٨
الخوف من الحرب	٤٩	٪٣١
تصرف جماعى لا واعى	٣٥	٪٢٢
اخراج بالقوة	١٨	٪١١
أسباب أخرى	٢	٪١
مجموع الاجابات	١٦٠	٪١٠٠
مجموع العائلات	٩٨	٪٩٨

ويتضح من هذا الجدول أن التركيز على سلامة زفراد العائلة يحتل مكانة كبرى بين الأسباب التى دفعت عرب الضفة للنزوح.

ومن ناحية أخرى يمثل الخوف على العرض مكانه هامة بين الأسباب التى دفعت الى مغادرة الوطن.

والآن ماذا نستطيع أن نستخلصة من نتائج هذين البحثين الميدانيين؟ من الواضح أنهما يركزان على أن العربى يرتبط ارتباطا وثيقا بعائلته، بحيث يمكن القول أن العائلة العربية بتكوينها وبالوظائف التى تقوم بها، تمثل المحور الذى يدور حوله الفرد العربى. وهذا فى نظر هذين البحثين قد يضعف من روح الانتماء القومى لدى المواطنين، مما يوثر بالتالى على سلوكهم الاجتماعى فى وقت السلم وفى وقت الحرب على السواء.

كما أن فكرة العرض، تمثل- فيما يبدو- قيمة محورية فى سلم القيم التى يتبناها العربى[٣٨]، وقد انعكس ذلك على سلوك عرب الضفة الغربية، الذين كان خوفهم على اعرضهم من بين العوامل الهامة التى أدت الى نزوحهم.

ولعلنا الآن بعد عرنضا للمحاولات التأملية التى حاولت تحليل سمات الشخصية العربية، ولبعض البحوث الميدانية عن سلوك العرب فى النكبة، فى موقف يسمح لنا بتقييم المفهوم العربى للشخصية العربية.

الفصل السابع

تقييم المفهوم العربى للشخصية العربية

- المحاولات التأملية
- البحوث الميدانية

فى عرضنا للمفهوم العربى للشخصية العربية، ميزنا بين الدراسات العلمية الاجتماعية التى أجريت سواء على الشخصية العربية بوجه عام، أو على بعض ألفاظ الشخصية العربية، كالشخصية العراقية أو الشخصية المصرية، وبين الدرسات التى ركزت على الشخصية العربية باعتبارها من بين الأسباب التى أسهمت فى هزيمة يونيو ١٩٦٧.

والحقيقة أننا لو ألقينا نظرة على النمط الأول من الدراسات لوجدنا أن الدراسات النظرية فيها، لاتخرج عن كونها مجموعة انطباعات، أو بعض التأملات، التى تفتقر الى شروط البحث العلمى بمعناه الدقيق، ومن هنا يمكن رفضكثير منها، لازدحمها بالتعميمات الجارفة عن الشخصية العربية، التى تفتقر الى الأسانيد العلمية.

اما الدراسات الميدانية منها، كدراسة «التفكير الخرافى» لنجيب اسكندر ورشدى فام، أو دراسات سيد عويس عن «رسائل الى الامام الشافعى» و«اتجاه المصريين المعاصريين ازاء ظاهرة الموت والموتى» فالملاحظ بشأنها أنها اجتزات بدراسة بعض الاتجاهات اللاعقلانية المحدودة، وبالرغم من أنها فى كثير من الأحيان نجحت فى اعطاء صورة وصفية دقيقة للظاهرات التى تعرضت لها بالدراسة، الا أنها فى غالبتها- لم ترتق الى متسوى التفسير الابداعى الخلاق، الذى يربط الظاهرة فى نشأتها وتطورها ووضعها الراهن بسياقها التاريخى من ناحية وبالنباء الاجتماعى الأشمل من ناحية أخرى(١).

وهى بالتالى لم تستيطع أن تلقى الأضواء على محصلة صراع

القيم فى المجتمع المصرى فى مرحلة تطوره الراهنة، ولا على الوظائف الظاهرة أو الكامنة لهذه الاتجاهات اللاعقلانية، ولا على القوى الاجتماعية المختلفة التى تعمل- من خلال وسائط شئ- على تنميتها واستمرارها. وقد يكون التحليل السوسيولوجى للسلطة فى المجتمع بكل ما يعينه مصطلح السلطة من دلالات متعددة، هو المدخل النظرى الصحيح الذى كان يمكن أن يضع هذه الاتجاهات اللاعقلانية موضعها الصحيح فى نسق القيم السائدة فى المجتمع المصرى فى الوقت الراهن. ولا يعنى هنا مجرد السلطة السياسية، بل يعنى أيضا السلطة التى تمتلكها الطبقات المسيطرة أيضا السلطة الدينية، والسلطة التى تمتلكها الطبقات المسيطرة اقتصاديا(٢).

وأيا ما كان الزمر، فإن الرفاضة فى التعليق على هذه الدراسات العامة أو الجزئية عن الشخصية العربية، قد يخرج عن موضعنا بالمجال المحدد الذى وضعناه له، فنحن يعنينا فى المقام الأول تقييم التحليلات العربية عن الشخصية العربية باعتبارها أحد أسباب الهزيمة فيونيو ١٩٦٧.

المحاولات التأملية:

نجد أمامنا بهذا الصدد عددا من التعميمات الجارفة، التى تفتقر الى أى تدليل علمى، مثالها ما ذهب اليه بعض الكتاب العرب من أن الهزيمة العربية فى ١٩٦٧ «ترجع لعامل جوهرى واحد وهو الضعف البشرى»، و«أنالفرد العربى الحاضر (عموما) ضعيف الشخصية»(٣). واذا كانت مثل هذه التعميمات لا تستحق ان تقف

عندها كثيرا، الا ان هناك بعض التحليلات التى يتبغى أن نتفحصها بصورة متأنية. ولعل تحليل «حامد عمار للشخصية العربية الذى أقامة على أساس «مفهوم الشخصية الفهلوية» والذى تنباه «صادق العظم» فى تفسيرة لأسباب الهزيمة العربية، يقف فى الصدارة بين هذه التحليلات.

وقدوجه لمفهوم «الشخصية الفهلوية» فى ذاته بعض الانتقادات المنهجية من جانب بعض الباحثين المصريين(٤)، الذين نهجوا نهجا خاصا فى دراسة الشخصية المصرية لايقوم على دراسة خصلة أساسية أو خصال قليلة، وإنما جهدوا فى تحديد نموذج للشخصية المصرية يقوم على تعيين الشخصية المنوالية الريف المصرى، وذلك على أساس «أن مفهوم الشخصية المصرية من المفروض أن ينطبق على الأغلبية المجتمع المصرى، وليس على الناس فى الطبقتين الوسطى والراقية والمثقفين منهم بصفة خاصة، الذين باعدت بهم ظروف تعليمهم وتطلعاتهم عن الخط العام الذى يسير فيه معظم المصريين» ومعنى ذلك أن هذا المفهوم ينطبق على الفلاح المصرى، هو يمثل أكثر من ثلاث أخماس سكان مصر.

وعلى ضوءهذه الاعتبارات يوجه عرت حجارى النقد لمحاولة حامد عمار فى صياغة مفهوم الشخصية الفهلوية وذلك على أساس أمرين: لولهما: اقتصاره على بعد واحد هو «الفهلوية» وبناء الصورة على أساسه، وثانيهما: تصوره لهذه الشخصية على أنها «المصرية» فى حين انها ليست شائعه الا بين أفرادالطبقة الوسطى فى حضر مصر، (وحضر مصر لايمثل أكثر من خمس سكانها).

ومن ناحية أخرى وجهت انتقادات لتطبيق صاق جلال العظم مفهوم «الشخصية الفهلوية» لتفسير الهزيمة العربية فى يونيو ١٩٦٧(٥).

يتناول هانى مندس فى عرضه النقدى الممتاز كتابى أديب منصور «النكسةوالخطأ» وصادق جلال العظم «النقد الذاتى بعد هزيمة». ومنذ البداية مما يؤخذ على هذا لعرض جمعه فى سلة واحدة بين هذين الكتابين اللذين لا يجمعهما فى الواقع رباط مشترك. فالأول محاولة نقدية رجعية للفكر الأشتراكى وتطبيقاته فى المجتمع العربى، لاتنطلق على هدى منهج علمى متماسك، والثانى يعد من أبرز الكتابات النقدية العلمية لهزيمة ١٩٦٧. وبالرغم من ذلك فقد احتوى عرض هانى مندس على انتقادات صحيحة لكتاب العظم وخصوصا فى استخدامه لمفهوم «الشخصية الفهلوية».

يرى «مندس» ان منهج العظم ينطوى على خطأ جسيم لأنه لم ينظر للمجتمع العربى نظرة ديناميكية»، فقد كان ذلك من شأنه النفاذ الى أغوار عمليات لتغيير الاجتماعى الواسعة المدى التى تأخذ مجراها فى بنيه المجتمع العربى. وأهمية ذلك المنهج تبدو فى أن المجتمع «ليس تصورا جامدا كليا، بل هو وليد النشاط المتبادل الذى يقوم به الناس». كما أن فى قلب كل مجتمع تتشكل عناصر مجتمع جديد، تبعا لتطور القوى المنتجة، وهذه العناصر الجديدة تحمل معها علاقاتها وأفكارها الجديد لتغير فى الثورة بعد تراكم طويل من النشاط السياسى والمعارك والعمل الثورى، والبناء الجوهرى لليحاه القديمة».

لكل هذا لا يوافق مندس على المنطلق الذى صدر عنه العظم فقد كان ينبغى فى رأية- حتى يكون نقده واقعيا ملموسا «أن ينطلق من المعطيات التاريخية والعلاقات الانتاجية والقوى الطبقية وأفرازاتها الايديولوجية والسياسة والفكرية على أرضنا العربية»، ويرى أيضا أن العظم لكونه حاول أن يحصر الأسباب التى قادت العرب الى الفشل فى معركتهم عام ١٩٦٧ مع اسرائيل تحت بضع مقولات مثل «النمط التقليدى للحياه العربية» و«الشخصية الفهلوية» فإنه لم يتمكن من تفسير مظاهر الحياة الفكرية المحافظة- التى حللها بذكاء تفسيرا علميا جدليا ليكشف بوضوح عن القوانين الطبقة والايديولوجية التى قادت الهزيمة.

لقد تحدث العظم عن سمة من سمات «الشخصية الفهلوية» وهى ازاحة مسؤولية الهزيمة عن النفس ويتساءل هانى مندى «نريد أن نتساءل من الذى حاول بالتحديد ازاحة مسؤولية الهزيمة عن النفس؟ هل هى «طبيعية» ثابتة من خصائص الانسان عموما؟ أم هى الطبيعة الطبقية والأيديولوجية للأنظمة العربية التى روجت مثل هذه الادعاءات لتبرير الهزيمة؟».

ويقرر هانى مندس أن التحليل الذى يقوم على أساس مفهوم الشخصية الفهلوية، قد يعبر عن حقيقة واقعية، ولكنه لا يوافق العظم اطلاقا على أن هذه الصفات «ترتبط بعوامل أساسية تدخل فى بنيان المجتمع العربى التقليدى ولا تنفصل عن خصائص الشخصية المتوارثة فى كل واحد وتنميها فيه» بل يرى «أن هذه الصفات «الفهلوية» هى، بالدرجة الأولى، من خصائص الطبقة

البورجوازية الصغيرة المتذبذبة والطبقة البورجوازية البيروقراطية الجديدة التي لم تتحدد بعد معالمها الطبقسة تحديدا نهائيا».

وعلى ضوء ذلك كله يرفض هاني مندس تفسير العظم لصفات الشخصية الفهلوية الذى هو تفسير سيكلوجى اجتماعى مجرد، وذلك لأنه لا يمكن أن ننسب أسباب الهزيمة والفشل الى مجموعة من المقولات الثابتة عن المجتمع العربى «كالتقاليد» و «الاتباع» و «الفهلوية» . . الخ فهذه افراز للوضع التاريخى ولمجموعة العلاقات الانتاجية والقوى الطبقية المهيمنة داخل النظام السياسى وليس العكس».

على ضوء انتقادات عزت حجازى لمفهوم « الشخصية الفهلوية» وانتقادات هانى مندس لمحاولة العظم استخدامه لتفسير الهزيمة العربية فى يونيو ١٩٦٧ يمكن أن نخلص الى النتائج الأتية:

١- مفهوم «الشخصية الفهلوية» اذا نظرنا بوجه خاص للمجتمع المصرى قد ينطبق على أفراد «الطبقة الوسطى» فى حضر مصر، غير أنه لا ينطبق على غالبية الشعب المصرى وهم الفلاحون. وبالتالى فهو مفهوم يقصر عن أن يكون شاملا للسمات «المنواليةش للمصريين، التى ينبغى البحث عنها وتحديدها بين سكان الريف المصرى، الذين يشكلون غالبية الشعب المصرى.

٢- كثيرا من السمات السلبية المكونة لنمط «الشخصية الفهلوية» كما استخدمة العظم فى تحليلاته، لا ترد فى الواقع الى سمات ثابته فى المجتمع العربى أو خصال محدود فى الطابع القومى العرب، بقدر ما هى خصائص لطبقة البورجوازية الصغيرة المتذبذبة والطبقة البورجوازية البيروقراطية الجديدة.

ومعنى ذلك كله أننا على غرار التمييز- الذى يقيمة علماء السياسة بين الثقافة السياسية للصفوة والثقافة السياسية للمجاهير، نستطيع أن نميز فى مجال الحديث عن الشخصية القومية، بين الأقلية والأغلبية، سواء كانت هذه الأقلية هى الطبقات الحضرية، فى مقابل الأغلبية التى هى الطبقات الريفية (اذا قصرنا الحديث عن المجتمع المصرى)، أى أن التمييز هنا يتم على أساس والحضر والريف، أو كانت هذه الأقلية هى الطبقات البورجوازية الصغيرة والبورجوازية البيروقراطية التى تمثل الطبقات الحاكمة (اذا تحدثنا عن المجتمع العربى فى عمومه) فى مقابل الأغلبية التى يضم الطبقات البروليتاريه والفلاحين.

وأهمية هذه الفروق التى ينبغى أن توضع بين الأقلية والأغلبية، ان كثيرا من السمات النفسية والاجتماعية التى تتسم بها الأقلية الحاكمة غالبا ما تسحب بورة غير منطقية- على الأغلبية فى حين أنه عند الحديث عن الشخصية القومية اذا أخذنا مفهوم الشخصية المنوالية- ينبغى التركيز على الأغلبية لا على الأقلية(٦).

وهكذا يمكن القول أنه اذا أخذنا هذه الانتقادات فى الاعتبار، فإنه يمكننا أن نضع مفهوم «الشخصية الفهلوية» وكذلك تطبيقاته فى تفسير الهزيمة العربية فى يونيو ١٩٦٧ موضعه الصحيح.

البحوث الميدانية :

غير أنه بالاضافة الى المحاولات التأملية لتحليل الشخصية العربية وتفسير الهزيمة العربية على أساسه، هناك كما سبق أن أشرنا بحوث ميدانية حاولت دراسة أسباب نزوح الفلسطينيين من

الضفة الغربية بعد عدوان ١٩٦٧ • بحوث «بركات» و«ضود» و«أميره حبيبى» ورلبط بين النزوح وبعض سمات الشخصية العربية، ومن أهم هذه السمات:

– الاتباط الوثيق للعربى بعائلته، الذى قد يصل لحد عدم الاهتمام بمصلحة ال المجتمع ككل.

–والحوف المفرط من الاعتداء على الاعراض.

وغنى عن البيان أن صغر حجم عينات هذه البحوث، لا يسمح بتعميم نتائجها بأى صورة على الشخصية القومية العربية. بالإضافة الى أن هذا التحليل الذى توصل اليه بركات وضود من ناحية، وأميره حبيبى من ناحية أخرى لا ينبغى أن ينصب على الشخصية القومية العربى، بقدر ما يجوز انطباقة على طرف محدد بالغ التحديد، وهو سلوك مجموعة من السكان العرب الامنين فى مناخ تتوافر فيه كل شروط «النكبة» كما يعرفها علم الاجتماع وبالتالى لا يمكن التعميم من «السلوك أثناء النكبة» على سلوك العربى ككل.

وفى رأينا ان الارتباط الوثيق للعربى بعائلتة ليس علامة ضعف فى خلقة القومى، بقدر ما هو من العلامات الايجابية فى الشخصية القومية العربية(٧) فاحساس الفرد العربى بانه لا يعيش لنفسه فقط. وإنما يدين بالولاء العميق ويشعر بالالتزام ازاء عائلته لهو علامة على تغلب الروح الجماعية، لا الروح الفردية المفرطة التى تميز الفرد روح فى المجتمعات الرأسمالية الغربية، فى هذه المجتمعات حيث تسود المنافسة، وحيث يحكم شعار «البقاء للأقوى»، ليس هناك

منفذ أمام الفرد سوى أن يحارب معركته فى الحياة بمفرده، مركزا على النجاح المادى، باعتباره يمثل القيمة العليا فى سلم القيم فى هذه المجتمعات، ومن هنا فهو غالبا ما يقطع أواصر علاقاته العائلية، ولا يشعر بالالتزام الا أمام عائلته الفردية الصغيرة.

وعلى عكس ذلك العربى الذى مازال يحس بأهمية الارتباط بعائلته الأصلية والمشكلة فى حقيقة أمرها، أنه ليس هناك تعارض بين ولاء العربى لعائلته وارتباطه بها، وبين احساسة العميق بالمواطنية، وانتمائة الأشمل لمجتمعة وأمته.

فاذا توفرت فى المجتمع التنظيمات السياسية الاجتماعية التى تربط الفرد العربى ربطا وثيقا بأهداف قومية، فى ظل ايديولوجية متبلورة ومحددة، نجد الفرد العربى بتنظيم فى هذه المؤسسات ويمارس سلوكا اجتماعيا ايجابيا لاتشوية أى شائبة ولا تؤثرة فيه ارتباطاته العميقة بعائلته(٨).

وخلاصة ما نريد أن نؤكد عليه فى ختام تقييمنا للمفهوم العربى عن الشخصية العربية، أن المحاولات التأملية وكذلك البحوث الميدانية فى هذا الموضوع، لم تستتع أن تضع يدها على الملامح والقسمات الحقيقة للشخصية العربية، فى هذه المرحلة الحاسمة التى يمر بها المجتمع العربى، والتى تترك أصداء بالغة العمق على نفسية الانسان العربى، الذى يصارع فى جهتين فى نفس الوقت: القضاء على التخلف بكل صورة، ومجابهة التحدى الاسرائيلى.

الفصل الثامن

الشخصية العربية بين الثبات والتغير

لعل السؤال الذى يفرض نفسه الآن، بعد هذه الجولة الطويلة التى حاولنا فيها تحديد معالم الشخصية العربية من خلال الكتابات الاسرائيلية والعربية التى حاولت تفسير أسباب هزيمة ١٩٦٧، من وجهة النظر الحضارية والاجتماعية هو: ترى ما الذى يجمع أو يفرق بين المفهوم الاسرائيلى للشخصية العربية وبين المفهوم العربى؟

١- فنبدأ أولا ببيان ما يفرق بين المفهوم الاسرائيلى والمفهوم العربى للشخصية العربية.

لعل أهم فارق، أن المفهوم الاسرائيلى للشخصية العربية، إذا ما نظرنا بوجه خاص لتحليلات العلماء الاجتماعيين الاسرئيليين عن الشخصية العربية تنطلق فى غالبتها العظمى من منظور للتشوية المتعمد لسمات هذه الشخصية وذلك خدمة لاهداف الصفوة الحاكمة الاسرائيلية التى تتركز فى العدوان المستمر ضد البلاد العربية وضم المزيد من الأراضى العربية، تحقيقا لمطامع الحكم الصهيونى. اظهار العربى باعتباره الأدنى والاسرائيلى باعتباره الزعلى، يسهل تحقيق كل هذه الأهداف فى نظر الرأى العام الغربى(١).

وهذا هو الذى أدى بهذه المحاولات الى التركيز على الجوانب السلبية فى الشخصية العربية، وطمس كل الجوانب الايجابية. بالاضافة التى التزييف العلمى الصريح، الذى يمثل فى ابتكار «شبة نظريات» خاصة عن العرب ومحاولة التدليل عل صدقها باصطناع الأسلوب العلمى مثل نظرية سان العرب كاذبون بالطبيعة»، أو «نظرية العداوة الطليقة» التى تسود المجتمع العربى، أو أخيرا نظرية «الفردية المفرطة» التى يتسم بها العربى.

أما المفهوم العربى عن الشخصية العربية، وخصوصا ما تضمنته التحليلات الاجتماعية والحضارية التى كتبت بعد هزيمة ١٩٦٧، فقد انطلقت من منظور النقد الذاتى العنيف- الذى نتيجة لجسامه الهزيمة- كثيرا ماتجاوز عن الموضوعية العلمية، مما دا بأصحاب هذه التحليلات الى غض النظر عن الايجابيات فى الشخصية العربية، والتركيز تركيزا شديدا على السلبيات.

ويصل هذا الاتجاه الى قمته المتطرفة، حين يروج بعض الكتاب العرب لبعض الأفكار القومية السائدة عن العرب باعتبارها حقائق لا سبيل الى الطعن فى صحتها، مثل قول البعض أن «الفرد العربى حاليا (على وجه العموم) ضعيف الشخصية مما حولها الى ما يطلق عليه الباحوتن «أفكار قومية نمطية ذتيه auto- stereotypes أى الأفكار التى لا زساس لها والتى يسبغها أفراد شعب ما على أنفسهم!

وعلى ذلك ينبغى الحذر حين نرى اتفاقا ظاهرا بين بعض السمات التى ينسبها الباحثون الاسراذيليون للشخصية القومية، وتلك التى يسبغها الباحثون العرب على الشخصية العربية، فالغرض من المحاولات الاسرائيلية كما قلنا، هو التشوية المتعمد للشخصية العربية، فى حين أن الهدف من المحاولات العربية هو النقد الذاتى الذى تجاوز القصد فى أحيان عديدة.

٢- ومن ناحية ثانية، هناك من وجهة أسلوب التحليل اتفاق بين المحاولات الاسرئيلية والمحاولات العربية، ويظهر هذا الأتفاق أساسا فى كون زغلب هذه المحاولات لاتخرج عن كونها محاولات تأملية،

تفتقر الى الشروط التى ينبغى توافرها فى البحوث العلمية بالمعنى. الدقيق لهذه الكلمة.

وهذه المحاولات فى الواقع تزدحم بالتعميمات الجارفة، عن الشخصية القومية العربية، بغير سند من الوقائع المحققة، وبدون الاستناد الى بحوث ميدانية تعتمد فى جمع بياناتها على عينات قومية، ومن هنا من الميسور رفض الغالبية العظمى من هذه التحليلات، وأقصى ما يمكن أن تقدمه لا يعدو مجموعة متنوعة من الفروض، التى ينبغى أن تجرى سلسلة ممتدة من البحوث الميدانية للتحقيق من صحتها.

كل ذلك بالاضافة الى أن كثيرا من هذه المحاولات سواء ، منها الاسرائيليةأو العربية- قد فشلت فى التمييز بين السمات التى ترد الى ظروف مجتمعية أو الى مواقف عارضة، كفشل الصفوة السياسية فى حشد الشعب للمعركة، أو الانهيار المفاجى فى ميدان القتال، نتيجة لاضطراب القيادات العسكرية، وفشلها فى ادراة المعركة باستخدام الحد الأدنى الضرورى من المهارات اللازمة لذلك، وبين السمات الأصلية التى تميز الشخصية القومية.

وإذا أردنا فى خاتمة بحثنا أن نتخذ موقفا نهائيا من مشكلة الشخصية القومية فان امامنا أحد طريقتين:

١- اما أن ننضم الى فريق الباحثين الذين يرفضون هذا المفهوم تمامنا ولا يقبلون شرعية استخدامه فى البحوث العلمية الاجتماعية. على أساس أن هذا الميدان مثقل بالتحيزات الأيديولوجية، ومزدحم بمحاولات التشوية المتعمدة لبعض الشعوب

ناحية، ومحاولات التمجيد غير المبرر لبعض الشعوب الأخرى من ناحية ثانية.

٢- واما أن نقبل استخدام هذا المفهوم على أساس نفعه واسهامه فى القاء الأضواء على مكونات وسمات الشخصية القومية، على أن يحاط هذا الاستخدام بكل الضمانات العلمية التى تكفل عدم التورط فى تبنى تعميمات يسندها أساس من الوقائع الملاحظة.

والوقاع أننا نميل الى تبنى الموقف الثانى- كما فصلنا ذلك فى الفصل الثانى من البحث-ونعنى قبولنا لاستخدام المفهوم فى اطار قواعد البحث العلمى المتعارف عليها، وأن كنا ندرك ان الالتزام بتطبيق هذه القواعد فى مجال دراسات وبحوث الشخصية القوميةليس مطلبا هينا ولا ميسورا فصحة التحليلات التى تقدم عن سمات الشخصية القومية لشعب ما، لا يحدد محكاتها، سوى المقارنه المقننة مع سمات الشخصية القومية لشعوب أخرى. وهذا هو رزى عالم النفس الانجليزى المعروف «ايزيك» الذى قرر أنه فى فيبة مسوح حضارية يصبح الحديث فى هذا المجال لغوا. ومن المعروف ان اجراء هذه البحوث الحضارية المقارنة cross- Cultural Survey ليس سهلا فى جميع الأوقات.

غير أنه ينبغى علينا اننثير القضية الأساسية التى تتعلق بالشخصة القومية العربية.

على افتراض اننا قبلنا بعض الفروض الواردة سواء فى التحليلات الاسرائيلية أو التحليلات العربية عن السمات السلبية للشخصية القومية العربية، فإن السؤال الأهم هو:

ما هى امكانية تغير الشخصية القومية فى الأجل المتوسط؟

تختلف اجابات العلماء الاجتماعيون بصدد هذا السؤال النظرى الجوهرى ويمكننا على ضوء استقراء التراث القول بأن الذى يهيمن على هذا الموضوع ثلاثة تفسيرات أساسية يمكنان نطلق على الزول التفسير الميتافيزيقى، وعلى الثانى التفسير الميكانيكى، وعلى الاخير التفسير الواقعى.

التفسير الميتافيزيقى يذهب انصاره الى أن الشخصية القومية ظاهرة تاريخية اجتماعية حضارية، تترسب وتتكون عبر أجيال طويلة، ولذلك فلكى تتغير فلابد من أجيال كاملة. وقد يتعللون هنا بما يطلقون عليه «قوانين التشريط السيكلوجى» أو «قوانين الختم الحضارى» أو ما شابه ذلك من مصطلحات.

أما التفسير الميكيانيكى فهو الذى يتصور أنصاره أنه ما أن يتعير المجتمع تغيرا ثوريا جذريا حتى يفتح الباب نحو التغير الفورى فى الشخصية القومية(٢).

ويبقى أخيرا التفسير الواقعى اغلذى لا يتطرف الى حد الزعم بضرورة الانتظار أجيالا طويلة تماثل الأجيال التى ترسب فيها قواعد الشخصية القومية، (وكأن هذه الشخصية القومية ثابتة لا تتغير، ومتصلة لا تنقطع!) أو يميل الى حد التهوين من صعوبات تغيير الشخصية القومية، فيتصور أنه يمكن للسلبيات فى الشخصية القومية أن تتحول فى فترة وجيزة الى ايجابيات، اذا ماتم التغيير الثورى الجذرى فى المجتمع.

بعض أنصار هذا التفسير الواقعى يقررون انه يمكن أن تتغير

الملامح الرئيسية للشخصية القومية فى جيل واحد (حوالى ربع قرن) ويبرورن ذلك بضرورة نشأة جيل جديد تماما فى ظل ظروف حضارية واجتماعية مختلفة(٣).

وفى يقييننا أن هذا المفهوم الواقعى أقرب ما يكون الى الحقيقة، بشرط أن نضع فى اعتبارنا ان التغيير الجوهرى للشخصية القومية، يحتاج الى «بوتقة صهر ثورية» ان صح التعبير بما تتضمنة من أيديولوجية تقامية وصفوة سياسية قادرة ومتجردة، وتجربة متسقة منتظمة، صاعدا أبدا، مهما اعتور طريقها من صعوبات لا تعرف الاضراب ولا الضعف ولا الوهن، محددة أهدافها، بصيرة بوسلئها، واثقة من انتصار الانسان.

ان تجارب من الشعوب المناضلة يمكن أن تكون الهاما للشعب العربى فى مسيرته الشاقة للقضاء على التخلف، ولتثبيت الاستقلال ولضمان السيادة القومية، ولمجابهة التحدى الاسرائيلى.

خلاصة

عرفنا فى الصفحات السابقة للمتغير الأول من المتغيرات الاساسية التى اعتمدت عليها التحليلات الاجتماعية فى تفسير الهزيمة العربية فى يونيو سنه ١٩٦٧، ونعنى سمات الشخصية القومية العربية.

غير أنه بالإضافة الى ذلك، تضمنت هذه التحليلات الاشارة الى متغيرين أخرين هما: سمات المجتمع العربى، ومشكلة تحديث المجتمع العربى(٤).

وبالنسبة لسمات المجتمع العربى نجد الكتابات الاسرائيلية تركز

على تحديد القوى والفئات والعوامل الاجتماعية التى يمكن أن يؤدى سلوكها وفعهل الى أن يتصالح المجتمع العربى مع المجتمع الاسرائيلى. فى حين نجد الكتابات العربية تركز على تشخيص أسباب الهزيمة ورسم طرق تجاوزها من خلال الأيديولوجيات العربية المتصارعة.

أما فيما يتعلق بمشكلة تحديث العالم العربى، فنجد الكتاب الاسرائيليين يتبنون ما يطلق عليه «فرض التحديث» لتفسير الصراع العربى الاسراذيلى ويعنون بذلك أن سببا رئيسيا من زسباب الصراع هو «تقدم» المجتمع الاسرائيلى و«تخلف المجتمع العربى» ، وأنه لو أتيح للعالم العربى أن يتقدم، فإن حدة الصراع العربى الاسرائيلى ستتلاشى. غير أن الكتاب العرب ينظرون لقضية «التحديث» أو ضرورة انشاء سالدولة العصرية» من زواية مضادة تماما للتصور الاسرائيلى، فهم يرون أن الوصول الى انشاء الدولة العصرية، من شأنه اتاحة الفرصة أمام المجتمع العربى لكى يجابه التحدى الاسرائيلى. هذه هى الموضوعات الأساسية التى سنحاول معالجتها بالتفصيل فى بحث أخر، نأمل أن يرى النور فى المستقبل القريب.

الفصل التاسع

الشخصية العربية
كما تجلت فى أزمة الخليج

- مقدمة
- خطاب المثقفين فى مواجهة الازمة
- مشكلة الانا والأخر فى العلاقات العربية
- منهج التفكير السياسى العربى
- التحليل الثقافى للقيم السائدة فى المجتمع العربى
- مشروع الوحده العربية: العرب والعالم
- البعد الاعلامى فى حرب الخليج احتكار الصور وأغتصاب اللغة

مقدمة :

نعتبر أن تطبيق منهج التحليل الثقافى الذى تجاهلناه طويلا فى دراسة المجتمع العربى، هو نقطة البداية فى دراسة السلوك السياسى والاجتماعى والاقتصادى كما مورس اثناء أزمة الخليج، وكذلك فى تحليل الاثار التى ترتبت على الحرب، وذلك على مستوى السلطة والمثقفين والجماهير.

وهذا المنهج يركز على دراسة رؤى العالم السائدة فى مجتمع معين، وعلى تحليل الادراكات والتصورات والصور النمطية عن النفس وعن الآخرين وعلى القيم السائدة، وعلى نوعية الخطابات السياسية المتصارعة فى المجتمع، مع تركيز خاص على اللغة باعتبارها معبرة برموزها عن الشبكة المعقدة للقيم والمعايير التى تؤثر على السلوك الاجتماعى والسياسى فى التحليل الاجتماعى.

وإذا انطلقنا فى تطبيق منهج التحليل الثقافى، من واقع دراسة ممارسات السلطة والمثقفين والجماهير فى أزمة الخليج، فانه يمكننا اثارة عدد من الموضوعات الاساسية التى تستحق البحث والتحليل، ليس فى ندوة واحدة أوْ عدة ندوات، بل أنها ينبغى أن تكون على أجندة البحث فى مراكز البحوث العربية المتخصصة، ولدى المثقفين القوميين العرب المعنيين بقضية الوحدة العربية. وهذه الموضوعات تتركز فى خمسة مشاكل : خطاب المثقفين فى مواجهة الأزمة، مشكلة الأنا والآخر فى العلاقات العربية، ومنهج التفكير السياسى العربى، والتحليل الثقافى للقيم السائدة فى المجتمع العربى، والعلاقة بين الوطن العربى والعالم.

أولا : خطاب المثقفين فى مواجهة الأزمة

ليس هناك من شك فى أن المثقفين العرب كانوا طليعة أمتهم منذ بداية النهضة العربية حتى اليوم. لقد بدأ دورهم التنويرى العظيم حين واجهوا السؤال الرئيسى : كيف نقضى على اسباب التخلف العربى، وكيف نكتب أدوات التقدم الغربى؟

وكان ذلك يقتضى القيام بعملية فكرية مزدوجة : تقديم تحليل نقدى لتجربة الغرب من ناحية، وتشخيص لاسباب التخلف العربى من ناحية أخرى. وقد قام بهذه العملية الفكرية الكبرى مجموعة من الرواد العظام لعل أبرزهم رفاعه الطهطاوى وخير الدين التونسى.

غير أن هذا الدور الفكرى البارز، كان مجرد المقدمة التى أفسحت مكاننا اساسيا للمثقفين العرب لكى يتصدروا الثورات العربية التى هدفت أولا إلى استخلاص العروبة من براثن الحكم العثمانى، وصوبت سهامها ثانيا للنضال ضد الاستعمار الغربى والهيمنة الاجنبية. وقامت أجيال تلو أجيال من المثقفين العرب فى كل اقاليم الوطن العربى بالنضال بالقلم والبندقية معا. خلال مسيرة نضالية طويلة، كانوا هم طليعة أمتهم، المنادين بالاستقلال والحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، والاصالة الحضارية.

وها نحن اليوم وفى غمار أزمة الخليج بكل تعقيداتها العالمية والاقليمية والمحلية. نشهد المثقفين العرب، يواصلون أداء دورهم، ولكن فى سياق أكثر تعقيدا، تختلط فيه القومية بالقطرية، ويتشابك

فيه المنهج الثورى فى التغيير مع النظرة الاصلاحية، ويتعقد فيه الدور النقدى التقليدى للمثقف العربى. نتيجة للقهر السياسى الذى يحد من الحرية الفكرية للمثقف، وبالاغراء المالى من قبل بعض الانظمة، وقد أدت كل هذه العوامل إلى انقسام المثقفين العرب انقساما واضحا فى تناولهم لازمة الخليج وفى اتجاهاتهم المعلنة أزاء مختلف السياسات والمواقف والقضايا التى أثارتها.

لقد مر وقت كاف على الازمة، ظهر فيها وتبلور مايمكن أن نطلق عليه خطاب المثقفين ازاء الأزمة، الذى يستحق أن نتأمله على حده، وذلك بالإضافة إلى خطاب السلطة الذى يكشف أيضا عن انقسام واضح بين الأنظمة العربية واتجاهاتها وسلوكها فى الأزمة، والذى ظهر فى ثلاثة مواقف متمايزة : الانحياز الكامل مع العراق، والانحياز الكامل مع الكويت، والموقف الوسطى الذى يحاول انصاره التوازن المتحرك فى سياق لايسمح بطبيعته بأنصاف الحلول. ويمكن القول أن خطاب المثقفين العرب فى الازمة، لو نظرنا إليه باعتباره نصا واحدا - لغرض التحليل - لوجدناه يتسم بالسمات التالية :

١- اتخاذ بعض المثقفين سواء ممن أيدوا العراق، أو ممن وقفوا بجانب الكويت أسلوبا عاطفيا صارخا فى الدفاع عن مواقفهم، يفتقر إلى الحد الأدنى من العقلانية. وكان شعار الواحد منهم الذى رفعه طول الوقت أنصر أخالك ظالما أو مظلوما.

٢- تطور مواقف بعض المثقفين مع تصاعد الأزمة وبروز تعقيداتها، ودخول عناصر جديدة اليها، فبعض المثقفين ممن أدانوا

غزو الكويت فى البداية عادوا لمراجعة موقفهم بعد دخول القوات الأجنبية الى السعودية، وأصبحت القضية المحورية بالنسبة لهم هو الكفاح ضد التواجد الاجنبى على الأرض العربية، باعتبارها هى المشكلة الملحة.

٣- انطلق معظم خطاب المثقفين العرب من مسلمة مبناها انك أما أن تكون مع العراق على طول الخط، أو مع الكويت على طول الخط، ومثل ذلك تبسيطا مخلا لرؤية الواقع. ذلك أن الأزمة اثارت قضايا سياسية وفكرية واستراتيجية معقدة. من الصعب للغاية حصرها فى خانة الابيض أو فى خانة الاسود وبالتالى حرم هؤلاء المثقفين أنفسهم من التحليل النقدى للازمة والذى من شأنه أن يبرر سلبيات وأيجابيات سلوك كل طرف من الازمة.

٤- اتسم خطاب المثقفين العرب بكونه خليطا من مناقشة الاساسيات فى السياسة العربية (الوحدة العربية مثلا وكيف تتحقق هل بالديمقراطية أم بالقوة العسكرية، وقضية أولوية قضية الوحدة على قضية الديمقراطية)، وتحليل الاخر وسياساته وأهدافه (ونعنى موضوعات الهيمنة الامبريالية، والتدخل الاجنبى، ومزاعم النظام العالمى الجديد). والنظر إلى الاوضاع الاجتماعية والسياسية الراهنة فى الوطن العربى (الحدود المصطنعة التى خلقها الاستعمار، وهشاشة الدول الخليجية وافتقادها لأساسيات الدولة) وأخيرا محاولة النظر للمستقبل، سواء مستقبل الوطن العربى أو مستقبل المجابهة أو التفاعل بين النظام العربى والنظام العالمى.

٥- وسمة أخرى تتمثل فى التبعية المطلقة لبعض المثقفين

لمواقف السلطة، سواء كانت السلطة العراقية أم السلطة الكويتية أم السلطة السعودية (وينطبق ذلك على تبعية بعضهم للسلطة المصرية أو السورية).

وخطورة هذا الموقف أن يتحول المثقف إلى مجرد مبرر لمواقف السلطة، وهو لذلك مستعد لتغيير موقفه اذا ماغيرت السلطة موقفها. فالمثقفين الذين أيدوا السلطة العراقية فى غزوها للكويت. ثم فى ضمها بعد ذلك للعراق وابتدعوا النظريات المختلفة لتبرير هذا الضم، سواء فى حديثهم عن أولوية الوحدة العربية ولو تم تحقيقها بالقوة العسكرية، أو فى تعرضهم لهشاشة الدولة الكويتية، أو فى اثارتهم لقضية الحق التاريخى، هم انفسهم الذين أيدوا العراق فى مبادرته السلمية، والتى جوهرها الانسحاب من الكويت. لدى هؤلاء البعض موقف السلطة - أيا كان ومهما تغير - هو الصحيح. ومن ناحية أخرى فالمثقفون الذن أيدوا عملية تحرير الكويت. باعتبارها هى هدف التدخل الاجنبى، هم انفسهم الذين صمتوا صمتا مريبا فيما يتعلق بتحول العملية إلى تدمير شامل للقوة العراقية الاقتصادية والاجتماعية، بما يتجاوز قرارات مجلس الأمن ويغض النظر عن هيمنة الولايات المتحدة الامريكية على عملية اصدارها. وهم أنفسهم الذين لم يؤيدوا بطريقة واضحة المبادرة العراقية السوفيتية والتى تنص على الانسحاب العراقى من الكويت.

٦- وتلزمنا الأمانة أن نسجل مواقف المثقفين العرب الذين لم ينساقوا إلى مزلق التبعية للسلطة، وانما جهروا بآرائهم ضد اختيارات السلطة كتابة وحديثا وسلوكا، ونشير هنا إلى مواقف

بعض المثقفين المصريين والمغاربة والتونسيين وخصوصا فى احزاب المعارضة.

٧- ولوحظ أيضا فى بعض الأقطار العربية أن عمق التيار الشعبى المؤيد للعراق. جرف فى طريقه بعض المثقفين الذين لم يتجاسروا على ممارسة التحليل النقدى للازمة، بما قد يؤدى إليه من صياغة ونشر افكار قد تتعارض مع هذا التيار الشعبى.

وهذه الملاحظة تثير مشكلة عامة مفادها هل دور المثقف الانسياق وراء المشاعر الجماهيرية مهما كانت عقلانيتها، أم دوره محاولة طرح الاراء من منظور نقدى حتى لو خالفت الاتجاهات الشعبية؟

فى تقديرنا أن هذه السمات الأساسية لخطاب المثقفين العرب فى مواجهة الازمة. تثير مجموعة متنوعة من المشكلات البالغة الأهمية التى تتعلق بدور المثقفين العرب فى تطوير وتحديث المجتمع العربى.

⊙ ولعل أبرز هذه المشكلات هى **علاقة المثقفين بالسلطة**. هذا موضوع تقليدى كثر فيه النقاش والجدل على المستوى العالمى وعلى الصعيد العربى على السواء. غير أنه لو تأملنا مسيرة المثقفين العرب خلال العقود القليلة الماضية، فمن السهل علينا أن نرصد مجموعة من الظواهر البارزة أهمها على الاطلاق وقوع المثقف العربى بين المطرقة والسندان، ونعنى على وجه التحديد بين الوطأة الشديدة للقمع السياسى المباشر، الذى قد يدفعه الى الصمت، أو إلى الهجرة، أو للنضال فى ظل سياق استبدادى تهدر فيه حقوق الإنسان بالكامل وبلا أى ضمانات قانونية، وبين الاغراء المالى الذى

أجازت استثماره بعض النظم الغربية، وخصوصا فى سنوات الحقبة النفطية، والتى سمحت بشراء عديد من الأقلام، بصورة مباشرة وغير مباشرة، مما أثر تأثيرا سلبيا على قيام المثقف العربى بدوره النقدى.

٠ والمشكلة الثانية هى توزع المثقفين العرب بين أنصار المنهج الثورى فى تغيير المجتمع العربى، ودعاة المنهج الاصلاحى. وقد أدت عوامل عديدة عالمية وأقليمية إلى انحسار معكسر دعاة المنهج الثورى، نتيجة لانهيار التجربة الاشتراكية الشمولية فى الاتحاد السوفيتى وبلاد أوروبا الشرقية، وللانتكاسة الواضحة لمسيرة الخطاب الثورى العربى فى العقود الأخيرة، سواء فى مجال الاصلاح الداخلى أو فى المواجهة مع اسرائيل العدو التقليدى للامة العربية.

وفى هذا السياق اكتسب دعاة المنهج الاصلاحى أرضا واسعة، وانطلقوا للتبشير بأهمية التصالح مع اسرائيل من خلال مفاوضات سلمية، وفى اطار التهاون مع النظام العالمى، وتبنى لغته وخصوصا فى أهمية تبنى الحلول الوسط، والتخلى عن النضال الثورى أسلوبا للحصول على الحقوق المشروعة.

ومن ناحية أخرى الدعوة للمنهج الاصلاحى فى الاطار الداخلى فى كل قطر، والقبول بالمنح الديمقراطية التى يعطيها النظام السياسى بالتدرج، ومحاولة العمل السياسى فى ظل أطر سلطوية وباستخدام الاساليب الديمقراطية المقيدة. أما فى المجال العربى، فالدعوة هنا تتمثل فى ضرورة التركيز على الحوار والتراضى والحث والاقناع، وفى مجال العمل العربى المشترك، ونبذ كافة

الاساليب الثورية التى كانت متبعة منذ عقود مضت، فيما يتعلق بقضية الوحدة، وعدالة توزيع الثروة العربية، والموقف من المعسكر الغربى.

والمشكلة الثالثة هى **اسلوب المثقفين العرب فى التعبير عن قناعاتهم وأرائهم**. وقد لاحظنا سيادة العاطفية والخطابية فى خطاب المثقفين ازاء الأزمة، وندرة التحليلات النقدية الموضوعية مع أهميتها القصوى، بالاضافة إلى عودة بعضهم مرة أخرى فى تصوير العلاقات مع الغرب باعتبارها حربا صليبية مستمرة.ومن هنا يمكن القول أن مشكلة المنهج الفكرى الذى يتبناه المثقفين العرب يحتاج إلى تحليل نقدى، بالاضافة إلى نظرياتهم عن الاخر وخطورة الوقوع فى أسر الصور النمطية القديمة عن الغرب. بعبارة أخرى ضرورة مناقشة كيف نتعامل مع الغرب، ومن أى منطلق، هل من منطلق المجابهة المستمرة والصرا مع، أو من منطلق التعاون المتكافئ والحوار الفعال، فى ضوء منهج نقدى يضع يده على أهداف ووسائل مايطلق عليه النظام العالمى الجديد وكيفية مواجهته بفعالية وكفاءة.

والمشكلة الرابعة هى **علاقة المثقفين العرب بالجماهير**. ونعلم جميعا أن هناك مناقشات علمية تقليدية حول هذه العلاقة. كما أنه توجد انماط معروفة وشهيرة. ولعل أبرزها صورة المثقف المنعزل عن الجماهير والذى يصوغ أفكاره بعيدا عن نبضها الحى، أما من باب التعالى الفكرى، أو بسبب العجز عن التواصل معها، أو الخوف من مشاعرها الجارفة فى بعض الاحيان. وهناك أيضا المثقف العضوى (بتعبيرات المفكر والمناضل الايطالى المعروف جرامشتى الذى يجيد التلاحم مع الجماهير ويعبر عنها).

أن هذه مشكلة بالغة الأهمية، لما لوحظ فى الحقبة الأخيرة من تغيير بعض المثقفين العرب لمواقفهم الايديولوجية المعلنة، وانضمامهم إلى بعض التيارات السياسية التى أصبحت لها جماهيرية واضحة فى السنوات الأخيرة، وأهمها التيار الاسلامى، لمجرد مجاراة الجماهير.

لقد برزت فى أزمة الخليج قضية علاقة المثقف بالجماهير بصورة واضحة. بكل ايجابياتها وسلبياتها، بصورة تدعو لدراستها وتحليلها.

ومعنى ذلك كله - اذا صوبنا عيوننا تجاه المستقبل - أن دور المثقفين فى المجتمع العربى يحتاج، فى ضوء ممارسة المثقفين الفعلية أثناء أزمة الخليج، إلى حوار نقدى يركز على مجموعة القضايا والمشكلات التى أشرنا إليها، وأهمها : علاقة المثقفين العرب بالسلطة، وعلاقتهم بالجماهير، وأسلوبهم فى التعبير عن أنفسهم، ومناهجهم فى الدعوة إلى التغيير الاجتماعى بين الثوريةوالاصلاحية، وتصوراتهم للعلاقة مع الآخر، ومع النظام العالمى الذى يهيمن عليه الغرب أساسا.ان هذا الحوار الذى ندعو إليه، والذى ترجو أن يساهم فيه جمهرة المثقفين العرب من كافة الاتجاهات السياسية، ينبغى أن يصدر عن رغبة أكيدة فى النقد الذاتى، وقدرة فكرية فى نقد الآخر، وهدف واضح ومحدد، هو تأكيد الدور الفاعل للمثقفين العرب فى تطوير المجتمع العربى، فهذه العملية التاريخية الكبرى - كما أثبتت الأحداث فى الماضى والحاضر - مهمة لايمكن ولايجوز أن تترك فقط لصانعى القرا رمن

السياسيين المحترفين. لأن صياغة المستقبل العربى ليس من حق أحد أيا كان أن يحتكرها، بل ينبغى أن تصنعه معا، حكاما ومثقفين وجماهير، من خلال النضال السياسى والثقافى الواعى، وفى سياق تسوده الديمقراطية الحقيقية.

ثانيا : مشكلة الانا والآخر فى العلاقات العربية

ونعنى أساسا المفهوم الذى يقدمه كل نظام سياسى عن نفسه، وعن الآخرين، على مستوى السلطة والمثقفين والجماهير. وعادة مايعطى النظام السياسى عن نفسه صورة بالغة الايجابية، تخفى كل السلبيات، وتبرز مايراه من ايجابيات، وفى نفس الوقت – وخصوصا فى فترات الصراع – يقدم صورة بالغة السلبية عن الاطراف الأخرى الداخلة معه فى صراع. ويكفى أن نشير هنا إلى الخطاب السياسى العراقى منذ بداية الأزمة والصورة التى قدمها عن نفسه باعتباره رائد القومية العربية والاسلام والعدالة الاجتماعية والاشتراكية والنضال ضد قوى الاستكبار العالمية، وفى نفس الوقت الصورة البالغة السلبية التى قدمها للنظام الكويتى، وللنظم الخليجية عموما، باعتبارها مجرد محصلة للخطة الاستعمارية فى تقسيم الوطن العربى، وبالتالى فهى كيانات هشة وهزيلة من الناحية الاجتماعية والسياسية، وهى أيضا تابعة للنظام الرأسمالى الأمريكى.

هذه الصورة النمطية للأنا وللآخر فى مجال العلاقات العربية لاتقتصر على قادة النظم السياسية، وانما تنتقل – للأسف – وفى

غيبة الديمقراطية وحرية التعبير التى تسمح بالنقد والتصحيح، إلى خطاب المثقفين، والذين غالبا – تحت وطأة القهر السياسى العنيف– مايكونون مثقفين مبررين للسلطة.

وهذه العملية الاجتماعية الواسعة المدى لتزييف الوعى القومى المعاصر، مردها اساسا إلى غياب المرجعية الاساسية المتفق عليها لتقيم اداء النظم السياسية. ففى ظل سيادة شعارات الثورة والاشتراكية والوحدة فى النظم الراديكالية غابت غيابا شبه كامل قيمة الديمقراطية واحترام حقوق الانسان. ولذلك لم يكن غريبا أن نجد بعض المثقفين العرب ممن اخذوا صف العراق. يبررون الغزو العراقى للكويت بأنه مشروع لأنه يتمثل فى تحقيق الهدف العربى الاسمى وهوالوحدة. حتى لو تمت بالقوة العسكرية، ولو تحققت بقهر الشعب الكويتى نفسه! ويتساءلون بسخرية، هل من الممكن للشعب الكويتى أن يتقدم بطريقة ديمقراطية بطلب الوحدة مع العراق، مع كل مايرقل فيه من خيرات جلبتها الثورة لنفطية؟

ومن هنا لابد من التشديد فى المرحلة المقبلة على المرجعية الاساسية للحكم على شرعية النظم السياسية وادائها. ولابد أن تكون قيم الديمقراطية والتعددية السياسية واحترام حقوق الانسان هى القيم الحاكمة فى التقييم. وتأتى بعد ذلك قيم العدالة الاجتماعية، والإيمان بتحقيق الوحدة العربية. والعمل على تحقيقها أيا كانت صورتها.

ونحن فى الواقع نحتاج – من أجل التحليل العلمى لمشكلة الانا والاخر فى العلاقات العربية – إلى أن ندرس ثلاثة أنواع من الخطابات :

١- ***خطاب السلطة*** : ويتم ذلك من خلال تحليل المواثيق المعلنة الأساسية للنظم السياسية العربية (الدساتير، المواثيق، الوثائق الحزبية للاحزاب الحاكمة) وللخطابات السياسية للحكام أيا كانوا ملوكا أو أمراء أم رؤساء جمهوريات، **وأهم من ذلك كله دراسة الممارسات السياسية للنظم بكل تناقضاتها وتغيراتها عبر الزمن،** وخصوصا فى مجال التحالفات الدائمة أو الوقتية والتحولات فيها.

٢- ***خطاب المثقفين*** : ويتم ذلك من خلال قراءة نقدية واعية للانتاج الفكرى الغربى المعاصر، وفق منهجية دقيقة تسمح برسم الخريطة الاساسية الفكرية في مرحلة أولى، مع تحديد التغيرات والتقلبات فى المواقف المعلنة للمثقفين فى مرحلة ثانية، لابراز ظاهرة ما أطلق عليه محمد عابد الجابرى «الترحال الثقافى»، ويقصد بها انتقال المثقف العربى من ايديولوجية إلى ايديولوجية أخرى مناقضة، أحيانا من خلال عملية تدريجية فقد تكشف عن نمو وتطور المشروع الفكرى للمثقف، وهو أمر مشروع، وأحيانا أخرى من خلال عملية انقلابية فجائية وغير مبررة، كتحول مثقف ماركسى عريق له تاريخ فى العمل الحزبى الشيوعى إلى مثقف اسلامى متطرف. أو تحول مثقف قومى عروبى إلى مثقف قطرى ينقد القومية العربية وينادى بالانكفاء على المصلحة الوطنية الضيقة. مثال ذلك موقف بعض المثقفين المصريين العروبيين عقب حرب اكتوبر ١٩٧٣ والذين من باب الدفاع عن معاهدة كامب ديفيد اندفعوا إلى رفع الشعار الشوفينى «مصر أولا»، بما يعينه ذلك أن تذهب العروبه إلى الجحيم، إذا ماتعارضت مع المصلحة المصرية.

وكذلك مانشهده الآن من تحولات بعض المثقفين الكويتين العروبيين عقب الغزو العراقى، واستعادة الكويت بما أعلنوه من كفرهم بالعروبة، وتصريحهم بأنهم يرغبون فى أن يكونوا تابعين للولايات المتحدة الأمريكية التى قادت التصدى للغزو العراقى وحررت لهم وطنهم.

٣- *خطاب الجماهير:* ونقصد بذلك الادراكات والتصورات والصور النمطية التى تكونها الجماهير فى الوطن العربى عن شعوب البلاد العربية المختلفة. وفى هذا المجال من الأهمية بمكان القيام بدراسات ميدانية مقارنة لمعرفة هذه الادراكات والصور النمطية.

وقد قمنا ببحث ميدانى واسع المدى فى اطار مركز دراسات الوحدة العربية فى بيروت حول اتجاهات الرأى العام العربى نحو مسألة الوحدة. وصممت استمارة طبقت فى ثلاثة عشر قطرا عربيا، وقد قام كاتب هذا البحث* بتحليل النتائج الخاصة بنظرة الجماهير العربية إلى نفسها وإلى الآخرين.

وهى دراسة رائدة تستحق أن تتابع من خلال استخدام نفس المنهجية، خصوصا بعد انتهاء حرب الخليج، بكل ماأحدثته من انقسامات واضحة بين النظم السياسية، والمثقفين، والجماهير العربية، وفى هذا المجال من الأهمية بمكان دراسة وتحليل السلوك الجماهيرى العربى أثناء الحرب، وعلى وجه الخصوص بحث ظاهرة

---

* انظر : السيد يسين، الشعب العربى، التفاعل الاجتماعى والصور القوية منشورة فى كتاب : ابراهيم، س، اتجاهات الرأى العام العربى نحو مسألة الوحدة، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، ط٣، ١٩٨٥، ٢٥٧-٢٨٢.

التأييد الجماهيرى الواسع المدى للخطاب السياسى للرئيس صدام حسين، وخصوصا جماهير الاردن والجماهير الفلسطينية فى الضفة الغربية وغزة. وفى الجزائر والمغرب وتونس والسودان واليمن، وبعض قطاعات الجماهير فى مصر وسوريا.

ان دراسة هذا السلوك الجماهيرى، ستكشف ليس فقط عن توحد الجماهير مع الشعارات التى رفعها الرئيس صدام حسين، بغض النظر عن جديته فى رفعها، أو عمله الحقيقى لتحقيقها. وأهمها تحدى الهيمنة الأمبريالية الأمريكية. وتحقيق الوحدة العربية، وعدالة توزيع الثروة العربية، واستقلال الارادة العربية. وستكشف الدراسة أيضا عن تبنى هذه الجماهير لصور بالغة السلبية عن النظام الكويتى، والمجتمع الكويتى والشعب الكويتى على وجه الخصوص، والشعوب الخليجية على وجه العموم.

لقد تم تبنى صور نمطية سلبية عن هذه النظم والمجتمعات والشعوب باعتبارها نظما مصطنعة (من صنع الاستعمار الانجليزى) وهى نظم عميلة للولايات المتحدة الأمريكية، وأنها مجتمعات مفككة اتخمتها الثروة التى تضن بها على التنمية العربية لرفع المستوى الاقتصادى والحياتى للجماهير العربية الفقيرة فى دول العسر العربية، وأنها شعوب كسولة لاتعمل ولاتنتج، وتعتمد على العمالة الاجنبية فى كل شئ، وأنهم كأفراد لاهم لهم إلا التمتع بالمال النفطى الحرام، واهداره على الملذات فى عواصم العالم المختلفة وفى هذا الاطار تغيب أى صور ايجابية - مهما كانت - من ادراك الجماهير العربية للشعب الكويتى أو الشعوب الخليجية. فالوقائع

الثابتة الخاصة باسهام النظام الكويتى والنظم الخليجية فى التنمية العربية لبلاد العسر، من خلال المساعدات المباشرة، والقروض والمنح والاستثمارات، يتم تجاهلها كليا، أو حين تثار يتعمد التقليل من اهميتها، على اساس انها لاتمثل شيئا كبيرا إذا ماقورنت بالاستثمارات الخليجية فى الاقطار الاجنبية، أو يتم التركيز على سلبيات سلوكا التعالى الخليجى فى التعامل مع الدول العربية الفقيرة.

وفهم السلوك الجماهيرى العربى لابد أن يوضع فى اطار أعم، أهم سماته سيطرة الاعلام الرسمى فى غالبية النظم السياسية العربية، وغياب الاصوات الأخرى المعارضة، وبالتالى انفتاح المجال واسعا أمام الأنظمة لتزييف الوعى الجماهيرى وفقا لسياسية اعلامية تابعة لتوجهات النظم السياسية، وعدم قدرة المواطن العربى العادى على معرفة الحقائق السياسية والاجتماعية والثقافية فى الاقطار العربية المختلفة، نتيجة ضعف ادوات الاتصال المستقلة التى تسمح له بتكوين وجهة نظر موضوعية، ووقوف الحواجز الجمركية العربية الراسخة أمام المنتجات الفكرية والثقافية العربية (تداول الجرائد العربية والكتب العربية) وقبل ذلك كله قيود الرقابة الصارمة التى تفرض فى كثير من الأحيان على هذه المنتجات، مما يؤدى فى النهاية إلى تكون وعى جماهيرى مشوه وقاصر.

ان الوعى الجماهيرى فى اطار الدولة العربية المستبدة يتشكل - إلى حد كبير - تحت تأثير النظم الاعلامية الرسمية، وان كان احيانا

يستطيع – بالحدس– ان يفلت من اطار هذا الحصار الاعلامى، ويعبر عن نفسه بصدق، وخصوصا فى أوقات الأزمات التى تلمس صميم عصب المشاعر القومية العربية، كما حدث فى السلوك الجماهيرى العربى اثناء العدوان الثلاثى على مصر بقيادة جمال عبد الناصر عام ١٩٥٦ ، أو كما حدث بالنسبة للسلوك الجماهيرى أثناء حرب الخليج. بالرغم من التفاوت الكبير فى السياق التاريخى لكل حرب منهما. وخصوصا من ناحية سبب الحرب، فى الحرب الأولى كان هو قرار تأميم قناة السويس، والذى كان من الممكن بسهولة للجماهير أن تؤيده باعتباره تعبيرا عن الكرامة الوطنية والرغبة فى تحرير الارادة العربية من الهيمنة الاجنبية. وفى الحرب الثانية كان السبب هو الغزو العراقى للكويت، والذى كان يمكن – لو لم تتدخل القوات الاجنبية – القياس الدقيق لاتجاهات الجماهير ازاءه.

غير أن التدخل الاجنبى هو الذى أثار فى المقام الأول الذاكرة السياسية لدى الجماهير، وخصوصا نضالاتها السابقة المجيدة ضد الاستعمار والهيمنة الاجنبية مما جعلها تركز على الوجود الاجنبى والنضال ضده. وفى نفس الوقت لاتثير سبب الحزب وهو الغزو العراقى لبلد عربى هو الكويت. وهذه الواقعة بذاتها، وتعنى عدوان قطر عربى قطر قطر عربى أخر. مهما كانت المبررات، هى التى أثارت البلبلة فى صفوف المثقفين والجماهير على السواء.

ثالثا : منهج التفكير السياسى العربى

لاتبالغ إذا قلنا أن التفكير السياسى العربى قد تمحور فى العقود الماضية – ربما منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن – حول محوريين اساسيين : الأول قضية التجزئة والوحدة، والثانى قضية الاصالة والمعاصرة.

وقد يبدو أن المحور الأول ينتمى إلى المجال السياسى أساسا، وأن المحور الثانى ينتمى إلى المجال الثقافى على وجه الخصوص، غير أنه من منظور شامل يمكن القول أن السياسى لايمكن فى أغلب الاحيان فصله عن الثقافى، ولذلك فهناك تقاطعات عديدة بينهما، وتفاعل مبتادل.

لقد دفعت حرب الخليج قضية التجزئة والوحدة مرة اخرى الى مقدمة الاهتمامات العربية. فقد أدى الغزو العراقى للكويت، والذى تدرج النظام العراقى فى تقديم اسبابه من أول الحقوق التاريخية للعراق فى الكويت وما يتضمنه ذلك من رفض الحدود المصطنعة التى فرضها الاستعمار، إلى أنه يعتبر فى الواقع تحقيق لحلم الوحدة العربية، ومن هنا فقد قدم قرار ضم الكويت إلى العراق واعتبارها المحافظة التاسعة عشر، على هذه الارضية.

ولم نعدم مثقفين قوميين عروبيين انطلقوا لتبرير الغزو العراقى، على اساس أولوية تحقيق هدف الوحدة العربية، على غيره من الاهداف. فالديمقراطية يمكن أن تؤجل، والاشتراكية يمكن أن

تجمد، غير أن تحقيق الوحدة ينبغى أن يتحقق ولو باستخدام القوة العسكرية، حتى ولو تم ذلك بقهر الشعب الذى يراد الوحدة معه! وقد سبقت فى هذه النظريات الخبرة الأوروبية فى تحقيق الوحدة السياسية فى القرن التاسع عشر، ولمع اسم بسمارك محقق الوحدة الألمانية بالقوة العسكرية باعتباره أحد المراجع الرئيسية التى يحال اليها فى تنظير تحقيق الوحدة العربية بالقوة العسكرية.

والواقع أن الجدل الدائر بين فكرة التجزئة وفكرة الوحدة لم ينقطع أبدا طوال العقود الماضية.

وإذا درسنا خطاب التجزئة لوجدناه يدافع عنها على أساس الأمر الواقع، ويهدف إلى ترسيخها، انطلاقا من التركيز على أولوية المصالح الوطنية الضيقة، مما يؤدى إلى مصادرة أى امكانية لتحقيق الوحدة فى المستقبل.

أما خطاب الوحدة – وخصوصا فى صورته المثالية – فهو ينطلق فى كثير من الأحيان من القفز فوق الواقع، مما يدفعه إلى تجاهل الخصوصيات الثقافية والاجتماعية فى الوطن العربى. والصورة المثالية التى يقدمها لنا هذا الخطاب، هى صورة أمة عربية واحدة كانت موحدة طوال عهودها، غير أن الاستعمار الحديث هو الذى جزأها إلى دول ودويلات (و هذه نظرة لا تاريخيةفى الواقع)، وهذه الأمة تشترك فى الدين والتراث واللغة والثقافة الواحدة، وهى أمة متجانسة، لاينقصها سوى صدور الارادة السياسية لاستعادة وحدتها المفقودة.

وهذا الخطاب المثالى الذى ساد فى الأربعينات والخمسينات

والستينات، تجاهل عديدا من الظواهر الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فقد تجاهل أولا مشكلة الاقليات والجماعات الاثنية المختلفة فى الوطن العربى، ولم يتصد لعلاج قضية الاندماج الوطنى والقومى لهذه الاقليات والجماعات الاثنية (الاكراد والشيعة فى العراق، المارونيين فى لبنان، البربر فى الجزائر، المسيحيين فى جنوب السودان، على سبيل المثال).

وقد أدى هذا التجاهل إلى التخبط الشديد فى تعامل ممثلى الفكر القومى العربى الذين استلموا السلطة فى عدد من البلاد العربية مع هذه الحقائق. وتراوحت وسائلهم بين استخدام القمع السياسى المباشر أو القمع الثقافى، وبين الاعتراف بحق بعض هذه الجماعات فى الحكم الذاتى، كما حدث فى العراق والسودان، وان كانت هاتين التجربتين قد انتكستا للأسف لاسباب متعددة، لامجال للخوض فيها.

غير أنه يمكن القول أن هناك غيابا لنظرية واضحة متكاملة فى الفكر القوى العربى فيما يتعلق بهذه المشكلة.

وقد تم أيضا – فى اطار الخطاب المثالى – تجاهل الظواهر الاجتماعية والاقتصادية السائدة فى الوطن العربى، وأهمها التفاوت الشديد فى مستوى التطور الاجتماعى والاقتصادى فى الأقطار العربية. ولو اعتمدنا على مقياس البداوة – التحضر، لوجدنا مجتمعات عربية لم تكد تخرج بعد من طور البداوة، فى حين نجد مجتمعات عربية أخرى قطعت اشواطا بعيدة فى مجال التحضر.

ومن ناحية أخرى تم تجاهل عدد من الحقائق السياسة الهامة،

وأهمها تفاوت اسس شرعية النظم السياسية العربية القائمة، فبعض هذه النظم تحكمها عائلات تسندها شرعية تاريخية مستمرة، تتمثل فى استمرار حكم عائلة ما فى الحكم قرونا متصلة، كما هو الحال بالنسبة لعائلة الصباح فى الكويت، وبعضها يستند إلى شرعية تاريخية دينية، هى خليط من السيطرة على المجتمع بالقوة، والاستناد إلى شرعية مذهب دينى مسيطر كالوهابية، كما هو الحال فى السعودية، وهناك نظم ملكية تستمد شرعيتها من تولى اسرة ما الحكم الملكى الوراثى فالنظام المغربى، والنظام الاردنى، وهناك نظم سياسية تقوم شرعيتها على الانقلاب والثورة كالنظم المصرية والعراقية والسورية والليبية. وهناك نظم جمهورية تقوم شرعيتها على تحقيق الاستقلال الوطنى سواء بالثورة كما هو الحال فى الجزائر، أو بالتفاوض كما هو الحال فى تونس.

هذه الخريطة المعقدة للنظم السياسية العربية تجاهلها – إلى حد كبير – الخطاب المثالى للوحدة العربية، وذلك فى سعيه الدائب لتحقيق الوحدة، حتى ولو كان ذلك بالقفز على الواقع.

غير أن هذا الخطاب المثالى تراجع فى العقدين الأخيرين لحساب خطاب قومى واقعى، تبلور من خلال ممارسة النقد والنقد الذاتى، بعدما أظهرت الممارسة العملية أن تجاهل الواقع والقفز فوق المراحل، كانت نتيجته الوحيدة هى الاخفاق والفشل.

وهذا الخطاب الواقعى يتخذ صورتين اساسيتين : **الصورة الأولى** وتتمثل فى ضرورة تحقيق الوحدة العربية، وليس بالضرورة فى

صورة الوحدة الاندماجية، من خلال السعى الواقعى لتحقيق ذلك، وضعا فى الاعتبار كل الظواهر السائدة فى الوطن العربى، والتى أشرنا إليها من قبل، ومدخله إلى ذلك التدليل من خلال البحث العلمى المتعمق على خطورة التجزئة على المستقبل العربى.

ولابد هنا من الإشارة إلى أن خير من يمثل هذه الصورة البارزة للخطاب القومى الواقعى هو الجهود الزائدة لمركز دراسات الوحدة العربية، والذى أنطلق لخدمة أهداف الأمة وفق خطة بحثية جسورة، شارك فى وضعها وتنفيذها نخبة من أبرز المثقفين والباحثين العرب.

ويرجع الفضل لهذا المركز فى بحوثه ودراساته ومؤتمراته، إلى نشر الوعى العلمى النقدى بضرورة اتمام الوحدة العربية، وتحقيق التفاعل الفكرى الخلاق بين مثقفى المشرق ومثقفى المغرب. هذه هى الصورة الأولى للخطاب القومى الواقعى، والذى يتبناه فى الواقع المثقفون العرب فى غالبيتهم، والذى يتمثل المدخل السياسى للوحدة.

أما **الصورة الثانية** من صور الخطاب القومى الواقعى، فقد بنته الأنظمة السياسية العربية، والتى أثرت فى الدخول من خلال المدخل الاقتصادى. ومن هنا يمكن أن تفهم ظهور وانتشار صيغة التعاون الاقليمية والتى بدأت بمجلس التعاون الخليجى، وتبعها بعد ذلك بسنوات مجلس التعاون العربى، والاتحاد المغاربى.

ويمكن القول أن حرب الخليج بكل ماأحدثته من انقسامات بين النظم السياسية العربية، وحتى بين الدول الاعضاء فى نفس المجلس، كحالة مجلس التعاون العربى الذى وقفت فيه العراق

والاردن واليمن فى جانب، ومصر فى جانب آخر، هذه الحرب بكل ماتضمنته من صراعات وقضايا ومشكلات، تدعونا إلى اعادة النظر فى منهج التفكير السياسى العربى، وخاصة فيما يتعلق بمحور التجزئة والوحدة.

رابعا : التحليل الثقافى للقيم السائدة فى المجتمع العربى

تتصارع القيم وتتعدد فى المجتمع العربى، ونتيجة للصراع السياسى العنيف الذى مارسته الجماعات السياسية التنافسة فى اطار المجتمع العربى فى الاربعين عاما الماضية، تم اعلاء بعض القيم على حساب القيم اساسية أخرى.

لقد رفعت – فى النظم الراديكالية العربية – شعارات الثورة والاشتراكية والوحدة (على اختلاف فى ترتيبها حسب الظروف والاحوال)، على حساب قيمة الديمقراطية والتعددية السياسية واحترام حقوق الانسان.

كما رفعت – ضد هذه القيم وفى مواجهتها – فى النظم المحافظة العربية شعارات الاسلام! وبغير تحديد واضح لمضمونه، وفى اختلاف فى ممارسته، بين منتهى الأنغلاق والجمود كما هو الحال فى السعودية، ومحاولات اضفاء صبغة عصرية على الممارسات الاسلامية، كما تدعو لذلك بعض الحركات الاسلامية فى دول عربية شتى.

وقد أثر هذا الصراع القيمى على موضوع الوحدة العربية تأثيرا حاسما، وكان سلبيا للأسف فى كثير من الأحيان.

لقد وصل الصراع الى حد أن الدول التى ترفع شعار الاسلام،

نادت بسقوط القومية العربية، باعتبارها أيديولوجية غربية مستوردة! ومن ناحية أخرى أدى الصراع بالمفكرين القوميين إلى تجاهل دور الدين فى المجتمع.

بحكم نزعتهم العلمانية، الى أن فوجئوا بصعود التيار الاسلامى فى الوطن العربى، ومن ثم اضطروا إلى مراجعة موقفهم من الدين، وسعوا إلى بناء الجسور مع ممثلى الفكر الاسلامى فى حوار مازال مستمرا، لبحث رفع التناقض بين العروبة والاسلام.

وقد اظهرت حرب الخليج هذا التفاعل والصراع بين العروبة والاسلام بصورة جلية واضحة. فالرئيس صدام حسين - فى محاولة منه لكسب جماهير المسلمين إلى صفه - تبنى فى خطابه السياسى رموزا ولغة اسلامية واضحة. بدأت بقرار جمهورى بنقش عبارة الله أكبر على العلم العراقى، وانتهت بسيادة اللغة الدينية فى خطاباته السياسية الحافلة بالايات القرآنية والصور الاسلامية.

ومن ناحية أخرى جرفت الجماعات الاسلامية المشاعر القومية العربية الحادة للجماهير، فدخلت فى صفوفها رافعة شعاراتها.

وقد فسر أحد الكتاب العرب هذا الخلط فى الاوراق بانه يبدو حتى الآن أن الخيار العروبى والخيار الاسلامى - فى التفسير المتزمت - يعنى أن أحدهما خيار يلغى الآخر، وهذا يعنى أن نقطة الوسط أو نقطة التوازن فى مفهوم التعاون بينهما مفقودة، اللهم إلا عندما تشتد الأزمات، وتضيق الأرض بما رحبت، فيصبح العروبى اسلاميا، والاسلامى عروبيا! ويلتقيان لمصلحة ينتهى ائتلافهما عند تحقيقها أو عدم تحقيقها، وتعود صراعاتهما من حيث بدأت أول

مرة. أن هذا الصراع حول الذاتية العربية، ومحاولة تسييد التوجه العروبى أو الاسلامى يحتاج ليس فقط إلى تحليل متعمق، وانما إلى حوار حى وخلاق بين مختلف الفصائل السياسية العربية، وخصوصا فى ضوء صعود وهبوط التيارات السياسية العربية المختلفة فى الحقبة الأخيرة، (التيار القومى والتيار الماركسى والتيار الليبرالى والتيار الإسلامى).

خامسا : مشروع الوحدة العربية : العرب والعالم

لايمكن الحديث عن مستقبل الوحدة العربية – أيا كانت صورتها – بغير تحديد العلاقة بين الوطن العربى والعالم.

وفى هذا المجال هناك قيم وتصورات سائدة عن العالم فى الوطن العربى، تحتاج إلى تحليل نقدى.

لدينا أولا نظرية المؤامرة العالمية الامبريالية التى تهدف إلى صنع تحقيق مشروع الوحدة العربية.

والحقيقة أنه لولا تضخيم انصار هذه النظرية من صورة العالم الامبريالى وقدراته الخارقة، على حساب القدرات الفاعلة فى الوطن العربى، لكنا قبلنا النظرية، على أساس أن هناك فعلا حقائق تاريخية، تكشف عن وجود مخططات تتجدد كل حقبة تاريخية لمنع تحقيق الوحدة العربية.

غير أن المبالغة فى القاء مسؤولية فشلنا فى تحقيق الوحدة العربية على عاتق العالم الاستعمارى، فيه – على سبيل المثال – محاولة لتبرئة ساحة النخب الحاكمة العربية من مسؤولية الفشل والاخفاق.

فمع تسليمنا أن للدول الغربية المتقدمة خطتها فى الهيمنة على مقدرات العالم الثالث عموما، والعالم العربى خصوصا، فان السؤال الأهم : ماذا فعلنا نحن لمواجهة هذه الخطة؟ وأين هى خطة التحرر القومية العربية الواقعية والمتسقة، والواضحة الأهداف، والمحددة الوسائل لمواجهة خطة الهيمنة؟

هذا هو السؤال الذى ينبغى أن نثيره بكل ما نمتلك من شجاعة ادبية، وقدرة على النقد والنقد الذاتى. وهذا النقد لاينبغى أن ينصب فقط على عاتق الحكام العرب، بل لا بد له- ان كنا موضوعيين حقا- أن يطال المثقفين العرب وايضا الجماهير العربية.

ان خطه شاملة للتحرر العربى لايمكن أن ينفرد بوضعها مجموعة من الحكام العرب المستبدين الذى تمرسوا باحتكار عملية اصدار القرار. والذين جلبوا على الأمة العربية الكوارث، باستدراجها إلى حروب لم يتم الاستعداد لها، ولم تستشر نخبة المثقفين فى تحديد اهدافها وتعيين وسائلها، واختيار توقيتها، ولم تعبء الجماهير تحسبا لها واستعدادا لخوضها، ومشاركة إيجابية فى احداثها.

أن هذه الخطة لابد أن تكون محصلة حوار واسع المدى، تشترك فيه كافة الفصائل والتيارات السياسية، ليس للتوصل إلى اجماع قومى، مما قد يكون مسألى صعبة، بحكم تنوع واختلاف المنطلقات الايديولوجية لكل تيار، بين هؤلاء الذين يرون ان الإسلام هو الحل، وأولئك الذين يرون أن العدالة الاجتماعية هى المدخل حتى لو تمت فى سياق استبدادى، وأخيرا الذين لا يرون بديلا عن الديمقراطية واحترام حقوق الأنسان.

ولكن الغرض من الحوار أن يكون مدخلا لصياغة توجهات عامة متفق عليها، وأهمها فيها يتعلق بعلاقة الوطن العربى بالخارج، وهل تكون من خلال منطق الصراع الدائم والمواجهة المستمرة، والذى يغذيه استخدام الرموز التاريخية التى تبرره، مثلما وصف التدخل الأجنبى فى أزمة الخليج، بأنه حرب صليبية جديدة، لاتواجه إلا باعلان الجهاد الإسلامى، أم تكون من خلال منطق ضرورة التفاعل مع العالم من خلال نظرية الاعتماد المتبادل، والتى لاتعنى بالضرورة التبعية للنظام الرأسمالى العالمى. على العكس يمكن - فى حدود هذا المنظور - مواصلة الصراع ضد قوى الهيمنة الاجنبية، ولكن بشرط اعداد المجتمع العربى اعداد عصريا، فيما يتعلق بالقضاء على التراث الاستبدادى الراسخ وتحديث نظمه السياسية، والاعتماد على الديمقراطية، وكذلك فيما يتعلق باللغة التى تخاطب بها العالم، والتى لايمكن أن تقبل لو كانت مبنية على الأوهام أو الخرافات، وأيضا بضرورة الاعتماد على العلم والتكنولوجيا فى تحقيق التقدم.

ومما هو جدير بالتأمل أيضا أن هناك دعوات تبنع من منطلقات ايديولوجية متعارضة تدعو لقطع العلاقات مع العالم، الاولى تنطلق من قراءة متزمتة للإسلام ترى أن لدينا الحل لكل مشكلة، ولسنا فى حاجة إلى استيراد أى أفكار من الغرب، الذى ينعت غالبا بأنه صليبى وكافر، والثانية تنطلق وفقاً للتناقض - من قراءة متزمتة للماركسية تدعو إلى قطع العلاقات مع النظام الرأسمالى العالمى فى سبيل تحقيق التنمية المستقلة.

وهكذا يظهر بجلاء أن أختلاط هذه الصور عن العالم، والجدل

الايديولوجى السائد فى الوطن العربى، حول علاقتنا بالعالم وكيف تكون، وثيق الصلة بأى تصور مستقبلى عن الوحدة العربية وامكانية تحققها.

ان تحديد العلاقة بين العرب والعالم، موضوع يستحق أن نقف أمامه بالدراسة والتحليل طويلا، وخصوصا فى ظل ظهور ما يطلق عليه النظام العالمى الجديد.

سادسا : البعد الاعلامى فى حرب الخليج : احتكار الصورة واغتصاب اللغة!

على غير توقع، وبغير تخطيط مسبق، كشفت حرب الخليج فى بعدها الاعلامى بشكل بارز، القسمات الرئيسية للمجتمع العالمى المعاصر، التى تشكلت بتأثير الثورة التكنولوجية فى مجال الاتصال. أن المجتمع المعاصر – خصوصا فى الدول المتقدمة – يصفه بعض علماء الاجتماع بأنه مجتمع الفرجة، ويعنون بذلك أن الصورة التى تنقلها أجهزة التليفزيون عبر الأقمار الصناعية، حلت محل الكلمة، وأصبحت هى التى تشكل الاتجاهات، وتصوغ القيم، وتوجه السلوك لملايين المتفرجين، الذين يقعون فى سلبية تامة لكى يتلقوا آلاف الرسائل الاعلامية المتنوعة، من نشرات اخبارية، تغطى الوقائع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى تحدث فى العالم، إلى الاعلانات التى صممت لكى يتحول الانسان إلى حيوان مستهلك يلهث للحصول على السلع البراقة التى تتفنن الاعلانات فى عرضها، بالاضافة إلى المسلسلات التاريخية التى تأسر مخيلة

المشاهدين من مختلف البلاد والذين ينتمون إلى ثقافات متنوعة كمسلسلات دالاس وداينستى وغيرها.

وأثارت حرب الخليج أيضا أزمة العالم الثالث فى مجال الاعلام والاتصال. فمنذ فترة أحس بعض المثقفين النقديين - نتيجة سيادة ثقافة الصورة على غيرها من الثقافات - خطورة أن يصبح سكان العالم الثالث مجرد مستقبلين للصورة الواردة اليهم من مراكز الهيمنة الاعلامية العالمية، التى تسيطر على كل وكالات الانباء العالمية، وتغطى - من بين ماتغطى - أحداق العالم الثالث من وجهة نظرها، وتشوه صورة شعوب هذا العالم ومجتمعاته من خلال منهج خبرى انتقائى، لايركز إلا على الجوانب السلبية كالمجاعات والفيضانات والكوارث، وظواهر عدم الاستقرار السياسى، والانقلابات العسكرية، والحروب الاهلية، مما يظهر سكان هذا العالم وكأنهم مجموعة من الهمج والبرابرة، الذين يرسفون فى أغلال التخلف، ليس بسبب النهب الاستعمارى لبلادهم، وانما نتيجة لازمة لغبائهم الموروث وكسلهم، وعجزهم عن المبادأة فى أى ميدان.

ومن هنا تصاعدت الدعوات لانشاء نظام اعلامى عالمى جديد، يضمن التوازن فى عملية الاعلام، ويتيح لهذه الدول بأن تعبر عن نفسها بطريقة أكثر موضوعية، حتى لايصبح شعار حرية تدفق المعلومات يعنى أن تتدفق المعلومات فقط من المراكز المهيمنة إلى الاطراف.

ومن ناحية أخرى كشفت الحرب، عن ان مجتمعاتنا العاجزة عن

أن تعكس صورتها عبر الصورة لم تجد أمامها سوى الكلمة تعبر بها عن مواقفها، هذه الكلمة التى تنقلها أحيانا - وحسب ارادتها - وسائل الاعلام الغربية، غير أ هذه الكلمة - كما أثبتت الممارسة فى حرب الخليج - كلمة عاجزة، بدائية، ومتخلفة، لأنها صنعت بعد اغتصاب عنيف للغة العربية، فظهرت كأنها تعبير ساذج لشعوب لاتفرق بين الحقيقة الحلم، ولابين الاسطورة والوقع، شعوب تعتقد أن الكلمة بذاتها ان لفظت أو نطقت أو أذيعت فى خطاب سياسى أو بيان عسكرى يمكن أن تحمل محل الفعل، بل هى الفاعل ذاته!. ويكشف عن ذلك الخطاب السياسى البائس للقيادة العراقية، والبيانات العسكرية المتهافتة التى صدرت أثناء الحرب.

وهكذا وقع المشاهد سواء فى الدول الغربية ذاتها أو فى الدول العربية نفسها، بين مطرقة الاعلام الغربى الذى كان رمزه البارز محطة س. ن. ن. الامريكية التى احتكرت الاعلام عن الحرب أربعا وعشرين ساعة فى اليوم، وبين سندان الكلمة العربية العاجزة والمتخلفة، والتى أخفقت فى مخاطبة العالم باللغة العصرية التى يمكن أن تنفذ إلى عقول الناس، أو حتى تؤثر فى وجدانهم.

احتكار الصورة فى الاعلام الغربى

لاشك أن الصورة احتكرت المسرح تماما فى الاعلام عن الحرب، فى سياق سيطر عليه التعتيم الاعلامى الكامل من قبل القوات المتحالفة، بحيث أصبح مئات الصحفيين أسرى فى مقر القيادة لاعمل لهم، ولايسمح إلا لمجموعات صغيرة أن تنتقل تحت حراسة

عسكرية مشددة للقيام بواجباتهم الصحفية المقيدة. وقد كشف عن الوهم الغربى الخاص بحرية تدفق المعلومات، استطلاع للرأى نشر فى جريدة الموند يكشف عن قلق الاعلاميين الغربيين وتساؤلاتهم عن شروط ممارسة مهنتهم، واتخاذهم رهائن فى المواجهة بين الدعايات، مما أدى إلى فقدان مصداقيتهم تجاه الجمهور. وقد أوردت الموند نتيجة استطلاع الرأى الذى جه إلى عينة من الصحفيين، وجاء فيها أن: ٦١٪ من الصحفيين يعدون أنفسهم غير راضين عن عمل وسائل الاتصال فيما يتعلق بالحرب، وأن ٨٤٪ يشعرون أنهم كانوا أدوات بيد السلطات العسكرية، وأن ٥٣٪ يعتقدون أن الثقة التى يوليها لهم الجمهور سوف تنخفض بعد هذه الحرب.

والواقع أن الاعلام الامريكى - فى تغطيته لاخبار الحرب - طبق ببراعة منقطعة النظير النظرية الاعلامية الامريكية السائدة، والتى تقوم على، شعار أساسى مفاده رؤية كل شئ، وفى كل مكان.

ويعرف تماما الذين عاشوا فى الولايات المتحدة الامريكية الايقاع اللاهث لنشرات الاخبار الامريكية سواء فى تغطيتها للاحداث الداخلية أو الخارجية. فالنشرات تعذفه بوابل من الصواريخ والقنابل الاعلامية سواء عن حريق كبير نشأ فى مدينة ما، أو فيضان، أو جريمة بشعة، بطريقة تقدم له الوقائع فى لحظتها، وبصورة مجزأة، بحيث لايستطيع المشاهد أن يستخلص أى معنى كلى مما يراه. وكيف ذلك وهو محاصر كل دقيقة بأخبار جديدة. وبوقائع من هنا وهناك، وبصورة تؤدى إلى تشتيت مجاله الادراكى، وعدم اعطائه الفرصة للهدوء والتأمل، لكى يحدد لماذا حدث ماحدث، وماهى الاسباب العميقة وراءه.

فى ضوء هذه النظرية تمت التغطية الاعلامية لحرب الخليج، والتى روج لها - وكأنها سلعة من السلع - بأنها ستكون تكنولوجية ونظيفة وسريعة حاسمة.

وبالرغم من أن الاعلام الامريكى قام بدوره كاملا قبيل اعلان الحرب وعند اشتداد الأزمة، فى اثارة شهية المشاهدين، بالحديث عن الأسلحة المتطورة الذكية والقاتلة فى سياق استخدام القوة، وابادة قوات العدو إلا أن الحقائق التى يعرضها هذا الاعلام الذى استعار سرعة الصواريخ الخاطفة، كانت قليلة ونادرة، ولم تتح للمشاهد أبدا، أن يعرف حقيقة الصراع، أسبابه، تطوراته، والمواقف الحقيقية لنيات وأهداف كل طرف، الكامنة أو المعلنة.

لقد شاهدنا جميعا على شاشة التليفزيون صواريخ ولاندرى من أى مكان تحديدا، وتذهب فى الفضاء ولانرى أين سقطت، وأهم من ذلك لانعرف ماهو الدمار الذى أخذته، ووراء الومضات البراقة للصواريخ التى تنطلق، بكل مايحيط بذلك من تكنولوجيا فائقة الحداثة، لاتدرك أن أهداف هذه الصواريخ كانت أطفالا ونساء وشيوخا من المدنيين، تشتعل بيوتهم، ويلقون مصرعهم فى لحظات. هذا الجانب الأساسى يحرص الاعلام الامريكى على تغييبه، فتبدو الحرب - كما عبرت عالمة النفس اللبنانية منى فياض - كما لو كانت لعبة أتارى كبيرة للمشاهدين.

ولعل مايعكس سيادة هذه النظرية وآثارها فى خلق الوعى الزائف بالحرب النظيفة السريعة التى لاتوجه صواريخها إلا إلى الاهداف العسكرية، ما أذاعة بيتر أرنت مذيع محطة س. ن. ن. الامريكية الذى بقى بمفرده فى بغداد، من صور المدنيين من قتلى

ملجأ العامرية، قد أدى إلى صدمة للمشاهدين فى العالم، فقد أدركوا للمرة الأولى منذ اندلاع الحرب، أنها أدت إلى مصرع عشرات الألوف من المدنيين، الذين غابت صور موتهم البشعة، فى اطار التعتيم الاعلامى، والتجهيل الاتصالى المقصود.

هكذا استطاع الاعلام الامريكى، بحكم احتكاره للصورة، وهيمنته على النظام الاعلام العالمى، أن يعطى صورة مشوهة، هى أقرب للوهم منه إلى الحقيقة.

اغتصاب اللغة فى الخطاب السياسى العربى

ولايكمل عرضنا للبعد الاعلامى فى حرب الخليج بغير تعرضنا لعملية اغتصاب اللغة بواسطة الطرف الاخر فى الصراع وهو العراق.

لقد اتهمت اللغة العربية من قبل، بواسطة بعض العلماء الاجتماعيين الصهيونيين، بأنها بما تحفل به من الفاظ مجنحة، وميل إلى استخدام الاستعارات والكنايات، هى أحد أسباب الصراع العربى الاسرائيلى! وذلك لأنها تغرى مستخدميها بالايغال فى الحكم على حساب الحقيقة، وتجعلهم يهربون من مواجهة الواقع، فينغمسون فى الخيال.

والحقيقة أن هذه تهمة باطلة. فاللغة العربية – كغيرها من اللغات – تحفل بلغات مختلفة أن صح التعبير. فلننظر إلى اللغة العنصرية الليكودية القبيحة، التى تصور الشعب الفلسطينى وكأنه شعب لقيط لا أصل له ولا أرض، وهو بالتالى لاحق له فى العيش الى جوار الدولة الاسرائيلية التوسعية التى ينبغى أن تكون دولة يهودية نقية.

وبالتالى يباح قتل الفلسطينيين بدون محاكمة، بل وتستصدر احكام من المحاكم لنسف بيوت من يشتبه فى أنهم يكافحون ضد الاستعمار الاسرائيلى.

هل يمكن بناء على هذه اللغة العنصرية اتهام اللغة العبرية ذاتها أنها متخلفة؟ لايمكن ذلك، لان هناك جماعات اسرائيلية تستخدم لغة عبرية مختلفة، وتدعو إلى ضرورة الاعتراف للشعب الفسلطينى بحقوقه المشروعه، وتدين كل صور التعسف الاسرائيلى.

وإذا نظرنا إلى فرنسا، التى تعد مثالا للحرية والديمقراطية، فهل يمكن اتهام اللغة الفرنسية، لان لوبين الزعيم السياسى الفرنسى يصوغ بها نظرياته العنصرية ضد العرب؟

فى ضوء ذلك، لايمكن ادانة اللغة العربية ذاتها، على اساس استخدام معين لبعض فصائل النخب السياسية الحاكمة فى الوطن العربى، للغة من بين لغات أخرى ممكنة. ذلك أن اللغات بمعنى الخطابات المتعددة التى تستخدمها التيارات السياسية العربية، تختلف فيما بينها – فى طريقة استخدام اللغة العربية – اختلافات جسيمة. فالخطاب الاسلامى المتزمت المعاصر. والذى تتبناه الجماعات الاسلامية الانقلابية، والذى يقوم على التكفير والهجرة والحاكمية والجهاد يختلف عن الخطاب العلمانى الذى يحتكم الى العقل والى المنهج النقدى فى صياغاته.

غير أن كل ذلك لاينفى أن النخبة السياسية الحاكمة فى الوطن العربى، قد اغتصب غى العقود الماضية اللغة العربية، وتبنت خطابا

سياسيا يهدف إلى نشر الوعى الزائف. وفى هذا الخطاب ابتذلت كلمات عزيزة مثل الديمراطية والاشتراكية والوحدة، والعدالة الاجتماعية، والاستقلال الوطنى، وأدى ذلك فى النهاية إلى فقدان هذه الخطاب لمصداقيته، وعدم ايمان الجماهير به.

ومن ناحية أخرى ابتذلت نخب سياسية محافظة شعارات الاسلام، التى يمارس فى ظلها أبشع الوان القمع السياسى، وتنهب ثروات الشعوب بتبريرات تستمد أصولها من فهم زائف للدين.

فى هذا السياق الذى انقطعت فيه الصلة بين المبنى والمعنى فى الخطابات السياسية العربية المتصارعة، لعل السؤال الذى يطرح نفسه، كيف مارس العراق خطابه السياسى اثناء الازمة وبعدما قامت الحرب، وعقب انتهائها؟ الاجابة ليست بسيطة كما قد نظن لاول وهلة، فبالرغم من ضعف ثقة الجماهير العربية فى الخطابات السياسية للقادة والزعماء العرب بوجه عام، إلا أن الخطاب السياسى العراقى كان فى الواقع خطابا مراوغا، له اكثر من وجه. فقد تبنى هذا الخطاب الصادر عن نظام علمانى لم يعرف عنه انطلاقه من رؤى دينية أيا كان اتجاهها، لغة اسلامية بارزة فى محاولة منه لاستمالة الجماهير العربية المتدينة والجماهير الاسلامية بشكل عام. وبدأت المسألة بصدور قرار جمهورى عراقى ينقش عبارة الله اكبر على العلم العراقى. وظهر الاتجاه الانتهازى واضحا من خطاب الرئيس العراقى صدام حسين الى الامة بتاريخ ١٧ يناير ١٩٩١ والذى استهله كما يلى:يامحلى النصر بعون الله. بسم الله الرحمن الرحيم قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم صدق الله العظيم،

ثم بدأه هكذا أيها الشعب العراقى العظيم، ياأبناء أمتنا المجيدة، أيها النشامى من قواتنا المسلحة الباسلة، أيها الناس حيثما أشتد عزمكم ضد الباطل وأهله الكافرون وأعوانهم وحلفائهم. فى الثانية والنصف بعد منتصف هذه الليلة ليلة ١٦ على، ١٧ غدر الغادرون فارتكب زميل الشيطان بوش جريمته الغادرة هو والصهيونية المجرمة، وابتدأ المنازلة الكبرى فى أم المعارك بين الحق المنتصر بعون الله وبين الباطل المندحر أن شاء الله ...

ويختم خطابه بقوله الله اكبر، الله اكبر، يامحلى النصر بعون الله وليخسأ الخاسئون.

ان مايزخر به هذا الخطاب وغيره من الخطابات التى اذاعها الرئيس صدام حسين، لتكشف بصورة جلية عن تعمد اصطناع لغة دينية واضحة سواء فى وصف النفس أو وصف الاعداء، أو فى اثارة الامجاد الاسلامية القديمة، بأسلوب تختلط فيه الأوهام بالحقائق، ويتزاوج فيه تحليل الصراع وفق المنهج السياسى مع تهويمات غائمة أقرب ماتكون الى لغة الدراويش، منها إلى لغة الصراع السياسى المعاصر، والتى عادة ماتكون واضحة قاطعة ومركزة، قادرة على ايصال رسالتها إلى العالم.

وقد يبدو غريبا أنه بالرغم من تهافت الخطاب السياسى للقيادة العراقية، إلا أنها لمست مراكز العصب الحساسة لدى قطاعات واسعة من الجماهير فى الاردن والضفة الغربية وغزة والجزائر والمغرب وتونس. لماذا؟ هذا سؤال بالغ الأهمية، وتتجاوز الاجابة عليهالخطاب السياسى العراقى، لتصل إلى تحديد الوضع النفسى لقطاعات

جماهيرية واسعة. ولعل السبب يكمن فى أن الذاكرة السياسية للجماهير العربية مازالت حافلة بوقائع الصراع بين العالم الغربى الاستعمارى وحركة التحرير العربية. لقد صور الخطاب السياسى العراقى الازمة على أنها صراع بين الوطن العربى والاستعمار الغربى الذى يريد أن يفرض هيمنته على ثروات العرب. ثم هو بما أثاره من ضرورة العمل على التوزيع العادل للثروة النفطية أثار مشاعر الجماهير الفقيرة الواقعة بين مطرقة القمع السياسى وسندان البؤس الاقتصادى.

أثار الخطاب السياسى العراقى المخيلة الشعبية، ونسيت الجماهير – فى سعيها المحموم للتعلق بالزعيم المخلص – أن سبب الأزمة هو الغزو العراقى للكويت وتشريده لشعب عربى مسلم، سبق له أن أسهم فى مسيرة التنمية والأمن العربى.

ولعل هذا يلفت نظرنا إلى حقيقة بالغة الأهمية، هى أنه ليس شرطا أن تنبع جماهيرية خطاب مامن تماسكه المنطقى، أو نتيجة لصياغته بلغة عصرية! على العكس، قد تذيع جماهيرية خطاب ما، بالرغم من تناقضه، وضعفه البنيوى، وركاكة اسلوبه، وبدائية أفكاره. ذلك أن المزاج السائد للجماهير، ووضعها النفسى، يمكن أن يجعلها تتقبل بل وتتبنى مثل هذا الخطاب السياسى العراقى المتهافت. ومن عاش أثناء الازمة فى الجزائر أو المغرب أو تونس أو الأردن وقد جابه هذه الظاهرة بصورة مباشرة، حيث ساد الحماس الجماهيرى العارم، ورفعت شعارات أم المعارك فى كل مكان. وساد حتى بين المثقفين اتجاه من عدم العقلانية لايكاد يصدق. ويكفى

قراءة ما كتبه عديد منهم، لكى يلمس المرء كيف اختلطت الحقيقة بالوهم، بل وكيف تم الهروب من الواقع من خلال استخدام شبكة معقدة من الصياغات اللفظية والصور البيانية الخالية من أى معنى وانتقلت نفس اللغة إلى البيانات العسكرية العراقية، والتى زخرت بالصياغات الدينية، وكادت تخلو من الوقائع. وفى الوقت الذى كان فيه مئات الضحايا يسقطون من الجانب العراقى نتيجة للغارات الساحقة، كان الاعلام العراقى يتحدث عن خسائر العدو الجسيمة وعن الانتصار.

وحتى بعد أن انتهت الحرب نهايتها المأساوية المعروفة، أعلن الاعلام العراقى، ان العراق قد انتصر. بل ودارت معركة صحفية حامية فى بعض الجرائد العربية بين من تجاسروا وقرروا أن العراق قد انهزم، وبين أولئك الذين مازالوا وبغير خجل أو حياء يؤكدون أن العراق انتصر. مستخدما فى ذلك حججا سخيفة ومبررات ساذجة.

لقد استطاعت اللغة المغتصبة أن تنشر الوعى الزائف اثناء الازمة، وفعلت فعلها فى تخدير الجماهير زمنا، التى أفاقت على صدمة الحقيقة بعد الهزيمة، فساد بين صفوفها اليأس والاحباط.

وهكذا وقعنا بين الاحتكار الغربى للصورة، والاغتصاب السلطوى العربى للغة.

ملحق (١)

حرب أكتوبر والنظرة العلمية للشخصية المصرية(*)

ليس من شك أن الأداء البطولي للقوات المسلحة في حرب أكتوبر، وما برز للعالم كله من فاعلية الجندي المصري وجسارته بالاضافة إلى التخطيط العلمي الدقيق الذي سبق الحرب، قد أدى إلى تغيير ملموس في تقييم الشخصية المصرية لدى عديد من الكتاب والمفكرين. وقد عاصرنا جميعا الفترة التي أعقبت هزيمة يونيو ١٩٦٧، حين تبارى المفكرون العرب الذين ينتمون إلى كل الاتجاهات السياسية في تفسير الهزيمة. وتعددت التفسيرات، من التفسير الديني الفج الذي زعم أن الابتعاد عن الدين كان هو العامل الحاسم في الهزيمة، الى التفسير التكنولوجي الساذج لفكرة الفجوة التكنولوجية بيننا وبين اسرائيل، مرورا بالتفسير السياسي الرجعي الذي وجد الفرصة سانحة للهجوم على الاشتراكية فقرر بمنتهى اليقين أن الاشتراكية هي المسئولة! غير أن أخطر التفسيرات

(*) تمثل حرب اكتوبر نقطة تحول تاريخية حاسمة بالنسبة للصراع العربي الاسرائيلي.ومما لا شك فيه أن كثيرا من الاحكام التي اطلقت على الشخصية العربية بوجه عام، والشخصية المصرية بوجه خاص عقب الهزيمة في يونيو ١٩٦٧، ستكون مجالا لمراجعات جوهرية.

والمقال الحالي الذي آثرنا أن نخصص له هذا الملحق، والذي نشر بجريدة الاهرام في ٧٤/١/٢٢، يمثل امتدادا وتعميقا في نفس الوقت لوجهات نظرنا بصدد الشخصية العربية التي طرحناها في ثنايا الكتاب.

قاطبة، هى تلك التى تتعلق بتشريح الشخصية المصرية بوجه خاص والشخصية العربية بوجه عام. لقد ركزت هذه التفسيرات - التى وجدت سندا قويا لها فى واقعة الهزيمة الساحقة- على السلبيات المتعددة التى تزخر بها الشخصية المصرية. فقرأنا كثيرا عن السلبيات، والفردية، والمظهرية، والفهلوية، والافتقار الى المبادأة، والعجز عن العمل الجماعى، ومن ناحية أخرى أغرقتنا التحليلات الاجتماعية للمجتمع العربى، التى صورته لنا مجتمعا تقليديا، يقوم على اعتبارات القرابة أكثر من اعتبارات الانجاز والكفاءة، مجتمعاً يتكون من مجموعة من الأميين الذين يعجزون بحكم وضعهم عن استيعاب العلم والتكنولوجيا، وبعبارة موجزة قدمت لنا صورة بالغة الكآبة للشخصية المصرية، وفى نفس الوقت رسمت لنا - بصراحة وضمنا - صورة مسرفة فى المبالغة عن الشخصية الاسرائيلية، العصرية التكنولوجية المتقدمة.

وفجأة انطلقت شرارة المعركة، واكتسح العبور المصرى المجيد الحصون والاستحكامات التى أقامتها التكنولوجيا الاسرائيلية، وفر أو أسر أو قتل عشرات الاسرائيليين المتقدمين العصريين! وإذا بنا تجد موقفا غريبا من عدد من الكتاب والمفكرين المصريين والعرب. فقد تحولوا- بدون سابق انذار- إلى التغنى بإيجابية الشخصية المصرية وثرائها،! وبفاعلية المصرى وجسارته، وقدرته على تخطى الصعاب، واقتحام المخاطر، وأن ذلك كله ليس أمرا طارئا عليه، بل هو سمة تميزه منذ العصور السحيقة الموغلة فى القدم.

ترى ماهو تفسير هذا الموقف؟ ان ذلك يرد فى رأينا- بعيدا عن

الاهتمام بالعوامل الشخصية والنزاعات الذاتية - إلى سيادة نظرة تجزيئية مسطحة للشخصية المصرية. لقد أخطأنا في الموقفين : موقف الهزيمة وموقف النصر. فلا المغالاة في تجريح الذات والتركيز على سلبيات الشخصية المصرية كان يستند إلى أساس علمي، ولا القناعة بتمجيد السمات الايجابية كفيل بتصحيح الخطأ، أو التخلي عن الأحكام الذاتية غير الموضعية.

ان كل هذه هي حصيلة منهج تجزيئي معيب في النظر للشخصية القومية بعيدا عن السياق التاريخي الذي تمارس فيه فعلها، تؤثر فيه وتتأثر به. أن الشخصية المصرية ليست قالبا جامدا تتضمن عددا من السمات الحضارية والنفسية «الغريزية» التي لاتتغير ولاتنال منها رياح الزمان. بل أنها - في التحليل العلمي الدقيق - تعدّ انعكاسا لنمط المجتمع بما يتضمنه من علاقات اقتصادية متميزة في حقبة تاريخية محددة، مضافا إليها بعد أساسي وهام هو البعد الحضاري الذي يمتد في الزمان بصورة خفية، قد تستعصي أحيانا على التحليل. ان البعض ممن يتعرضون للشخصية يظنون - خطأ - أن المصري اليوم هو ابن فراعنة الأمس! ويغيب عنهم أننا يكفي أن نستشير التاريخ، لنعرف أن الشخصية المصرية قد أعيدت صياغتها بالكامل تقريبا عقب الفتح العربي الاسلامي لمصر. وليس معنى ذلك أن الفتح العربي قد وجد أمامه شخصية مصرية فرعونية متكاملة! على العكس، فان هذه الشخصية كانت قد لحقتها تغييرات جسيمة نتيجة تدهور الحكم الفرعوني الخالص منذ فترة بعيدة، بالاضافة إلى ظهور الشخصية

المصرية المسيحية، فقد غير المصرى لغته ودينه. فالشخصية المصرية لحقها التغيير بفعل التلقيح الحضارى الواسع المدى الذى تم نتيجة تعرض مصر لعديد من الغزوات الاجنبية، التى استوطن بعضها دلتا وادى النيل فترات طويلة، هذه الدلتا التى كانت أشبه بمعمل حضارى واسع الأرجاء، متعدد الابعاد، تلاقت فيه الشخصية المصرية مرات عديدة بأنماط شتى من الحضارات أثرت فيها وتأثرت بها.

غير أن الشخصية المصرية اختل تكاملها الداخلى. وفقدت كثيرا من أصالتها وتراثها، تحت تأثير السيطرة العثمانية الجهول، التى نشرت علامات التخلف الفكرى، والفقر الروحى حيثما حلت، واينما استقرت. وأضيف إلى ذلك كله – فى القرن التاسع عشر – استعمار اجنبى، بسط نطاقه على العالم العربى كله، وتنوعت اجتهاداته – بالرغم من تعدد أصوله الفرنسية والانجليزية والايطالية – لقتل الشخصية العربية. وكان من نصيب الشخصية المصرية مجابهة الاستعمار الانجليزى، ومحاولة التطور تحت أقدام المحتل الغاضب.

لقد بدأت الشخصية المصرية تصحو من سباتها الطويل، حين تم اللقاء العاصف بين المجتمع المصرى المتخلف والحملة الفرنسية التى حملت وقتذاك علامات النهضة الأوروبية ودلائل التقدم العلمى الغربى. منذ ذلك الحين حاول جيل من الرواد العظام تحديث الشخصية المصرية من كافة زواياها واقطارها. ولم تنقطع محاولات التجديد منذ ذلك الحين وان كان العامل الأجنبى المتمثل فى الاحتلال كان يتعمد اجهاض كثير من هذه المحاولات. وحين آذنت

بالزوال حقبة الاستعمار الاجنبى المباشر عن العالم العربى، زرع الاستعمار العالمى اسرائيل فى المنطقة، بؤرة عدوانية لاستنزاف الطاقات العربية العظمى، واعاقة نموها وانطلاقها فى طريق التقدم والعصرية.

وخلاصة مانريد أن نركز عليه، أن الشخصية المصرية تضم عددا من السمات السلبية الناجمة عن تخلف أنماط الانتاج، وعن بقايا السيطرة الاستعمارية القديمة وماطبعته فى نفوس البشر، وعن آثار العلاقات الاستغلالية للصفوة المستغلة السياسية والاقتصادية، التى حاولت أن تقضى على كل ماهو نبيل فى الشخصية المصرية، لضمان الخنوع السياسى، والامتثال الاقتصادى لهذه الطبقات. غير أن الشخصية المصرية فى نفس الوقت تزخر بعديد من الايجابيات التى هى ميراث الاجيال المناضلة المتعاقبةو، التى كافحت بشرف وسخاء ضد المحتل الاجنبى والتى رفضت – بالرغم من الصعوبات الشاقة التى مارست فيها نضالها – أن تفرط فى شبر واحد من التراب الوطنى، هذه الأجيال التى مارست النضال الوطنى ضد المستغلين بكافة فئاتهم، حين هبت جموع الفلاحين والعمال والمثقفين أكثر من مرة لتحقيق العدالة الاجتماعية للجماهير. ان الشخصية المصرية جديرة منا بنظرة علمية متوازنة، لاتسقط فى هوة اليأس القاتل بالتركيز على السلبيات، ولاتغامر بالمبالغة الفجة حول الايجابيات. أننا شعب نحاول أن نعيد صياغة شخصيتنا القومية وسط معركة دولية وحضارية ضارية، سعيا وراء التقدم الانسانى المستنير، والعصرية الموجهة التى تشبع احتياجات

الانسان. وفى خضم ذلك كله، تتفاعل بصورة جدلية دائمة سلبياتنا وايجابياتنا، ومحك ابداعنا الحقيقى هو كيف نخطط للتغيير بصورة عقلانية، وعلى ضوء قيم حضارتنا الأصيلة ذات الجذور الراسخة فى تكويننا النفسى والاجتماعى، ولانريد بذلك أن نعود إلى الوراء، كما ينادى بعض المفكرين الرجعيين، فذلك ضد منطق التاريخ، ولكننا لانريد أيضا أن نقفز قفزة عشوائية إلى الأمام، تقليدا أعمى لمجتمعات أجنبية تفتقر بعضها إلى اصول حضارية عريقة، أو مازال بعضها فى مرحلة أعادة صياغة الهوية الحضارية بتأثير الثورة العلمية والتكنولوجية. فليس محتما علينا أن نضحى بأصالتنا فى سبيل عصريتنا.

ملحق (٢)

حرب اكتوبر والنظرة الغربية- الأمريكية للشخصية العربية

بالرغم من أن الوقت مازال مبكرا لرصد تحليل التسفيرات العلمية الغربية الامريكية للانتصارات العربية فى حرب أكتوبر، الا ان ردود الفعلفى الصحافة الغربية أن ما سقناه من شواهد علمية فى ثنايا الكتاب عن وجود تيار عنصرى كامن في الحضارة الغربية موجه ضد العرب، ستكشف عنه الدراسات الغربية المتحيزة.

وقد أتيح لنا أن نطلع على دراسة غير منشورة(١) للدكتور بوبل بل الباحث بمعهد «دراسات الحرب والسلام» بجامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية عنوانها: «الشخصية القومية الاستراتيجية العسكرية الخبرة المصرية أكتوبر ١٩٧٣» لعلها من بين أحداث ما أنتجة العقل الغربى من دراسات علمية اجتماعية عن الحرب الأخيرة.

وقد لجأ الباحث فى القسم الأول من ورقته الى تلخيص كل التراث العنصرى عن العرب الذى فندناه فى الكتاب، معتبرا سنيه حمادى رائدة البحث عن الشخصية العربية، ورفائيل باتارى مؤلف كتاب العقل العربى الذى سبق أن أشرنا له، الباحث الذى وضع الكلمة الأخيرة فى الموضوع. ثم حاول فى القسم الثانى أن يفسر الانتصارات المصرية فى أكتوبر تفسيرا بالغ الضحالة والسطحية.

فقد زعم أن المصريين «فلاحون» وليسوا عربا! والفلاحين فى رزية- وإن كانوا يفتقرون الى روح المبادأة مما يمنعهم من ممارسة وتطبيق استراتيجية هجومية، الا أنهم يتقنون الدفاع من مراكز ثابتة فى ظل استراتيجية دفاعية، وهذا هو سر الانتصارات المصريةفى حرب اكتوبر!

ولسن فى حاجة الى دحض المزاعم غير العلمية وغير الواقعية معا. لقد كان الجيش الصينى الذى صنع الصين الكبرى جيش فلاحين أساسا، وكانت القوات الفيتامية التى ألحقت بالامبرالية الأمريكية هزيمة ساحقة تتكون من فلاحين. ومن ناحية أخرى، هل كان عبور قناة السويس، واجتياح خط بارليف، والمعارك التصادمية الهجومية الكبرى التى قادتها القوات المصرية، والتى تقهقرت فيها وانهزمت القوات الإسرائيلية حربا دفاعية؟

وخلاصة القول، ان هذه الدراسة انما تؤكد تفسيرنا الذى قدمناه عن الاتجاه العدوانى الكامن فى الحضارة الغربية ازاء العرب، وبالذى يمثل الأرضية الفكرية والثقافية التى تستند اليها الامبريالية العالمية(٢).

ملحق (٣)
الشخصية العربية: النسق الرئيسي والانساق الفرعية
(ملاحظات أولية)*

حين نتحدث عن الشخصية العربية فنحن نقترب مباشرة من ميدان محدد من ميادين البحث الاجتماعي هو الشخصية القومية. وهذا الموضوع من الموضوعات التى أصبحت تشغل بال كثيرا من العلماء الاجتماعيين الذين ينتمون الى علوم اجتماعية والحضارية لامه ما، التى تتسمبثبات نسبى، والتى يمكن عن طريقها التمييز بين هذه الأمةوغيرها من الامم»(١).

غير ان موضوع الشخصية العربية ليس من الموضوعات التى يسود بصددها الاتفاق بين الباحثين. فقد اختلف العلماء على طبيعة الشخصية القومية وعلى المناهج التى يمكن دراستها على اساسها. وتتساءل بعضهم: كيف يمكن تمييز الشخصية القومية عن القيم وعن السلوك وعن السمات الاجتماعية المحددة؟

والحقيقة أن هناك خلافات شديدة تدور بين الباحثين حول أنسب المصطلحات للدلالة على الشخصية القومية من ناحية، وحول مدى صحة استخدام هذا المفهوم ومدى قيمتة العلمية، ومهما كان الامر، يمكن القول ان هناك ثلاثة مفاهيم اساسية تشير الى الشخصية القومية: وهى البناء الاساسى للشخصية، والشخصية المنوالية، والطابع الاجتماعى.

---

* نشرت هذه المقالة فى مجلة المستقبل العربى، عدد٣ ,١٩٧٨، ١٤٤–١٥٥.

◎ البناء الاساسى للشخصية: يرتبط هذا المفهوم باسم كاردنر الذى استخدمه فى كتابه المعروف «الفرد ومجتمعة» الذى صدر فى نيويورك عام١٩٣٦. ويقصد كاردنر بالنباء الاساسى للشخصية «تشكيل الشخصية الذى يشترك فيه غالبية اعضاء المجتمع نتيجة للخبرات التى اكتسبوها معا».

◎ الشخصية المنوالية: استخدام هذا المصطلح رالف لنتون لكى يشير الى «نمط الشخصية الذى يظهرباكبر قدر من التكرار بين مختلف انماط الشخصية فى مجتمع محدد».

◎ الطابع الاجتماعى: ويرتبط هذا المفهوم باسم عالم النفس والفيلسوف الامريكى المعروف اريك فروم. وبالطابع الاجتماعى عنده هو «النواه التى ينهض على اساسها بناء الطابع الذى يشترك فيه غالبية الأفراد الذين ينتمون الى ثقافة، وذلك بالمقابلة مع الطابع الفردى الذى يختلف بصدده الافراد- الذين ينتمون الى نفس الثقافة- عن بعضهم بعضا(٢).

وفى ضوء هذا المفاهيم الثلاثة يمكن القول أن المنهج الذى تبناه اريك فرومفى دراسته للشخصية الاجتماعية هو أسلم الاتجاهات النظرية فى دراسةالشخصية القومية. وذلك لأنه ينطلق من تصور شامل للطبيعة الانسانية فى اطار السياق التارخى الذى يوثر عليها، ويترك بصماته على ملامحها وقمساتها الرئيسية وهذا التصور الشامل ينطلق من الاطار الاشتراكى العلمى الذى ينظر للشخصية نظره جدلية فى تفاعلها الدائم مع التكوين الاقتصادى الاجتماعى، فى مجتمع محدد أو فى تأثرها بنمط الانتاج السائد فى عدة

مجتمعات متشابهة. (يفرق الكتاب الاشتراكيون العلميون بين مصطلحين اساسيين نمط الانتاج، والتكوين الاقتصادى الاجتماعى، ويقصد بالمفهوم الأول ابراز السمات الأساسية والعامة فى عدد من المجتمعات البشرية العينية، مثال: نمط الانتاج الراسمالى الذى حلله ماركس فى كتاب «رأس المال» اما المفهوم الثانى فيتعلق على العكس بالتاريخ، بمعنى اشارته الى نموذج مجتمعى محدد مثال التكوين الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع المصرى أو المجتمع التونسى)(٣). وهذا يعنى على وجه التحديد ان النمط الانتاج السائد فى عصر ما أو منطقة حضارية محددة (كنمط الانتاج الاقطاعى أو الراسمالى أو الاشتركى) من شأنه أن يشكل الشخصية الانسانية وفق خطوط مميزة.

بيد أنه لا ينبغى ان يغيب عن أذهاننا ان الحديث عن تأثير نمط الانتاج على تشكيل الشخصية القومية يجب الا يحجب عن اعيننا الحقيقةالهامة التى مؤداها أن التكوين الاقتصادى والاجتماعى فى مجتمع محدد يظل هو الحاسم فى تشكيل الشخصية. بمعنى ان التاريخ الاجتماعى لقطر ما، تسودة العلاقات الرزسمالية على سبيل المثال، من شأنه أن يخلق نموذجا منفردا للشخصية القومية والواقعية، قد يختلف نسبيا فى كثير أو قليل من النموذج العام.

فتجريد الحديث عن نمط الانتاج وتأثيرة على الشخصية القومية ينبغى الا ينسينا ان الممارسات السياسية والاجتماعية والحضارية فى مجتمع ما هى الذى تحدد فى التحليل النهائى نوعية الشخصية الاقليمية بعبارة أخرى تحدد الايديولوجية والثقافة السياسية

السائدة وطرق التنشئة الاجتماعية وانماط السلطة فى المجتمع واتجاهات الافراد ازاءها، كل هذه العوامل تحدد السمات الاساسية للشخصية القومية.

فى ضوء ذلك كله. يمكن القول ان دراسة الشخصية العربية تثير من المشكلات النظرية المنهجية ما تثيره دراسات الشخصية القومية بوجه عام غير أنه بالاضافة الى ذلك فان دراسة الشخصية العربية تثير مشكلات أخرى على جانب كبير من الأهمية. فهل هناك شخصية قومية عربية واحدة بالرغم من تعدد وتباين الاقطار العربية من المحيط الى الخليج؟ وما هى الأسس التى تستند اليها هذه الشخصية العربية؟ وإن كان ثمة شخصية قومية عربية فكيف يمكن أن نفسر الفروق النفسية والحضارية والاجتماعية بين الشخصية العراقية مثلا والشخصية المصرية، أو بين الشخصية الجزائرية والشخصية التونسية؟

هكذا تتحدد مشكلة البحث محاولة التعرف على النسق الرئيسى وهو الشخصية العربية، ثم ايجاد المعايير التى على اساسها يتمايز هذا النسق الرئيسى عن الانساق الفرعية مثل الشخصيات العراقية والمصرية والتونسية.

أولا: أمه واحدة أم أمم متعددة؟

اذا كنا قد تبنينا فى مقدمة هذا البحث تعريفا للشخصية القومية بوجه عام مفاده انه «السمات النفسية والاجتماعية والضحارية لامه ما، التى تتسم بثبات نسبى والتى يمكن عن طريقها التمييز بين هذه الأمة وغيرها من الامم» ، فان السؤال المبدئى الذى يطرح نفسه

هو: هل يكون العالم العربى أمه واحدة أو انه على العكس تجمع أمم متعددة؟

هكذا بدأ اسطنبولى وزغل بحثهما «الأمة القومية والدولة القومية فى العالم العربى[٤] الذى نشر فى أشغال الملتقى حول «الذاتية الثقافية والضمير القومى داخل المجتمع التونسى».

يقرر الباحثان فى الاجابه على هذا السؤال ان نظره سريعة على المحيط الاجتماعى السياسى العربى تبرز لنا واقعا مركبا ومتناقضا، بتحليلة يمكن لنا أن نستخلص بعدين اساسيين: تكوينات اجتماعية من ناحية، وحركات ايديولوجية من ناحية اخرى ويمكن تصنيف التكوينات الاجتماعية فى ثلاثةنماذج اساسية:

(١) دولة قومية تمتلك تقاليد قديمة فى بناء الدولة، وهى قد استخلصت سيادتها من الاستعمار الاوروبى عقب حركة قومية خاصة فى اطار اقليمى محدد (مثل مصر والمغرب وتونس).

(٢) دولة تكونت حديثا كمحصلة لعملية تقطيعمصطنعة، ولم تحصل على سيادتها من خلال حركة قومية مستقلة (مثل الاردن).

(٣) دولة قومية مهددة من داخلها بالانفصال من خلال حركات قومية غير عربية تنادى بحقها فى الاستقلال الذاتى (مثل السودان والعراق).

(١) اما الحركات الايديولوجية هدفها الصريح هو العودة الى التقاليد الاسلامية فى عصر الرسول.

(٢) حركة قوميةوليدة، وهى القومية الفلسطينية التى تطالب بدولةقومية فى اطار اقليمى، لم تمارس عليه من قبل السيادة الفلسطينية فى شكل دولة قومية بالمعنى الحديث للمصطلح.

(٣) حركة قومية هدفها اقامة دولة قومية تضم الوطن العربى فى شمولة.

وقد حاول الباحثان للاجابه على السؤال المبدئى الذى طرحاه ان يستخلصا اولا عددا من المبادئ النظرية التى تتعلق بالتكوين التاريخى للامم الحديثة فى أوروبا، والعوامل الحاسمة التى أثرت فى هذا التكوين، ومن أهمها وحدة اللغة، وظهور السوق القومى المرتبط بالتصنيع، ووجود التراث الثقافى المشترك الذ ى كان عاملا مساعدا على ظهور وتبلور حركة ايديولوجية قومية. وتوصل الباحثان الى نتيجة هامة يستحسن اقتباسها بالكامل: «الامة على عكس الدعاوى القومية التى ظهرت فى بداية القرن التاسع عشر (فى حركة المدرسة الألمانية)- لاينبغى اعتبارها وكأنها واقعة طبيعية تعطى مرة واحدة والى الابد. وتعتبر تجسيدا «لمبدأ روحى» كما كان يقول فضتهة بل انها واقعة تاريخية تتحدد بشروط اجتماعية اقتصادية محددة وهى معاصرة للمراحل الاولى للتصنيع وهى نتاج حركة ايديولوجية كان طلائعها المثقفين ولجماهير البروليتارية، وكان هدفها الحصول على السيادة والسيطرة على الدولة بواسطة الموطنين ومن ناحية أخرى فالايديولوجية انتقائية، وهى غالبا ما تتكون عن طريق التمييز ضد بعض السمات المكونة للثقافة الوطنية، وتركها فى ظل، واعلاء يعض المسات الاخرى».

وإذا كانت هذه الخلاصة المركزة تتفق مع منجهنا فى النظر الى موضوع نشأة الدول القومية، الا ان الباحثين تحاشيا الاجابة على السؤال المبدئى: أمة عربية واحدة أم أمم متعددة؟ ذلكأنهما صاغاه

بطريقة أخرى حين ذكرا أنه من الأفضل التساؤل هل تستطيع القومية العربية باعتبارها حركة ايديولوجية ان تعبئ الجماهير لاقامه دولة قومية قادرة على البقاء؟.

وفى تقديرنا ان هذا التساؤل رغم وجاهته واهميتة- يبعدنا عن السؤال الرئيسى الذى يطرح منذ البداية، والذى كان يمكن للباحثين ان يجيبا عليه لو حللا التنصيف الذى وضعاه للدول العربية.

ما الذى يكون أن نستخلصة من هذا التنصيف للتكوينات الاجتماعية العربية؟

أن أول ملاحظة استخلاصها هو عدم التجانس بين هذه التكوينات الاجتمعية. فهناك أولا الدول القومية صاحبة التقاليد العريقة فى بناء الدولة. وهناك الدول التى تكونت حديثا، وهناك أخيرا الدول القومية المهددة من داخلها بحركات انفصالية. ولكن يثور السؤال الهام. على عدم التجانس الواضح هنا ينفى فى حد ذاته ان هناك أمة عربية واحدة، ويؤيد الرأى الذى يقول بوجود، أمم عربية متعددة؟ ومن ناحية أخرى ماذا يعنى تعدد الحركات الايديولوجية فى الطون العربى، ووجود حركة ايديولوجية اسلامية فى نفس الوقت مع حركة ايديولوچية قومية؟ فى رأينا مبدئيا ان هذا التفاوت فى التكوينات الاجتماعية فى الوطن العربى، وهذا التحدد الايديولوجى، ليس دليلا بذاته على عدم وجود أمه عربية واحدة. والمسألة أولا واخيرا تتوقف على المعيار الذى سنعتمده لتعريف من هم العرب الذين يكونون الامه العربية؟

وبالرغم .من ان تعريف العرب فى ذاته قد لا يكون جامعا مانعا،

الا أنه لابد من بذل محاوله لتحديد السمات الاساسية بذكر المؤرخ برنارد لويس أن أول ظهور لمصطلح «العربى» كان فى عام ٨٥٣ قبل الميلاد. غير انه لم يتبلور منذ ذلك الوقت تعريف محدد لمن هم العرب وقد حاول بعض المؤرخين الغربيين صياغة هذا التعريف فيذهب جب على سبيل المثال الى أن العرب هم شعب يتمركز حول ذاكرة تاريخية وانه يعتبر من العرب كل المن كانت الواقعة المحورية فى التاريخ بالنسبة له هى رسالة محمد، وذكريات الامبراطوريه العربية. والذين بالاضفة الى ذلك يتكلمون العربية، ويعتبرون تراثها الثقافى من موروثهم العام(٥).

ويرى بيتر ايسان فى مقالته «جوهر القيم العربية»(٦) أن المفهوم فى مجمله له طابع لغوى وثقافى، ولايصل من الطابع الدينى الا اثرا قليلا ويحمل عرضا طابعا قوميا أو عرقيا ويستشهد نفس الكاتب بتعريف عبد الناصر الذى قال فيه «كل انسان لغته الاصلية هى العربية فهو عربى» ويضيف الى ذلك تعريفا تبناه عالم اجتماع عربى مفاده «كل من يعيش فى بلادنا، ويتحدث لغتنا، وتربى فى ثقافتنا ويحس بالاعتزاز لامجادنا فهو عربى».

ونستطيع ان نستخلص من كل ما سبق عددا من العوامل التى يمكن بالارتكاز اليها الحديث بيقين عن أمه عربية واحدة: الخمرة التاريخية المشتركة، اللغة العربية، التراث الثقافى المشترك.

واذا كانت كل العوامل السابقة تنتمى وافقا للتحليل الاشتراكى العلمى الى البناء الفوقى، فانه يدعمها انها الغطاء لبناء تحتى نما وتطور بشكل متشابة الى حد كبير فى مختلف اقطار الوطن

العربى، اذ يمكن القول ان قوى الانتاج وعلاقات الانتاج على مستوى الوطن العربى قد نمت وتطورت بشكل متشابه من السمات التى قد نجدها فى تكوين اجتماعى اقتصادى محدد والتى قد لا نجدها فى تكوين اجتماعى اقتصادى أخر.

بعبارة اخرى هناك بنيه اقتصادية عربية اساية ينبغى تحديد سماتها ودراستها دراسة عميقة لفهم المكونات الحقيقية للشخصية العربية.

وعلى أى الاحوال، يبقى التعميم السابق مجرد فرضية ينبغى اثباتها من خلال الدراسات المتعمقة التى لم تجر حتى الآن بشكل متكامل كل ذلك اذا استثنينا بحث رودنسون عن «الاسلام والراسمالية» وكتاب د. عبد العزيز الدورى «مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى»[٧] (١٩٦٥)، الذى رغم أهميته وريادته، فانه بتقديم بانوراما سريعة لمجمل التاريخ الاقتصادى العربى فى المشرق دون المغرب والكتاب الاخير للدكتور سمير امين الذى نشره بالفرنسية والموسوم «الامه العربية القومية وصراع الطبقات»[٨] (١٩٧٦)، الزاخر بالفروض العلمية التى تحتاج الى عشرات البحوث للتحقيق منها.

ثانيا: النسق الرئيسى: الشخصية العربية: السمات البارزة

فى ضوء العرض الاسبق نستطيع ان نوجز نظريتنا فى الشخصية العربية والشخصيات الاقليمية الاخرى، او بعبارة اخرى فى النسق الرئيسى والانساق الفرعية، فى عدد من المقولات الاساسية:

١– هناك شخصية عربية تعبر عن أمه عربية واحد.

٢– تقوم الشخصية العربية على دعامتين اساسيتين: نمط اساسي للانتاج نما وتطور فى البلاد العربية كلها وفق مراحل متشابهة، وبناء فوقي واحد زيرز عناصره: الخبره التاريخية المشتركة واللغة العربية والتراث الثقافي المشترك.

٣– تتميز الشخصيات الاقيليمة المختلفة فى الوطن العربى بحكم تميز التكوين الاقتصادى– الاجتماعى لكل منها. بعبارة أخرى تفرد التاريخ الاجتماعى لكل شخصية اقليمية يكسبها سمات فريدة لاتوجد فى شخصيات اقيليمة أخرى فهناك سمات للشخصية المصرية ليس ضروريا تواجدها فى الشخصية العراقية او التونسية.

٤– الشخصية العربية والشخصيات الاقيليمة بحكم الارتباط الأولى بنمط الانتاج السائد وارتباط الثانية بالتكوين الاقتصادى– الاجتماعى لكل منها، ليست بناء مجردا مغلقا، وانما هى تتغير بتغير نمط الانتاج السائد، أو بتغير المكونات الاساسة للتكوين الاقتصادى الاجتماعى المحدد. وترتيبا على ذلك ينبغى رفض أى تعميم عن شخصية العرية ينظر الى حصر سماتها باعتبارها سمات ثابته لا تتغيار مع مرور الزمن.

فى ضوء هذه المقولات المحددة، يمكن ان نتقدم خطوة اخرى نحو اعطاء مضمون حى لهذه المبادئ النظرية.

ظهور وتطور نمط الأنتاج فى الوطن العربى : اذا طالعنا السطور الأولى لكتاب الدكتور عبد العزيز الدورى «ومقدمة فى التاريخ

الاقتصادى العربى» الذى سبق أن أشرنا اليه اشارة عابرة، نجد لا يخالجة ادنى شك فى انه يتحدث عن التاريخ الاقتصادى لامه عربية واحد. أنظر اليه يقول: «ان فهم خبرات الامة وتتبع سيرتها التاريخية، ضرورة اولية وعى الحاضر وبداية لازمة للانطلاق الى المستقبل».

ويعرض الاستاذ الدورى فى المقدمة لخطته، التى تلخص المسيرة العامة لظهور وتطور نمط الانتاج فى العالم العربى فيقرر.

واعتبر القرن الاول للهجرة (السابع الميلاد) فترة تكوين الامه وتعبذتها للجهاد وفترة الهجرة الكبرى للقبائل الى الامصار، وانتقالها من حياة الترحل الى الاستقرار وكانت الفترة التالية– القسم الاكبر من القرن الثانى للهجرة (الثامن للميلاد) فترة تأكد فيها الاهتمام بملكية الارض، وظهرت فيها الملكيات الكبيرة، وفترة ظهور الموالى قوة جديدة بانتشار الاسلام، وفترة توهج العصبية القبلية، وما رافق ذلك من مشاكل انتهت بالثورة العباسية وتلتها الفترة الثالثة، حتى القرن الرابع للهجرة (العاشرة للميلاد) وهى فترة نمو المدن، وازدهار التجارة والصيرفة، وتوسع الملكيات الكبيرة فى الارض، وظهور رأسمالية تجارية صيرفية وقيام حركات شعبية ثورية.

وتبدأ الفترةالرابعة بتسلط البويهيين (فى اواسطالقرن الرابع العاشر) وانحراف خط التطور الاقتصادى، ويتراجع النشاط التجارى، وضمور النقد ومؤسساته، وعوده الاعتماد على الزراعة، وأخطر من ذلك ظهور الاقطاع العسكرى الذى عن بالتدريج حتى

شمل المنطقة كلها، وكانت هذه الفترة بداية النهاية لكيان العرب السياسى وحريتهم، بتسلط العناصر الاجنبية، بويهية ثم تركية. كما شهدت طلائع الغزو الاوروبى فى الحروب الصليبية، وكانت فترة فى تجزئة فى البلاد العربية.

وتأتى الفترة الاخيرة فترة السيطرة العثمانية، وهى فترة ركود اقتصادى فى البلاد العربية، افتتحت بسيطرة البرتغاليين على طريق التجارة الى الهند وبضرب الملاحة العربية– وهى من عناصر الرخاء الاقتصادى– وختمت بالاستعمار الغربى وبدأت الفترة بنظام اقطاعى فرضتة الدولة أو اقرنه وانتهت بتكوين الاقطاع الجديد فى القرن التاسع عشر واوئل القرن العشرين، وهى فترة جعلت للبلاد العربية ولايات على هامش الاحداث وعرضتها للتغلغل الغربى واكدت التخلف فيها.

وهكذا يظهر من هذا الاقتباس الطويل المسيرة التى مر فيها نمط الانتاج فى المشرق العربى، الذى نظر اليه الدكتور الدورى كوحده واحدة واذا كان لم يدخل فى بحثه التطور فى المغرب العربى، فان سمير أمين فى كتابه «الأمة العربيه» يستعرض تطور نمط الانتاج فى المشرق العربى والمغرب معا. وهو يلاحظ– فى استعراضة لاقطار المختلفة فى الوطن العربى فى المرحلة قبل الاستعمارية وتمييزة بين المشرق من ناحية ومصر بمفردها من ناحية أخرى واخيرا المغرب من ناحية تاليةانه بالرغم من القرون بين كل منطقة، الا انه مع الزمن تبين ان هناك حد ادنى من التشابة فى البنيه الاجتماعية– الاقتصادية– فى المشرق والمغرب، مع تمايز واضح لمصر.

ويؤكد هذه النتيجة على الوردى حين يتحدثعن صراع البداة والحضارة على اتساع العالم العربى ويقوم بتصنيف للاقطار العربية من هذا المنظور يقول الورى:

«نستطيع على أى حال تصنيف الأقطار العربية.. الى تلاه اصناف رئيسية:

١- صنف يشبه العراق من حيث وجودا الحضارة والبداوةفيه جنبا الى جنب، تسيطر عليه الحضارة تارة والبدواة تاره اخرى. ويشمل هذا الصنف اكثر البلاد كالاردن والشام والمغرب وتونس والجزائر واليمن.

٢-صنف البداوة فيه أشد واكثر تأثيرا من الحضارة (نجد والاحساء والعسير وليبيا والجزء الصحراوى من الجزائر وعمان وحضر موت).

٣- الحضارة أقوى من البداوة وهو صنف نادر الوجود فى العالم العربى. والقطر العربى الوحيد الذى تتمثل فيه خصائص هذا الصنف هو الى حد ما القطر المصرى ولاسيما الوجه البحرى. اما الصعيد فيكن عدة من المصنف الاول (يشبة العراق).

العناصر الاساسية للبناء الفوقى العربى: سبق ان ذكرنا ان البناء الفوقى الواحد فى الوطن العربى ينهض على ثلاثة عناصر بارزة: الخبرة التاريخية المشتركة، واللغة العرية، والتراث الثقافى المشترك. ويكفى بالنسبة للعنصر الاول ان نتذكرالخبرة التاريخية المشتركة للامة العربية بين خضعت غالبية اقطارها للهيمنة العثمانية حوالى خمسة قرون، اصابتها بالعقم والجمود وكانت تمثل مرحلة انهيار

حضارى حقيقية ومن ناحية أخرى مازالت حيه فى اذهاننا الخبرة التاريخية المشتركة للامه العربية فيالكفاح ضد الاستعمار والهيمنة الغربية بكل صورها واشكالها: وصاية كانت أو انتدابا، أو احتلالا، أو استعمارها استيطانيا. (راجع بهذا الصدد الدراسة البالغة الاهمية لبروان: نحو تاريخ مقارن للتحدث فى العالم العربى: تونس مصر، استجابات متشابهة لتحديات مشابهة، ملتقى الذاتيه الثقافية والضمير القومى).

اما بالنسبة للغة العربية، نموها وتطورها وقدرتها على مجاراة روح العصر، فمشكلاتها واحدة على مستوى الأمة.

ويبقى اخيرا التراث الثقافى المشترك، الذى مازال جيا فى اذهان الامة العربية، والذى من فرط ترسخة وتجدره فى الوعى العربى، وفى الوجدان العربى يراه بعض النقاد العرب عائقا حقيقيا فى سبيل التطور والتقدم ويكفى ان تقرأ اعمال ندوة «ازمة التطور الحضارى فى الوطن العربى»[٩]، التى عقدت فى الكويت من ٧- ١٢ أبريل (نيسان) ١٩٧٤، التى شارك فيها نخبة ممتازة من المفكرين العرب. لكى نعرف ماذا يعنى التراث الثقافى المشترك، وماذا تعنى مشكلات التطور المشترك على مستوى الأمة العربية كلها.

وبالرغم من تفاوت اتجاهات المفكرين المشاركين فى هذه الندوة من اقى اليمين الى اقصى اليسار مرورا بالوسط، واختلافهم فى النظرية والمنهج، الا أنهم جميعا حين تعرضوا لموضوع التطور الحضارى، كانوا يتعرضون له على مستوى الأمة وليس على مستوى كل قطر على حدة، ادراكا منهم بالوحدة العميقة التى تسير

البناء الفوقى العربى ويؤكد ذلك بشكل بارز شوقى عبد الحكيم فى كتباه «أساطير وفولكلور العالم العربى» (كتاب روز اليوسف القاهرة ١٩٧٤، ص ٩ من المقدمة، وص ١٢ حين يقرر «أن معظم - أن لم يكن فولكلور الشعب المصرى، ينتمى فى مجملة لتراث البلدان العربية المتاخمة المجاورة، أى هناك حقيقة عربية تتمثل فى هذا التراث المتجانس، الذى يلتقى تحت لوائة القديم، جنبا الى جنب مع السورى أو الاشورى، واليمنى القحطانى مع العربى العدنانى فى السعودية».

ولا يعنى ان البناء الفوقى العربى بالثبات، بل أن نتيجة للتغيرات التى تفاوتت فى عمقها والتى لحقت بنمط الانتاج، يمر بمرحلة تغيرات بالغة العمق، بعبارة أخرى تتفكك روابط وتنشأ علاقات أخرى بين مختلف مكونات، تحت تأثير عوامل تغير بالغة التنوع.

ويناقش هذا الموضوع شارناى فى دراستة «جوانب التفكك الثقافى والتألف القومى وهو يميز تميزا ذكيا بين عصر النهضة الثقافية الاولى الذى بدأ فى نهاية القرن التاسع عشر، وعصر النهضة الثقافية الثانية الذى واكب عمليات التنمية الاقتصادية واسعة المدى فى الوطن العربى فى السنوات الاخيرة، حيث برز مفهوم الاستراتيجية الثقافية الذى يشير الى عمليات الاحياء الثقافى والتغيير المخطط المدروس للقيم التقليدية فى الموروث الثقافى»(١٠).

وخلاصة ما سبق، ان نمط الانتاج العربى فى الوطن العربى، والبناء الفوقى أيضاو لحقتها فى السنوات الاخيرة تغيرات بالغة العمق، تجعل من قبيل الجمود الفكرى التعلق بالاوصاف والسمات

التقليدية التى كثيرا ما أسبغت على العرب كأمة وكمجتمع وكشخصية قومية، ولم يفت بعض الباحثين الاجانب مثل ويليام بولم فى كتابه «الولايات المتحدة الأمريكية والعالم العربى»(١١) (الطبعة الثالثة ١٩٧٥) ان يخصص الفصل التاسع عشر كله للحديث عن «التغير الاجتماعى والرجال الجدد». ويركز على ان انبثاق الجديد من القديم فى العالم العربى فى الاجيال الاخيرة، على مستوى البشر والعادات والقيم والتقاليد واساليب الحياة، ظاهرة من اهم الظواهر المعاصرة فى الوطن العربى.

ويقرر لويس عوض فى كتابة تاريخ الفكر المصرى الحديث» أنه:

«لا مناص من اعتبار حملة بونابرت على مصر فى ١٩٧٨ وماتلاها من اتصال مستمر من مصر وأوروبا عاملا فاصلا فى تكوين الأفكار السياسية والاجتماعية بالمعنى الحديث فى مصر خاصة وفى العالم العربى بوجه عام.وبتحليل هذا الالتقاء العنيف المستمر منذ الحملة الفرنسية بين مصروالحضارة الغربية، نستطيع ان نتتبع تكون الأفكار السياسية والاجتماعية والثقافية الاساسية بالمعنى الحديث من خلال عناصر رئيسية:

١- التجارب المختلفة لبناء هيكل الدولة وتنظيمها السياسى والادارى والقانونى على الطراز الحديث.

٢- التطورات الاقتصادية والمادية التى استجدت فى مصر والعالم العربى نتيجة لتصفية الاقطاع التركى المملوكى واعادة تنظيم العلاقات القومية والطبقية ايام الحملة الفرنسية ونتيجة للثورات الصناعية والتكنولوجية التى استحدثها محمد على..

٣- التطورات الاجتماعية التى استجدت فى مصر والعالم العربى

عن طريق الادب خاصة والصحافة عامة والكلمة المكتوبة بوجه اعم. أو عنطريق الاختلاط الحضارى الثقافى المباشر وغير المباشر بارتياد مصر لاوروبا أو بارتياد اوروبا لمصر عن طريق البعوث او عن طريق الجاليات الوافدة علينا.

٤- التيارات الفكرية التى استجدت فى مصر والعالم العربى نتيجة هذا الالتقاء بالحضارة الغربية وللصراع معها، ولاسيما فيما يتصل بالمعتقدات السياسية والاجتماعية والثقافية، وفميما يتصل بالعلاقة بين العلم والايمان وبمواجهة الفكر الدينى لمقومات الحضارة الحديثة بوجه عام.

٥- التيارات الاوروبية والتنمية التى استجدت فى مصر والعالم العربى نتيجة للتوصل الثقافى مع أوروبا ولاسيما ما يتصل منها بتطور اللغة واشكال التعبير الاوروبى والفنى»(١٢).

من هنا يمكن القول بأنه بغير اصطناع المنهج التاريخى فى دراسة الشخصية العربية والدعامات التى تنهض على اساسها، يمكن ان يصل الباحث الى نتائج خاطئة ولا اساس لها. ولعل هذا النهج هو الذى لجأ اليه بعض الباحثين الغربيين المتحيزين مثل مورو برجر وسنيه حمادى، واقتفى أثارهم الباحثون الاسرائيليون الذين ركزوا على سمات بالغة السلبية فى الشخصية العربية، يجوز انها كانت تمييزها فى حقب تاريخيةماضية، كانت تتسم بالتخلف الحضارى، غير أنها تغيرت ولو تسببا فى الوقت الراهن(١٣)، غير أنهم لا يريدون ان يلفتوا للتغير. فالحديث عن العجز الحضارى فى المجتمع العربى أو عن الافتقار الى المباداة، أو عن الهروب من الواقع. أو عن

الفردية وكراهية الجماعية، كلها سمات ركزت عليها الكتابات الغربية وبعض الكتابات العربية وكأن الشخصية العربية تكوين مصمت خارج عن الزمن، وبعيد عن تيار التاريخ، ثابت ثباتا ابديا ولا يتغير.

التطور التقليدى لسمات الشخصية العربية : نقصد بالتصوير التقليدى التركيز على السمات السلبية فى الشخصية العربية بدون مراعاة لجوانب التغير الايجابية فى كثير من جوانب الشخصية العربة ونجد هذا الاتجاه لدى عدد من علماء الاجتماع العرب التقدميين الذين لا شبهة فى حقيقة ايمانهم بفاعلية الشخصية العربية وقدرتها على التطور وكواكبة روح العصر.

وتفسيرنا لهذا الافراط لدى هؤلاء فى اختيار السلبيات هو أن ذلك نوع من النقد العنيف، الذى يراد منه احداث صدمة لدى الوعى العربى المعاصر، للتعجيل بالتحديث والتنمية والتغير الثورى. ولناخذ مثلا على هذا التصوير التقليدى دراسة لحليم بركات موضوعها: «النظام السياسى بين القيم الحضارية التقليدية والحديثة»(١٤) وبالرغم من ان بركات يتحدث عن لبنان اساسا الا انه يعمم الحديث عن الوطن العربى كله والسؤال الذى يطرحة بركات هو: ما هى القيم التى تستند اليها النظم السياسية فى البلاد العربية؟ ويجيب: انها تقوم على الاتجاهات القيمية التالية:

١-القيم القدرية لا قيم الخلق والسيطرة على المحيط عنده ان النظام السياسى كغيرة من النظم والافراد والجماعات عندنا بشكل عام يأخذ موقفا تجاه يرتكز على القبول والاستسلام والقناعة لا

على المجابهة والخقل والتحدى والطموح.

٢- القيم التى يقوم عليها السياسى، بل حياتنا بشكل عام، هى قيم سلفية مغلقة لا مستقبلية منفتحة. والمقصود من هنا ثلاثة اشياء اولاها كون التخطيط غير وارد فى حياتنا والثانى هو اننا نستمد عزاء نفسيا كبيرا من الماضى فنميل الى الاكتفاء بهذا العزاء والثالث هو اننا نحكم على الاشياء وتقييمها فنقبل بها أو نرفضها على ضوء العرف والعادات والكتب المقدسة.

٣- قيمنا قيم فورية لا منهجية (نتحبس لبعض القضايا لمدة ثم نتصرفعنها الى قضية أخرى). لا ننظم علاقتنا بها بشكل منهجى. ثم ان اهدافنا مبنية على الامنيات لا على الواقع. لا نربط بين الاهداف والطريق المؤدية اليها. تصرفتنا كثيرا ما تتناقض مع اهدافنا.

٤- تفضيل المكاسب الآتية على المكاسب بعيدة المدى.

٥- قيمنا مطلقة اكث من نسبية.

٦- قمنا عائلية لا وطنية فردية.

ويرى بركات ان عدة دراسات اظهرت ان هناك علاقة سلبية بين التحديث ومدى الاندماج فى العائلة. من بين هذه الدراسات دراسة ترينا ان المجتعات غير النامية تمتاز عن المجتمعات النامية باندماج الفرد فى عائلته ويضيف ان باحثا (منير بشور) فى دراسة تحليلة لمضمون الكتب المدرسية اليت اختارتها وزارة التربية والتعليم فى المرحلة الابتدائية ان اسماء افراد العائلة (اب، والد، أم، زخ، أبن) ترد ١٢٣٨ مرة، بينما ترددت كلمات تتعلق بالوطن والشعب (وطن،

أمة، الشعب، حكومة، دولة، مجتمع، استقلال) ١٠ مرات فقط!

قمنا ذاتية خاصة لاعامة موضوعية.

٨- قيمنا عمودية لا أفقية (العلاقات السائدة هى علاقات سيد بمسود لا علاقات زماله ورفقة انداد).

٩- قيمنا تعطى الخبرة والسن الا فضلية على الشباب والعلم.

١٠- قيمنا تشجع على استيراد المقتبسات المعلبة لا المقتبسات الفكرية خلال احتكاكنا بالحضارة الحديث.

هذا مجرد مثال واحد من امثلة متعددة لسرد للسلبيات المختلفة التى تميز الشخصية العربية وغنى عن البنيان الاسراف الشديد فى التركيز على السلبيات حتى اننا لانجد ايجابية واحدة تستطيع ان تزهو بها الشخصية العربية! ولو كان هذا صحيحا لما اتيح للأمة العربية ان تتطور وتجتاز اختيارات العصرية والتنمية والحداثة.

ولعل احد أسباب هذه المنحى التقليدى فى تحديد سمات الشخصية العربية هو المناخ الاكتئابى الذى ساد الوطن العربى عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧، وحالة اليأس والقنوس التى انتابت كثيرا من المفكرين والمثقفين العرب.

ولعل حرب أكتوبر قد تكلفت بذاتها فى نفى عديد من هذه السمات السلبية وبالرغم من ان كلمات تتعلق بالوطن والشعب قد لا تكون قد ترددت كثيرا فى الكتب الدراسية المصرية- لو طبقنا منهج تحليل المضمون بسذاجة الا ان ذلك لم يمنع المقاتل المصرى من ان يقتحم قناة السويس بصورة فدائية بارزة.

ثم ان الزعم من ان ارتباط الفرد بعاذلته من معوقات التنمية

بعد– فى نظرنا– مجاراة سطحية لبعض التعميمات التى وردت فى أدبيات التنمية الغربية، والتى ينبغى ان نسقطها من حسابنا تماما. ذلك ان هذه الرابطة العائلية الوثيقة فى الأسرة العربية هى– بأى معيار شئنا– من ابرز السمات الايجابية فى الشخصية العربية ولا نريد هنا ان نتحدث عن انهيار الاسرة كمؤسسة اجتماعية فى البلاد الراسمالية الغربية والآثار السلبية التى ترتبت على ذلك.

وخلاصة ما نريد ان نركز علية تأثير التغير الاجتماعى والاقتصادى سريع الايقاع على الشخصية العربية والتقليدية موضوع يحتاج الى دراسات عميقة للشكف عن السمات الايجابية البازغة، وتحديد السمات السلبية المنقرضة.

ان الانسان العربى فى الوقت الراهن يمر فى غمار عملية تغير اجتماعى وثقافى واسعة المدى بفعل جهود التنمية المختلفة فى الوطن العربى. وهذا الانسان الجديد بكل المشاكل التى يجابهها فى ميلادة، يحتاج الى رصد ودراسة بدلا من القناعة بترديد الاوصاف والسمات التقليدية التى هى من ميرات الماضى والأخذ فى الانقراض وليستالعلامات البارزة للحاضر.

ثالثا : الانساق أو الشخصيات الاقليمية

طبقا للمقولة الثالثة فى نظريتنا المقترحة تتميز الشخصيات الاقيليمة المختلفة فى الوطن العربى بحكم تفرد التاريخ الاجتماعى لكل شخصية اقليمة مما يكسبها سمات فريدة قد لا توجد فى شخصيات اقيليمة اخرى. ومما يؤكد صحة هذه المقولة اتجاه المفكرين والباحثين العرب الذين درسوا بعض الشخصيات

الاقيليمة المحددة كالشخصية المصرية والشخصية التونسية الى تأكيد عليها فى دراساتهم، كل ذلك مع الحرص على ربط الشخصية الاقليمية المحددة بالنسق الرئيسى أو بعبارة أخرى بالشخصية العربية.

سنعرض- من هذه الزواية- لثلاث عن الشخصيات العراقية والمصرية والتونسية.

فى كتاب الدكتور على الوردى دراسة فى المجتمع العراقى: محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربى الاكبر فى ضوء علم الاجتماع الحديث(١٥) نراه فى مقدمة الكتاب يعرض لبعض أوجه الانتقادات التى وجهت الى دراسته، ومن بينها انه كان اولى به ان يدرس المجتمع العربى اولا ، لأن المجتمع العراقى ليس وسى جزء من الوطن العربى الاكبر.

ويرد الدكتور الوردى على منتقدية مقرراً: سزنى فى هذا الرأى مخالفة كبيرة. أود زن سالهم هنا: كيف يمكن دراسة المجتمع الكبير من غير دراسة الاجزاء الصغيرة منه على حده.. لاشك فى وجود صفات عامة يشترك فيها العرب فى مجتمع اقطاعرهم. ولكننا مع ذلك يجب ان نعترف بوجود صفات مختلفون فيها ايضا» . ويضيف «.. من خصائص الوطن العربى انه يشمل بقعه من الكرة الارضية واسعة جدا ، فهو يمتد من المحيط الاطلس الى الخليج العربى. . . وهذا التباعد بين أقطار الوطن العربى الاخرى. فلم يحدث مثلا ان تمكن فاتح من فتح جميع الأقطار العريبة، ومن ابقائها تحت سيطرته المباشرة. ولهذا وجدنا ان كل قطرعربى له تاريخة الخاص

من النواحي السياسية والاقتصادية والدينية وما اشبه».

واذا انتقلنا الى كتاب محمد العزب موسى وحدة تاريخ مصر[١٦] لوجدناه بعد أن يخصص الجزء الأول من كتابه للحديث عن الاستمرارية والانقطاع فى التاريخ المصرى، يخصص الجزء الثانى للحديث عن عروبة مصر.

يقرر المؤلف فى تصويره للقسم الثانى من كتابه «اذا كنا خلصنا فى القسم الاول من هذا الكتاب الى وجود اتصال بين مراحل التاريخ المصرى رغم انقطاعة الظاهرى، والتى تقرير وحدة هذا التاريخ من اقدم العصور الى الآن، فان بذلك، لا يمكن ان يستقيم نهائيا الا اذا فهمنا تلك الظاهرة العميقة المعقدة فى تاريخ مصر الا وهى انتقالنا بحكم الضرورة التاريخية وطبيعة الاشياء الى حوزة العربية والاسلام». وهنا نلحظ ايضا الحرص على الربط بين الشخصية المصرية والشخصية العربية.

واخيرا نجد أفكار بالغة الوضوح حول تفرد الشخصية التونسية فى كتاب البشير بن سلامه الشخصية التونسية خصائصها ومقوماتها[١٧]، (١٩٧٤). ويدير المؤلف مناقشة ذكية حول أهمية دراسة الشخصيات الاقيلمية فى الوطن العربى، لان ذلك يمكن أن يؤدى فى التحليل النهائى الى الوحدة العربية، عن طريق معرفة السمات الفريدة فيكل شخصية اقليمية بل أن المؤلف ليتقدم خطوات ابعد من ذلك لكى يظل علىٰ أن هناك أمة تونسية متميزة عن الأمة العربية. ويصل الى هذه النتيجة باثاره سؤال مبدئى: ما هى الأمة؟ ويجيب «إنه لا يمكن لشعب ان يصبح أمة الا اذا أظهر بصورة مستمرة حية ارادة جماعة للعيش، عيشة مشتركة. واذا

عرف كيف يكون لنفسة الهياكل للازمة لوجودة كأمة قائمة بالذات، وكذلك اذا هو أمكن له إن تكون له نوع من الثقافة ونوع من القدرة على أن يحكم نفسه ويدير شؤونه». ثم ينطق ليطبق هذا التعريف بكل عناصرة على تونس، يلخص فى النهاية بانها امه ذات ثقافة متميزة فى اطار الحضارة العربية الاسلامية، معتمدا على تفرقتة بأن الحضارة يمكن ان تشمل عديدا من الثقافات.

هذا مجرد أمثلة محدودة من الدراسات التى عنيت بدراسة بعض الشخصيات الاقليمية العربية، والتى تركز جميعا- كقاعدة عامة- على التاريخ الاجتماعى الفريد لكل شخصية اقليمية باعتبار ان هذا هو الذى يبرز عن غيرنا من الشخصيات الاقليمية من ناحية، وعن الشخصية العربية باعتبارها النسق الرئيسى من ناحية أخرى.

ويضيق المقام عن التحليل النقدى لمناهج هذه الدراسات الاقليمية وللأخطاء الشائعة التى عادة ما تقع فيها. ولعل أخطر هذه الأخطاء قاطبة التركيز على التاريخ الاقليمى دون ما محاولة لربطة بالتاريخ القومى العام، ما يفتح الباب فى كثير من الاحيان على عديد من الثغرات.

ولو أخذنا التاريخ المصرى على سبيل المثال لاكتشفنا خطورة هذا المنهج فالتاريخ المصرى يتسم بعمق المجال التاريخى، وبالتنوع الشديد، وبالحلقات الممتدة، ولإيمكن فهم هذا التاريخ بغير الوعى بانه يتضمن ثلاث حلقات رئيسية هى: الفرعونية، والقبطية، والعربية الاسلامية.

تجاهل حلقة من هذه الحلقات يؤدى الى التحيز فى فهم الشخصية القومية بل وأكثر من ذلك، يجعل مهمة التحليل العلمى

بالغة العسر. يفعل ذلك أنصار القومية العربية الذين يتجاهلون عن عمد وعن غير عمد احيانا- المرحلة الفرعونية أو المرحلة القبطية من تاريخ مصر. ونفس المنهج الخاطئ هؤلاء الذين لا يؤمنون بعروبة مصر، ولذلك تجدهم ويرتدون بابصارهم الى الحلقة الفرعونية زاعمين ان المصريين الحاليين هم سلالة الفراعنة، أو أنهم ابناء الاقباط، متجاهلين خطورة الحلقة العربية الاسلامية التى أعادت تكشيل وصياغة الشخصية المصرية، وربطتها ربطا لن تنقضم عراه بالشخصية العربية.

ولعل مما يكشف عن هذا الانتقال الكيفى فى تاريخ مصر من القبطية الى العربية الاسلامية المقال الذى كتبه المؤرخ المصرى جمال الدين الشيال فى مجلة «الثقافة» القاهرية فى الاربعينات وعنوانه «تكون الشعب المصرى الجديد بعد الفتح الاسلامى».

وفى هذا المقال الهام يرصد الشيال التغيرات الجوهرية التى لحقت بالشعب المصرى، نتيجة انصهاره، مع القبائل العربية الوافدة مما حدا به الى أن يتحدث عن شعب مصر جديد، لغة ودنيا واشخاصا. ولايعنى هذا بطبيعة الاحوال اننا نرى ان هذا الانتقال قد تم دفعه واحدة وبغير مقاومه بل أنه التغير قد حدث من خلال عمليات اجتماعية ونفسية بالغة العمق يكفى ان تعرف وفق الدراسات المنشورة ان اللغة القبطية دافعت ببسالة عن حياتها ازاء اللغة العربية الوافدة خمسة قرون كاملة، الى ان سادت اللغة العربية، واصبحت هى لغة المجتمع حديثا وتعاملا وكتابة ونفس هذه العمليات لابد ان نجدها فيما يتعلق باعادة صياغة نسق القيم الرئيسى فى المجتمع، الذى اصبح بعد ذلك تريد ذاكرته الى عهد

الرسول عليه الصلاة والسلام، ويتكون ماضية الثقافى من ماضى الشعب العربى نفسه.

فى ضوء ذلك، هل يمكن دراسة التاريخ الحديث لمصر فى عزلة عن التاريخ القومى العام؟

ومن ناحية ثانية نجد من الاخطاء الشائعة فى الدراسات الاقليمية التى الحنا اليها، ظاهرة التمركز حول الذات التى تجعل الباحث يتحدث عن اقليمية- فى بعض الاحيان- بطريقة يبدو فيها الأعجاب الشديد بالسمات الفردية لبلده، والتى من الصعب توافرها فى بلد آخرا ويكون هذا عادة اخفاء شعوريا أو لا شعوريا لحس قلبى تعصبى ضارب فى وجدان الباحث ولعل مما يكشف عن هذه الظاهرة السلبية، تحليل مضمون الكتابات السياسية العربية فى أوقات الازمات والخلافات بين بلد عربى وبلد عربى آخر، فى كثير من الأحيان نجد مبالغة واضحة فى اظهار عظمة وتفرد بلد عربى معين، والتهوين من قدر بلد عربى آخر.

انظر على سبيل المثال المناقشة التى درات فى مصر مؤخرا حول حياد مصر وعروبةمصر. نجد توفيق الحكيم فى مقال له وعنوانه «الحياد المطلوب» نشر فى جريدة الاخبار القاهرية فى ١٨ مارس ١٩٧٨ يقول ما يلى بالحرف الواحد:

«... بل ان بعض الاشقاء الحاسدين لزعامة مصر الفكرية قد انتهزوا فرصه وقوع مصر على أرض الضعف والفاقة والاحتياج فعملوا على نقل زعامة مصر الحضارية الى بلادهم باغراء الكثيرين من اساتذة مصر ومفكرييها وطانيها بالاموال المكدسة فى خزائنها العامرة ليتركوا مصر ويقيموا النهضة الثقافية خارجها، وانشأوا

هناك المجلات والصحف العلمية والأدبية بالعقول المصرية على أحسن طباعة ورق، مما يشعر ان مركز الثقافة انتقل اليهم تاركا الفقيرة فى صورة التابع وليس المتبوع، كما لو كان السلطان سليم قد طلع من التاريخ عائدا، ونقل صناع المهرة وعقولها المستنيرة ليدعم بها بلاده... ما الذى بقى لنا اذن من مظاهر الزعامة القمادة؟»

لعل هذه الفقرة من مقال توفيق الحكيم تؤكد ما ذكرناه عن مشاعر التمركز حول الذات ولو تأملنا هذه الفقرة لاندهشنا من الحديثعن التابع والمتبوع، وعن الزعامة الحضارية لمصر التى تهددها الدول العربية حين تستعين بالعلماء والاساتذة والمفكرين المصريين!

لقد فات الحكيم وغيره من المفكرين الانعزاليين، أننا أمه عربيه واحدة، وأنه لما يشرف مصر أن تسهم بخبراتها العلمية والفكرية والأدبية فى نشر العلم والثقافة والمعرفة فى ربوع العالم العربى. وهل يمكن تشبية الاسهام الحضارى لمصر فى تحديث العالم العربى بما فعله سليم الاول حين حضر الى مصر واخذ معه صناعها المهرة الى اسطنبول؟ ما هى الزعامة الحضارية التى تقوم على احتكار المعرفة وتركيزها فى بلد عربى واحد؟

كل هذه امثله على قصور الاتجاهات الاقليمية، وجله اصحابها او تجاهلهم لحقائق الجغرافيا والتاريخ؟

وبعد، أن التحدى الحقيقى أمام الامه العربية سيكون هو كيف يمكن اقامه تأليف حى خلاق بين الانساق الفرعية والنسق الرئيسى، بين الشخصيات الفرعية على اختلافها وبين الشخصية العربية.

هوامش الكتاب

هوامش الفصل الأول

١- راجع بهذا الصدد ʃGlenn, E.S., et al., Acognitive interaction model to Analyse culture conflict in international relations. the journal of conflict resolution. vol XIV no I march 1970, 35-48.

٢٢- التفت عدد من الباحثين الاسرائليين الى أهمية هذا الجانب من جوانب الصراع.

انظر: Gilsenan. M., through a glass darkly, images of the middle east. paris : mouton. 1970 219 - 232.

Friedlander der, S., rèflexions sur l avenir isräcl. paris : ed duseuol, 1969, 23-25.

٣-- Hanna. S. Jslam. socialism and national trials. the muslim world, vol 31 4, (1968). 284 - 294.

٤- أنظر بهذا الصدد :

Scudder, L.R., Arab intellectuals and the implications of the defeat of 1967, unpublished M.A. thesis submitted of the american university of beirut, 1970.

Daher, A., current trends in arab interllectuals thought. the Rand corporation, december. 1969.

Dessouke. A., arab intellectuals and Al-nakba: the scarch for fundamentalism, (unpublished paper).

٥- وصفت إحدى الدراسات العربية النكبة عام ١٩٤٨ بأنها كشفت «عن مؤسسة عسكرية صهيونية تمتلك عمقا استراتيجيا فى مجموعة من

المؤسسات التنظيمية المترابطة حسب خطة موضوعة ومطوّرة من خلال المؤتمرات الصهيونية المتعاقبة».

أنظر : «عدو قوى ولكنه ليس اسطوريا» فى: «دراسات وتجارب ثورية»، مكتب الاعلام والتوجية، حركة التحرير الوطنى الفلسطينى «فتح» (بدون تاريخ).

٦- انظر: يسين (السيد) «الفكر العربى فى مواجهة الهزيمة» الكاتب، العدد١٣٦ ، يوليو١٩٧٢ (ص ٢٧-٣٧)

٧- من الجدير بالإشارة ان بعض الباحثين الاسرائليين اهتم بجمع وتصنيف وتحليل كل الكتابات العربية عن الصهيونية واسرائيل.

راجع رسالة الدكتوراه التى قدمها هاركابى للجامعة العبرية فى هذا الموضوع :

Harkabi, Y., arab attitudes to israel, jerusalem : israel universities press, 1972.

٨- بنت الشاطئ «الأبعاد التاريخية للمعركة»، الاهرام ٢ يونيو ١٩٦٧.

٩- أنظر فى نقد هذا المنهج، العظم (صادق جلال) دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية بيروت، ١٩٧٠ ، القسم الأول (ص ٩-٣٥).

١٠- أنظر: Dessouki, op. cit

١١- أنظر : شرابى (هشام) المثقفون العرب والغرب دار النهار ١٩٧١، ص ١٣.

وراجع المرجع التالى الذى يدرس بافاضة اللقاء بين المجتمع العربى والحضارة الغربية:

Hourane, A., arabic thought in the liberal age. (1798-1939), london: oxford university. 1967. 34-66.

١٢- Latuoi, A., L'idéologie arabe contemporaine. paris:

francois maspero, 1970, 3-11.

من الجدير بالإشارة أنه صدرت ترجمة عربية لهذاالكتاب بعنوان «الأيديولوجية العربية المعاصرة» ترجمة محمد عيناني، بيروت : دار الحقيقة، ١٩٧٠.

١٣- راجع بهذا الصدد: chejine, a. the use of history by modern arabic writers, middle east journal, 1960 (Autumn) 382 - 396.

١٤- من الجدير بالإشارة هنا مانُسب إلى اللغة العربية بما تتسم به من سمات نوعية خاصة - من تأثير فى النفسية العربية، وأثر ذلك على حدة الصراع العربى الاسرائيلى. ويرى بعض الباحثين أن اللغة العربية تتسم بما يلى : الغموض، التركيز المسرف على الدلالة النفسية للرموز اللغوية على حساب معانيها، الاستجابات الإنفعالية التى تتسم بأنها أفكار نمطية Sterco-types التأكيد المسرف والمبالغة، تصوير مستويين للحياة أحدهما مثالى والآخر واقعى. انظر: Shouby, E., the influence of the arabic language upon the psychology of the arabs, middle east journal, 1951. (Summer), 284-302.

١٥- راجع بهذاالصدد الصراع السياسى بين التيارات الفكرية المختلفة فى المجتمع المصرى عقب الحرب العالمية الأولى :

رمضان (عبد العظيم) :«تطور الحركة الوطنية فى مصر سنة ١٩١٨ - سنة ١٩٣٦»، القاهرة : دار الكاتب العربى، (بدون تاريخ).

البشرى (طارق) : «الحركة السياسية فى مصر (١٩٤٥ - ١٩٥٢)»، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.

١٦- أنظر : هاركابى (يهوشفاط)، «تيارات فى السياسة والاجتماع العربى بعد حزيران ٦٧»، تعريب فؤاد شابى، أعدّه وقدّم له الياهو أغاسى، تل أبيب، دار النشر العربى، (بدون تاريخ) وانظر أيضا: Shamir. S., arab intellectuals

and the war, in : to make war or to make peace, new out look, vol. 12, no. 5- 6, 1969.

١٧- Harkabi, Y., basic factors in the arab collapse durring the six- day war, in : orbis ouarterty gournal of world affairs, vol. XI. pall 1967 no. 3.

١٨- أطلق على هذا المعهد :«معهد ليفى أشكول للبحوث الاقتصادية والاجتماعية والسياسية»، ويرأسه الدكتور شلومو أفنيرى رئيس قسم الدراسات السياسية بالجامعة العبرية. وذكر رئيس المعهد أن الهدف من إنشائه هو إتاحة الفرصة للأكاديميين الاسرائيلين للبحث فى الشؤون الاسرائيلية المباشرة والتركيز على نتائج حرب ١٩٦٧ السياسية والاجتماعية. وحددت الموضوعات التالية للبحث : التغيرات العقائدية فى المجتمع الاسرائيلى، دور الصحافة فى حالات الطوارئ الوطنية، نتائج حرب الأيام الستة على العلاقات الاجتماعية داخل اسرائيل، أوضاع العرب فى اسرائيل، تطور المواقف داخل اسرائيل إزاء المشكلة الفلسطينية» (جيرو سالم بوست – الملحق الاسبوعى (١٩٧١/٣/١٢). نقلا عن : نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، السنة الأولى، عدد أول ابريل، ١٩٧١، ص ١٠.

١٩- أنظر على سبيل المثال :

Lewis, B., race and colour in Islam, encounter, august 1970, 18-36.

ونقد حسن (عبد الجليل)، «عن العرب الغفلة والعداء»، الكاتب، أبريل ١٩٧١، العدد ١٢١.

٢٠- Scudder, op. cit., 4 - 22.

٢١- انظر بصدد تطور هذه الابحاث وموضوعاتها الدراسة الشاملة لاتزيونى : Etzioni, A., social psychological aspects of interna-

tional relations, in : limdzey G., and arronson. (ed) the handbook of social psychology, 2nd v. 5., massachusetts addison wesley, 1969, 238 - 601.

وأنظر أيضا : يسين (السيد)، «نحو الدراسة التكاملية للصراع العربى الاسرائيلى : ١- الابعاد الاجتماعية والحضارية والنفسية»، دراسة غير منشورة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالقاهرة، ١٩٧٢.

٢٢- قدّم علماء الاجتماع السوفييت بصدد هذه الموضوعات وغيرها بحوثا إلى المؤتمر الدولى السادس لعلم الاجتماع الذى انعقد فى ايفيان بفرنسا عام ١٩٦٤، وذلك فى قسم خاص من بحوثهم الى المؤتمر بعنوان :«المشكلات السوسيولوجية للعلاقات الدولية، انظر :

La sociologie en U.R.S.S., rapports des members de la délégation soviétique au vie congrés international de sociologic, moscou: editions de progrés, 1966.

٢٣- أنظر أمثلة محددة على نماذج التحليلات الاجتماعية والسكولوجية التى يرى بعض الباحثين اجراؤها فى سبيل التوصل إلى فهم أعمق لابعاد الصراع العربى الاسرائيلى: Ben - dak, J.D., time for reorientation: israeli - arab conflict, journal of conflict resolution vol. 14, no., I., march 1970. 101 - 117.

٢٤- انظر: Dessouki, A., op, cit.

٢٥- راجع كتاب «معنى النكبة مجددا»، بيروت ١٩٦٩، لقسطنطين زريق وهو من أبرز ممثلى هذا التيار.

٢٦- أنظر هاركابى:«تيارات فى السياسة والاجتماع العربى، بعد حزيران ١٩٦٧»، مرجع سابق، ٢٦-٢٨.

٢٧- انظر :: Evaluation of reasons for success and failure, in keesing's contemporary archives, 1967 - 1968.

ومن الجدير بالإشارة إلى أن سكدر يصنّف هذه الأسباب إلى : أسباب عسكرية، وأسباب قومية وأسبب معنوية. راجع :

(٢٨) scudder, op. cit., 85- 187.

هوامش الفصل الثاني :

١- انظر : Terhune, K.W., From vational character to vation-al behvior: A refirmulation, the journal of cenflict, vol. XIV. no. 2. (june)1970.

٢- راجع بصدد دراسة أبعاد الشخصية القومية وتأثيرها على الصراع العربى – الاسرائيلى الدراستين التاليتين.

Ben- Dak, JD., Time for reorienlation Israeli arab conflict. the journal of conflict resolution. vol. 14, no. 1., march 1970, 101-117.

Beit- Hallahme, B., national character and national behavior in the middle east : the case of the arab personality, international journal of group tensions, vol. 2. no. 3., 1972, 19-28.

٣- سويف (مصطفى) :«مقدمة لعلم النفس الاجتماعى»، القاهرة : الانجلو المصرية، ص ٧٨.

٤- Freyre, G., Brazilian national character in the twentieth century, in:Ann. amer. acad. pol. and soc, sc. march 1967, 57-62.

٥- Riesman, D., some Questions about the study of american character in the twentieth century ibid., 36-47.

٦- Eysenck, H. J., Uses and abuses of psychology, london penguin, 1953, 243-260.

٧- Riesman, D., op. cit..

٨- Martindale, D., the sociology of national character, in the annals, op. cit., 30-35.

٩- Virtaner, R., french national character in the twenteith century, in : the annals, op. cit., 82-92.

١٠- Aron, R., Les étapes de la pensée sociologique, paris gallimard 1967, 223-229.

١١- Ozanne, H., "social character" as a sociologyical con- cept, American sociological review, vol. 8, 219-524.

Sebald, H., studying national character through compara- tive content analysis, social forces, vol. 40. 318-322.

١٢- Gould anf kolb, a dictionary of the social sciences, london: tavistok publications, 1964, 51-53.

١٣- Kardiner, A., the concept of basic personality structure as an operational tool in the social sceinces, in : Haring. D. G., (editor), personal chractor and cultural milieu, N. Y., sy- racuse unev. press, 3rd. 1964, 462-483.

١٤- Schaar, J. H., escape from arthouety, the perspective of erich fromm, N. Y.,: harper torchbooks, 1961, 85-98.

١٥- صاغ فرويد نظرية عن الغرائز، باعتبارها هى التى تفسر الأبعاد المختلفة للشخصية الانسانية وهو يميز بين فئتين منها : غرائز «الليبيدو» libido وغرائز «الأنا» ego، وقد أضاف من بعد غريزة ثالثة أطلق عليها «غريزة

الموت». والليبيدو يعنى ببساطة الطاقة الجنسية. غير أنه ينبغى الالتفات إلى ان صفة «الجنسية» عند فرويد تعنى الإشارة إلى ظواهر متعددة تتجاوز «الجنس» بمعناه الضيق. فهو يعنى عنده المعنى الواسع لكل الميول الغريزية التى تتوجه إلى اى موضوع أياً كان، خارج الكائن الانسانى نفسه. فالمتعة التى تنجم عن الصداقة، أو التى تتحقق من ممارسة البحث العلمى، أو من النجاح المادى، كل هذه الأمور يعتبرها فرويد مستقات من الطاقة الجنسية.

انظر فى تفصيل ذلك :

Allers, R., the successful Error, a critical study of freudian psychoanalysis london : sheed and ward. 1941.

١٦- أنظر تفصيلا لوجهة نظر «فروم» عن الاسهام الذى يقدم مفهوم «الطابع الاجتماعى» للنظرية الماركسية :

Fromm, E., The application of humanist psychoanalysis to marx's theory, in : fromm(editor), socialist humanism: an interntional symposium, N. Y.,: anchor books. 1966, 228-245.

١٧- cited in : schaar, J. H., op. cit., p. 88.

١٨- Mead. M., national character, in : anthropology today london and chicago : the university of chicago press, 7th. 1957, 642-662.

١٩- Hoebel, A., Anthropological perspectives on national character, in : the annals ibid., 1-7.

٢٠- Mead, M., op. cit.,

٢١- Cited in : hoebel, A., op. cit.,

٢٢- Carlsson, G., swidish national character in the twentich century, in : the annals, op. cit., 93-98.

Cited in : de vos, G., national character, in : int. ency. -٢٣
soc., vol, II., 1968, 14-19.

٢٤- يفرق الكتّاب الإشتراكيون العلميون بين مصطلحين أساسيين : نمط الإنتاج والتكوين الاقتصادى والاجتماعى. يقصد بالمفهوم الأول إبراز السمات الاساسية والعامة فى عدد من المجتمعات البشرية العينية (مثال : نمط الإنتاج الرأسمالى الذى حلله ماركس فى كتاب «رأس المال»). أمّا المفهوم الثانى فيتعلق على العكس بالتاريخ، بمعنى إشارته إلى نموذج مجتمعى محدد (مثال:التكوين الاجتماعى والاقتصادى للمجتمع المصرى).

أنظر بهذا الصدد : كانال (جان سوريه)«المشكلات النظرية لدراسة المجتمعات الطبقية الأولى»، فى:«حول نمط الإنتاج الأسيوى»، مجموعة دراسات ترجمها جورج طرابيشى، بيروت:دار الحقيقة١٩٧٢،(ص١٩-٣٩).

٢٥- أنظر : زكريا (فؤاد)، «الجوانب الفكرية فى مختلف النظم الاجتماعية»، القاهرة، الهيئة العامة للكتب والاجهزة العلمية، ١٩٧١.

٢٦- راجع بصدد هذاالتعريف : Smirnov, G., soviet man, the making of a socialist type of personality, mascow: progress publishers, 1973, p. 54.

وانظر بصدد التصور الماركسى للانسان بوجه عام :

Formm, E., marx's concept of man. new york: F. uncar publishing co., 1970.

٢٧- أنظر اوفى مرجع بهذا الصدد :

Sève, L., marxisme et thèories de la personnalité, pares: editions, 1969.

Marx, K. and engels, F., selected works, vol. 3, p. 360. -٢٨

٢٩- توصل فرج إلى نتائج مشابهة وهو بصدد الحديث فى بناء «الشخصية

القروية المصرية»، حيث ركّز على عاملين: نمط الانتاج والتاريخ. أنظر: فرج(أحمد فرج)، «الشخصية القروية»، فى الحلقة الدراسية لعلم الاجتماع الريفى فى الجمهورية العربية المتحدة، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ١٩٧١. (ص ١٩٤-٢٠٦).

٣٠- كامل (لويس)، الشخصية البدوية، فى :«قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية» (اعداد وتنسيق وتقديم لويس كامل)، القاهرة :الهيئة العامة للتأليف والنشر، مجلد ٢، ١٩٧٠(ص٥٥٢-٥٧٣).

٣١- أنظر: مرسى (فؤاد)، البعد الاجتمعاى للشخصية المصرية الحاضرة، الفكر المعاصر، أبريل ١٩٦٩، ٣٤-٤١.

٣٢- الطاهر (عبد الجليل)، القوقعية والقلق فى الشخصية العراقية، المثقف العربى، عدد ١١، كانون أول ١٩٦٩، ٣٤-٤٤.

هوامش الفصل الثالث

١- ظهر - بعد أن أنتهينا من بحثنا - كتاب الباحث الاسرائيلى المقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية روفائيل باتاى «العقل العربى»، وهو يعد أشمل دراسة فى الفكر الغربى عن الشخصية العربية، وهى حافلة بتحيزات متعددة، لعل أهمها منهجه اللاتاريخى فى الدراسة، ونظرته للشخصية العربية وكأنها بناء جامد لايلحقه التغير، وسنقنع بالاحالة إليه فى الهوامش فى النقاط المختلفة التى تعرضنا لها.

أنظر: Patai. R., the arab mind. new york: charles scribner's sons, 1973.

٢- انظر بهذا الصدد : تقرير الباحث التونسى صلاح جرمادى الذى قدمه لمؤتمر فلورنسه (من ١٤-١٦ ديسمبر ١٩٧٢) والذى كان موضوعه اللقاء الجديد بين الحضارتين العربية والاوروبية فى الحقبة المعاصرة : Garmadi. S., le nouveau face. - à-face arabo européen, (non publié).

٣- أنظر : عبد الكريم (أحمد عزت)، العلاقات بين الشرق العربى وأوروبا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، فى : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة، (باشراف محمد شفيق غربال) جامعة الدول العربية الادارة الثقافية، (بدون تاريخ)، الفصل الثالث، ١٨١-٢٠٥.

٤- عبد الكريم، المرجع السابق، ص ١٨٨.

٥- انظر : بانيكار (ك.م.)، أسيا والسيطرة الغربية، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٢، ٤٩٧ - ٤٩٨.

٦- وورسلى (بيتر)، العالم الثالث، ترجمة حسام الخطيب، دمشق : منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومى، ١٩٦٨، ص ٤٣.

٧- نفس المرجع، نفس الموضع.

٨- نفس المرجع، ص ٤٤.

٩- نفس المرجع، ص ٤٥.

١٠- أنظر «فانون» تحليلا سوسيولوجيا عميقا عن محاولات الشعب الجزائرى- من خلال الثورة الجزائرية- القضاء على الاستعمار الفرنسى للشخصية الجزائرية، فانون (فرانز) سوسيولوجية ثورة، ترجمة : ذوقان قرقوط، بيروت : دار الطليعة، ١٩٧٠.

١١- مذكور فى : الحسابى (محمد عزيز)، الشرق كما يراه الغرب، فى: من المنغلق إلى المتفتح، عشرون حديثاً عن الثقافات القومية والحضارية والانسانية، ترجمة محمد براده، القاهرة : الانجلو المصرية، ١٩٧١، ٢٢٣- ٢٦٥.

١٢- المرجع السابق، ص ٢٣٩.

١٣- الحبابى، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

١٤- ينبغى أن نشير هنا إلى أنه فى فترة من فترات اكتشاف الغرب للشرق بوجه عام وللعرب بوجه خاص، سادت نظرة رومانتيكية عن العرب نتيجة لكتب

الرحالة الغربيين عن البلاد العربية وعاداتها وتقاليدها، وتحت تأثير ترجمة قصص ألف ليلة وليلة، حتى لقد نشأ فى بعض البلاد الأوروبية - مثل فرنسا- فن روائى يدور حول العالم العجيب فى الشرق العربى، ويزخر بقصص عن الخلفاء المسلمين والشخصيات العربية. راجع بهذا الصدد بحث مارى لويز ديفرونوى عن «الأدب الروائى الشرقى فى فرنسا».

Dufrenoy, M. L., L'oreint romanesque en france. paris : editions beauchemin, 1946.

وأنظر اشارة إلى هذا الموضوع لعلى الدين هلال وهو بصدد حديثه عن صورة العربى فى الذهن الامريكى فى مقاله:التطويق الصهيونى للرأى العام الامريكى، السياسة الدولية، عدد ٣٣، يوليو ١٩٧٣، ٣٤-٤٧.

١٥- Suleiman, M., arabs and the west : communication gap, in : II politico, 1967, no. 3, 511-529.

١٦- من الجدير بالاشارة إلى اننا نستعمل كلمة «الغرب» على سبيل التجريد، ولايفوتنا وجود جماعات سياسية فى المجتمعات الغربية استطاعت الانفلات من أسار التر التعصبى السائد ازاء العرب، وأخذت فى تفهم وتقدير المشاعر والمطالب القومية للعرب. ومما هو جدير بالاشارة ان حرب أكتوبر ١٩٧٣، وماأدت اليه من توحد العرب واستخدام سلاح البترول ضد الدول المتعاطفة مع اسرائيل، قد أدت إلى بعث الاتجاه العنصرى ضد العرب بصورة مفضوحة، ويؤكد هذا الاشارات التى لها دلالة هامة التى وردت فى بعض التعليقات الصحفية، والتى وصفت مسلك العرب أزاء الغرب بانه ثأر العرب من هزيمتهم فى معركة بواتييه التى رد فيها الاوروبيون الغزو الاسلامى عن أوروبا.

١٧- راجع الامثلة التفصيلية على هذه النظرات المتحيزة فى : Garmadi, op. cit., انظر نقدا عنيفا للغة العربية كما يستخدمها العرب فى مجال العلاقات الدولية والسلوك السياسى:سليمان، الدراسة السابق الاشارة اليها.

١٨- Berger, M., the arab world today, N.Y: anchor books, 1964, p. XIV.

١٩- أنظر : Deutsch, K. W.: the nerves of government, new york : macmillan, the free press, p. 203.

٢٠- التعبير مقتبس من عنوان مقال على الدن هلال «التطويق الصهيوني للرأى العام الامريكي»، مرج سابق.

٢١- ابراهيم (سعد الدين)، الصراع الاعلامي بين المثالية والبرجماطية في كتابه : في سوسيولوجية الصراع العربي الاسرائيلي، بيروت : دار الطليعة، ١٩٧٣، ١٣٠-١٤٩.

٢٢- بالرغم من ان المناقشة التفصيلية لتصنيف سعد الدين ابراهيم للقوى السياسية الرئيسية في المجتمعات الغربية لايدخل مباشرة في موضوعنا، إلا أننا بالإشارة إلى أن فئة الرجعيين بالمعنى التاريخي لهذه الكلمة - ونقصد في اطار تطور الوعي الغربي- قد انقرضت تماما تقريبا في المجتمعات الغربية، بعد ان اكتسحت أوهامها الثورة الصناعية والتغييرات العميقة التي أحدثتها في بنية المجتمع الأوربي، وبعد أن دخل العالم الغربي الآن في اطار الثورة العلمية والتكنولوجية. أنظر تحليلا تاريخيا يؤيد رأينا في كتاب : راندال (ج.هـ)، تكوين العقل الحديث، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٨، ج٢.

وراجع أيضاً : Weber, A., Farewell to european history, or the conquest of nihilism london : kegan paul, 1947.

٢٣- Lapierre, J. W., L'information sur pétat d'israel dans les grands quotidiens francois en 1958, paris:editions du C.N.R.S.,1968.

٢٤- راجع بصدد تفصيلات اختيار العينة، الفصل الثاني من المرجع السابق، ٣٣-٤٢.

٢٥- أنظر : Lapierre, op. cit., p. 161.

٢٦- اجرى البحث تحليلا كيفيا لهذه الموضوعات، فحدد الاتجاهات بالنسبة لكل موضوع، بمعنى فرز الاتجاهات التعاطفية والعدائية ازاء اسرائيل. ولكى يقارن - بالنسبة لكل موضوع- بين نسبة العبارات التعاطفية إلى العبارات العدائية، صمم ميزانا خاصا يكفل له ان يستخلص هذه النسبة.

والميزان ببساطة يتمثل فى قسمة عدد العبارات التعاطفية على عدد العبارات العدائية بالصورة التالية :

$$\text{النسبة} = \frac{\text{عدد العبارات التعاطفية}}{\text{عدد العبارات العدائية}}$$

وتفسر النسبة الناتجة بالنسبة لكل موضوع على أساس القواعد التالية :

-★ إذا كانت النسبة أعلى من واحد صحيح فمعنى ذلك أن العبارات التعاطفية تزيد عن العبارات العدائية.

-★ وإذا كانت (٢) فمعنى أن العبارات التعاطفية التى ظهرت فى الصحافة عام ١٩٥٨ ضعف مرات ظهور العبارات العدائية.

-★ وإذا كانت واحد صحيح فمعنى ذلك تعادل بين العبارات التعاطفية والعدائية.

-★ وإذا كانت اقل من واحد صحيح فمعنى ذلك أن الميزان يميل لصالح العبارات التعاطفية.

-★ وإذا كانت ٥ر٠ فمعنى أن العبارات العدائية كانت ضعف العبارات التعاطفية.

٢٧- من الجدير بالاشارة أن الباحث قنع بالتحليل الكيفى لست وعشرين صحيفة من عينة البحث (٣٦ صحيفة) نظرا للجهد الشاق الذى يتطلبه هذا النمط من التحليل. انظر :Lapierre, op. cit.,

٢٨- راجع الهامش السابق لمعرفة دلالة لنتائج على ضوء الميزان الذى اعتمد عليه الباحث.

٢٩- أنظر : .Lapierre, op. cit. p. 167

٣٠- حسبت نسبة هذه الجريدة - وفقا للميزان - كما يلى :

$$\frac{\text{٦٦ عبارة تعاطفية}}{\text{٣ عبارات عدائية}} = ٢٢$$

٣١- أنظر : ربيع (حامد عبدالله) فلسفة الدعاية الاسرائيلية، بيروت : مركز الابحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، رقم ٧٢، ١٩٧٠.

٣٢- ربيع، المرجع السابق، ص ١٩٩.

٣٣- يشير ربيع إلى أن هذه المصادر اختيرت دون معيار وانما لمجرد امكانية الحصول عليها بسهولة. راجع : ربيع، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

٣٤- ليس واضحا تماما المجال الزمنى للبحث، وان كان الباحث يذكر أن مصدرين فقط هما الموند والايكونوميست يغطيان الفترة موضع التحليل تغطية كاملة. انظر : ربيع، المرجع السابق، نفس الموضع.

٣٥- أنظر : ربيع، المرجع السابق، ص ٢٤.

٣٦- من الجدير بالاشارة أن ربيع لم يعرض كل النتائج التى توفرت له من البحث، كما لم يقدم وصفا كاملا للمقابلات المركزة بالاضافة إلى تحليل المضمون، ووعد باستكمال كل ذلك فى عمل لاحق. انظر : ربيع، المرجع السابق ١٩٥-١٩٦.

٣٧- انظر : ربيع المرجع السابق، ١٦٦-١٨٧.

٣٨- انظر : ربيع المرجع السابق، ص ١٨٨.

٣٩- يؤكد هذا الاتجاه ردود أفعال الصحافة الغربية ازاء حرب اكتوبر ١٩٧٣ بوجه عام، وموقف عدد من المثقفين الغربيين البارزين بوجه خاص مثل ريمون آرون، والكاتب المسرحى الشهير يوجين يونيسكو اللذين كتبا مقالات تؤيد اسرائيل تماما، وتؤكد على ملامح الصورة الايجابية لها فى المجتمعات الغربية، وتخفض فى نفس الوقت من شأن العرب.

انظر : أرون (ريمون)، هزيمة المنتصر، لوفيجارو، ٦/ ١١/ ٧٣.
يونيسكو (يوجين)، اسرائيل وماوراءها، لوفيجارو، ٢٩/ ١٠/ ٧٣.

٤٠- Suleiman, M., An evaluation of middle east news coverage in seven amcrican, news magazines, July-december1956, middle east forum, vol. LXI, no.2. late autumn 1956, 9-30.

Sulciman, M., american mass media and the june conflict, in : the arab- Israeli confrontation of june 1967 : an arab perspective, north- western university press, 1970.

٤١- هذه الجرائد والمجلات هى : New york times, U.S. news and world report, the nation, the new republic, life, newsweek, time.

٤٢- Suleiman, op. cit.,

٤٣- مما يؤكد تركيز الدعاية على هذا الجانب، بعض المقالات التى نشرت فى الصحافة الغربية لترسيخ صورة العربى البدوى المتخلف وذلك بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣.

أنظر على سبيل المثال مقالا نشر فى مجلة الاسكباتور البريطانية بتاريخ ١٠/ ١١/ ٧٣ عنوانه : جمال أم سيارات كاديلاك.

٤٤- يمكن تأصيل هذا التحيز ضد العرب برده إلى اتجاه أعم يسود الغرب الأن وهو الاتجاه المضاد للتاريخ. وهو اتجاه يحاول- فى بعض جوانبه- التركيز على تشريح الموقف الحالى بدون رده إلى أصوله التاريخية. انظر بهذا الصدد دراسة قيمة للمفكر المغربى عبد الله العروى :

Laroui, A., antihistoricisme et hegemonie culturelle aspect des relations araboqccidentales, colloque international de florence, cécember, 1972.

٤٥- راجع ميشيل سليمان، الموجع السابق (دراسة حرب ٥٦).

وانظر بصدد هذا الموضوع : Alroy, G. C., patterns of hostility, in : alroy (editor), attitudes toward jewish statchood in the arab world, new york: american academic for peace in middle east, 1971, 1-69.

٤٦- لايتسع المقام لعرض النتائج التفصيلية لدراسة ميشيل سليمان فيما يتعلق بالفرض الثانى، بالاضافة إلى أن نتائج الفرض الأول الخاصة بسمات الشخصية العربية هى التى تهمنا فى المقام الأول.

٤٧- راجع : Suleiman, M., american mass media and the june conflict, op. cit.

من الجدير بالاشارة أن هذه الدراسة ترجمت كاملة إلى العربية، انظر : ميشيل سليمان، وسائل الاعلام الجماهيرية والحرب فى : فلسطينيات، المج،عة الثانية، بيروت، مركز الابحاث، مارس ١٩٦٩، ٩١- ١١٩.

٤٨- مع ذلك ينبغى ملاحظة أن المجال الزمنى لدراسة سليمان الأولى كان ستة شهور، فى حين أنه فى الدراسة الثانية كان ثلاثة شهور فقط، إلا أننا لانعتقد أن هذا الاختلاف قد أثر تأثيرا جوهريا فى النتائج.

هوامش الفصل الرابع

١- انظر :

Biet- Hallahmi, B., national character and national behavior in the middle east conflict : the case of the "arab personality", in : international of group tensions, vol, 2, no. 3. 1972, 19-28.

٢- Alter, R., rhetoric and the arab mind commentary 1968, 46, no. 4. 61-65.

٣- أنظر مثالا على هذه الدراسات :

Rogers, R., the emotional climate in israeli society, american psychiatry, 1972, 128; 988-992.

tamarin, G.R., the israeli- arab conflict in terms of non communication, in : alroy, G.C., (editor), attitudes toward jewish statchood in the arab world, op. cit., 1971. 70-87.

٤- اقترح نيرهون فى عام ١٩٧٠ أهمية التفرقة بين مفهوم الصفوة ومفهوم الجماهير فى مجال دراسة الشخصية القومية. وفى رأينا أن اضافةمفهوم العلماء الاجتماعيين عن الشخصية القومية - كما فعلنا - بالغ الأهمية نظرا لاعتمادهم على المناهج العلمية فى تحليلاتهم، والتى من شأنها - نظريا - أن تكسب مفهومهم درجة أعلى من الموضوعية انظر :

terhune, K. W., from national character to national behavior, a reformulation. the journal of conflict resolution, vol. VII, no. 2. june 1970, 203-363.

٥- قد لايتمتع مصطلح تصور الصفوة السياسية بالمعنى الذى أعطيناه له فى المتن، بنفس درجة الاستقرار والرسوخ فى التراث العلمى الاجتماعى كما هو الحال بالنسبة للمصطلحين الآخرين : الشخصية القومية، والافكار القومية النمطية، إلا أنه على كل حال مصطلح أخذ الان يشيع استخدامه بين الباحثين.

٦- اعتمدنا فى هذا التعريف على :

terhune, K., from national character to national behavior, a refomulation, ibid.

٧- راجع بصدد مصطلح الفكرة النمطية بوجه عام : Fairchild, H. P., dictionary of sociology, new york.

٨- من الجدير بالاشارة ان بعض الباحثين يفرق بين مصطلحين بصدد الفكرة النمطية وهما : الفكرة عن الغير: Hetro- stereotype والفكرة النمطية عن الذات. Auto- stereotype

انظر :- Rim., Y., Aloni, R., stereotype according to ethinc origin, social class and sex, acta psychologica, 1969, 312-325.

٩- يفرق بريتشر وهو بصدد التقييم الاجمالى لصورة العرب لدى الصفوة الاسرائيلية بين التصورات التقليدية ومايطلق عليه تصورات الجيل الاسرائيلى الاصغر من صانعى القرارات السياسية، ولكنه لايفصل الحديث عن أسباب تفاوت رؤية كل جيل للعرب.

انظر : Brecher, N., the foreign policy system of israel. setting, images, process, london: oxford university press, 1972. p. 369.

١٠- Bercher, M., ibid., p. 277.

١١- يقرر بريتشر «أن مضمون هذا التنميط- وليس المصطلحات الواردة فيه - صاغة واحد من كبار المفكرين من أعضاء الصفوة الفنية الاسرائيلية هو «موردخاى جازيت» الذى شغل منصب وزير مفوض لاسرائيل من عام ١٩٦٠ حتى عام ١٩٦٥، وبعد ذلك شغل منصب مستشار، ثم أصبح مساعد المدير العام بوزارة الخارجية الاسرائيلية المختص بشؤون الشرق الأوسط .: Brecher, op. cit., note 4, p. 280.

١٢- مارتن بوبر (١٨٨٧ - ١٩٦٥).

فيلسوف وعالم لاهوت ومفكر صهيونى. ولد فى فيناء ودرس فى جامعتها عام ١٨٩٦، ثم أكمل دراسته فى جامعة برلين، وكان تلميذا للفيلسوف ديلتاى وسيمل، فى عام ١٩٢٥ ظهرت أول ترجمة للتوراة إلى الالمانية بمجهود بوبر وروزنبرج، وفى عام ١٩٣٨ ذهب إلى فلسطين وعين أستاذاً فى الجامعة العبرية،

واستمر حتى عام ١٩٥١. وكان أول رئيس للاكاديمية العلمية فى اسرائيل من عام ١٩٦٠ حتى ١٩٦٢.

١٣- دافيد بن جوريون (١٨٨٦ - ١٩٧٣).

دافيد بن جوريون زعيم صهيونى مؤسس دولة اسرائيل وقائدها طيلة خمسة عشرة عاما. ولد فى بولنده فى ٦ أكتوبر ١٨٨٦ ودرس فى مدرسة دينية فيها وانضم إلى الحركة الصهيونية وجاء إلى فلسطين عام ١٩٠٦. درس القانون فى جامعة القسطنطينية بين ١٩١٢- ١٩١٤، وعاد إلى فلسطين لكن الحكومة التركية أبعدته فى عام ١٩١٥، فسافر إلى الولايات المتحدة وهناك نشط فى تنظيم الحركة الصهيونية العمالية، وكان أمينا عاما للهستدروت فى الفترة مابين ١٩٣١ -١٩٣٥، ورئيسا للجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية وللوكالة اليهودية. عين بن جوريون فى أبريل ١٩٤٨ رئيسا لحكومة اسرائيل المؤقتة ومسؤولا عن الأمن والدفاع فيها، وفى مايو ١٩٤٨ أعلن قيام دولة اسرائيل فشغل منصب رئيس الوزراء ووزير الدفاع فى الفترة بين ١٩٤٩، ٤ يناير ١٩٥٣، حين استقال من جميع مهامه الحكومية، ولكنه عاد وزيرا للدفاع ١٩٥٥، ثم تسلم بالاضافة إليها رئاسة الوزراء عام ١٩٦٣. وكان فى نفس الوقت القائد الفعلى لحزب الماباى، ولكنه شكل حزبا آخر هو حزب رافى. ولقد ارتبط اسم بن جوريون مع جميع الاحداث التى وقعت فى فلسطين منذ عام ١٩٣٥.

١٤- حاييم وايزمن (١٩٧٤-١٩٥٢). زعيم صهيونى وأول رئيس لدولة اسرائيل.

ولد فى روسيا ونشأ فى جو جمعية «أحباء صهيون» التى تأسست فى روسيا عام ١٨٨٢، وتأثر بعمق بحركة نشر الثقافة العبرية بين اليهود والتى عرفت باسم (الهاسكلاه). وارتبط منذ نشأته بهرتزل، ودعا عام ١٩٠٢ إلى انشاء جامعة عبرية. أثناء الحرب العالمية الأولى تولى القيادة السياسية للحركة الصهيونية ونجح فى الحصول على وعد بلفور عام ١٩١٧، وفى عام

١٩١٨أصبح رئيسا للبعثة للصهيونية التى أرسلت إلى فلسطين لتهئ تنفيذ مشروع الوطن القوى اليهودى. وفى عام ١٩٢٠، انتخب وايزمن رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية (ظل رئيسا لها حتى عام ١٩٣٠، ومن عام ١٩٣٥ حتى عام ١٩٤٦) وفى عام ١٩٤٨ بعد انشاء دولة اسرائيل انتخب أول رئيس للدولة، ولكنه لم يساهم فعليا فى الحكم بسبب سوء صحته. أصدر مذكراته بعنوان «التجربة والخطأ».

١٥- Bachur, Y., the arabs in modern hebrew literature, in new outlook, vol. 7., no. 3 (61), 40-46, p. 58.

١٦- كاتب اسرائيلى رجعى الاتجاه، منح جائزة نوبل فى الادب عام ١٩٦٩.

١٧- انظر : يسين (السيد)، المثقف الاسرائيلى : بين الفكرية و النقد المبدئى للصهيونية، الاهرام، ١٩٧٣/٨/٧.

١٨- انظر : the writings of martin buber, (edited by herberg, w.), new york : meridian books, 1956, 281-286.

١٩- Brecher. op. cit., 285-286.

٢٠- Becher. op. cit.,p. 355.

٢١- فى هذه العبارة يكمن جمود تصور انصار القوة عن الشخصية العربية. وقد تكفلت حرب اكتوبر بنسف هذه الاوهام الاسرائيلية التى هيمنت على العقل الاسرائيلى المريض.

أنظر بهذا الصدد: يسين (السيد) تشريع العقل الاسرائيلى، الاهرام. ١٩٧٣/١١/١٠.

٢٢- Cited in: Brecher. op. cit.,p. 369.

٢٣- Heradvsteit, d., Israeli Elite Perceptions of the Arab-Israeli Conflict. Journal of Palestine Studies; Vol. II. No. 3 ., 68-93.

٢٤- انظر: ربيع (حامد عبد الله)، فلسفة الدعاية الاسرائيلية، المرجع السابق، ١٨٧-١٩٢.

٢٥- Baer, G., Population and Society in the Arab East, London: Routledge and Kegan Paul, 1964.

٢٦- Bacr, G., Studies in the Social History of Modern Egypt. Chacago and London: The Univ. of Chicago Press. 1969.

٢٧- Baer. G., Submissiveness and Revolt of the Fellah in Bear. G., ibid., 83-108.

٢٨- Harkabi, op., cit.5.

٢٩- الدكتور فكتور صنوع هو استاذ علم النفس فى «كلية مدينة نيويورك، ورئيس المجلس الدولى لعلماء النفس»، الذى عقد خارج الولايات الامريكية فى شهر سبتمبر ١٩٧٠ فى جامعة بار ايلان باسرائيل. والدكتور صنوع يهودى مصرى الاصل، ومن الواضح أنه صهيونى متعصب.

٣٠- انظر: Arab National Character and Mddle East Conflict, in: The Jerusalem Post . 18 October 1970. p.5.

٣١- اشارة الى بحث ستاوفر المشهور، الذى يعد من كلاسيكيات بحوث علم النفس الاجتماعى: Stouffer, S.a., et al., The American Soldier. Princeton University Press, 1949, Vol. I.

٣٢-إشارة الى: Gillespie and Allport, Youth's Outlook on the Future, New Your: Doubleday,1955,p.23.

٣٣- يحرص هاركابى على أن يشير إلى أن نسبة الطلبة المصريين بهذا الصدد أعلى بكثير من نسبة زملائهم من الطلبة الأمريكيين والاوروبيين الذين ذكروا حوادث مماثلة.

٣٤- يشير هاركابى هنا إلى البحثين التاليين :

Ammar, H., Growing up in an Egyptian Village, London : Routledge and Kegan paul. 1954, p. 10.

Sarhan, E. A., Interest and Cultures, New york : Colmbia univerity press, 1950, 101-103.

٣٥- Ayrouth, H. M., the Egyptian peasant, Boston: Beacon press, 1963, p. 113.

وقد ترجم الكتاب إلى العربية د. السيد غلاب بعنوان «الفلاحون».

Hamady, S., Temperment and character of the arabs. New york : Twayne.

٣٦- Pub- lishers, 1960

٣٧- يشير هاركابى بهذا الصدد إلى المرجع التالى :

Hottinger : A., The arabs, London : Thames, 1963, p. 292.

٣٨- راجع : Ammar, H., Growing up in an Egyptian Village, op. cit.

٣٩- Paranoid schizophrenic.

٤٠- اختبار الرورشاخ اختبار نفسى اسقاطى، عبارة عن عدة بطاقات عليها رسوم وأشكال مختلفة، تعرض على المفحوص ويطلب منه ذكر ماتثيره هذه الأشكال فى ذهنه.

٤١- مما هو جدير بالاشارة أن الباحثين الاسرائيليين لايفرقون كثيرا بين الشخصية القومية العربية، وبين الشخصية المصرية على أساس أن نفس السمات تنطبق على كلا النمطين.

٤٢- أنظر :

The same old Apathy Lingers on : Attitudes Unchanged,

since 19 th Century by a student of arab affairs, in : Jewish observer and middle east review, vol. XXI. No, 48, 1. December 1972.

٤٣- لم نستطع للأسف العثور على اسم المجلة المصرية والرجوع إليها مباشرة، نظراً لأن المجلة الاسرائيلية لم تذكر اسمها ولا تاريخ صدورها عل وجه التحديد. وقد رجعت إلى الاستاذ نجيب محفوظ وهو أحد المثقفين الذين استطلع رأيهم وقرأت له الاقتباسات التى نسبت له والتى ترجمت إلى الانجليزية، نقرر أنه يذكر فعلا أنه ادلى بهذا الحديث، وان كان لايذكر اسم الصحفى أو المجلة.

٤٤- Friedlander, S., Reflexions sur pavenir d'Israel, paris : Editions du seuil, 1969. p 76 et ss.

٤٥- أثبت الأداء البطولى للقوات المسلحة العربية فى حرب أكتوبر، والقدرة الفائقة لأفرادها على استيعاب الاسلحة التكنولوجية الحديثة، كذب هذا التفسير الاسرائيلى، الذى يمكن اعتباره جزءا من الحرب النفسية التى وجهتها اسرائيل ضد العرب، حتى توحى إليهم باليأس القاتل والعجز المطلق.

٤٦- أثبتت حرب أكتوبر زيف تنبؤات فريدلاندر.

٤٧- Friedlander, op. cit., p. 125.

٤٨- راجع بصدد تعريف مصطلح الافكار القومية النمطية مقدمة الفصل الثالث من البحث.

٤٩- راجع بهذا الصدد : حفنى (قدرى) تجسيد الوهم، دراسة سيكلوجية للشخصية الاسرائيلية، القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، سنة ١٩٧١.

٥٠- Ibrahim, S. M., Cross- cultural interaction and attitude formation before and after a major crisis, in : sociological focus, on attitudes, vol. 4., No. 3, spring 1971, 1-16.

٥١- Peres, Y. & Levy, Z., Jews and Arabs : Ethinc group stereotypes in Israel, race, vol X, No. 4, April 1969, 479-492.

٥٢- يرى الباحث المصرى سعد الدين ابراهيم أن ثمة علاقة وثيقة بين : التفاعل، والادراك، والاتجاه.

راجع: Ibrahim, S. M., Interaction, pereption, and attitudes of arab students toward americans, in: sociology and social research, vol 55., October 1970, 29-46.

٥٣- انظر المراجع التى يشير إليها: Peres, Y., Levy, Z., opo. cit.

٥٤- راجع تطبيقا لهذه الفكرة تحليلنا للتغيرات التى لحقت بالمفهوم الغربى للشخصية العربية بحسب ديالكتيك المنتصر والمهزوم (الفصل الثالث من البحث).

٥٥- سنناقش بعد قليل تطبيقا واقعيا لهذه الفكرة فى المجتمع الاسرائيلى الذى يسوده نسق مركب للتدرج الاجتماعى.

٥٦- راجع بهذا الصدد :

Robins, E., Attitudes, stereotypes, and prejudices among arabs and jews, in. New outlook, vol. 15,. No. 9. (136) Nov, Dec. 1972, 36-84.

٥٧- Peres, Y, & Levy, Z., op, cit.

Terry, J., Israel's policy toward the arab states, in : abu lu-ghod, I., (editor), the trans formation of palestine, evanston: northwestern university press, 1971, 337-354.

٥٨- Peres, Y, & Levy, Z., op, cit.

أجرى هذا البحث على مجموعتين منالطلبة الجامعيين : الأولى يهود اختيروا بطريقة عشوائية، والثانية عرب اختيروا بطريقة «المضاهاة الفردية»

Individual matching. وذلك لتلافى زيادة تخصص الطلبة العرب فى بعض الفروع العلمية، ونقص تخصصهم فى فروع أخرى. وروعى فى العينتين التماثل فى المتغيرات التالية : الجنس والعمر ومجال الدراسة. وكان تكنيك البحث اجراء مقابلات مفتوحة متعمقة كانت تستغرق بين ثلاث وأربع ساعات. ودار التحليل حول الموضوعات الست التالية : مدى تركيز كل جماعة على الأخرى، الاحساس بعلو المكانة أو بالدونية، درجة اعتماد كل فرد من المجموعتين على أعضاء جماعته السلالية، امكانية التعرف على اعضاء الجماعات السلالية المختلفة من المظهر الجسمانى أو غيره من العلامات، الاتجاهات السياسية فيما يتعلق بالثقة فى النظام أو الشك فيه.

٥٩- Robins, E., Attitudes, stereotypes, and prejudices among arabs and jews in Israel. op. cit.

٦٠- نشك فى صدق هذه البيانات، ونرى أن هذا الحكم مجرد صياغة ايديولوجية للنظرة العدوانية التى تبناها الصهيونيون فى بداية استعمارهم الإستيطانى لفلسطين، والتى مبناها أن «اليهود شعب بلا أرض، هبط إلى أرض بلا شعب». ويؤكد ذلك مايزعمه عدد من القادة الصهيونيون من أن اليهود فى غمرة اندفاعهم للهجرة إلى (ارض الميعاد) واستعمارها، لم يلتفتوا إلى الفلسطينين، ولم يتصوروا أنه ستنشأ مشكلات جسيمة معهم ستتطور بعد ذلك إلى صراع مسلح. ولذلك حاول هؤلاء القادة أن يخففوا من وقع المقاومة التى أبداها الفلسطينيون تجاه الاستعمار الاستيطانى اليهودى فى فلسطين فى العشرينات. ويؤكد ذلك أن وايزمان صرح فى النيويورك تايمز الصادرة فى ٤ ديسمبر ١٩٢٣، أن «الاضطرابات بين اليهود والعرب قد بولغ فيها».

انظر : Alroy, G.C., patterns of hostility, op. cit.

٦١- Rim, Y. & Alone, R., Stereotypes according to ethnic origin, social calss and sex, in: Acta psychologica, 31, 312-325.

٦٢- Hofman, J., Readiness for social relations between Arabs and Jews in Israel, J. con. Res., V. XVI, No. 2., 241-251.

٦٣- المصدر : ن. م.د.ف. ملحق العدد (٥) أول آذار (مارس) سنة ١٩٧٣.

٦٤- ليس هنا مجال مناقشة الظروف التى من شأنها تغيير هذه الأفكار القومية النمطية الثابتة عن العرب لدى الرأى العام الاسرائيلى. فقد تبين من النتائج الأولية لبحث أجراه الباحث مستخدما تكنيك تحليل المضمون لتحليل اتجاهات المحاربين الاسرائيليين كما ظهرت فى مقابلات فردية وجماعية اجريت معهم عقب حرب ١٩٦٧، أن نظرة هؤلاء المحاربين قد تغيرت ازاء العرب. (كان تكرار اتجاهات المحاربين الاسرائيليين (عينة البحث) ازاء العرب كما يلى : اتجاهات عدائية (٢٥)، اتجاهات محايدة (٨)، اتجاهات تعاطفية (٢٣)، وذلك كما ظهرت فى ٤٣ مقابلة فردية وجماعية).

يسين (السيد)، اتجاهات المحاربين الاسرائيليين فى حرب يونيو ١٩٧ (بحث غير منشور). ومن المعروف أن الأتصال - حتى لو كان عدائيا - من شأنه أن يغير من الأفكار القومية النمطية. أنظر بصدد هذه النقطة الأخيرة.

Amir, Y., Contact Hypotheses in ethic relations, psychological bulletin, 1969, 71. 319-42.

هوامش الفصل الخامس

١- أنظر بصدد هذه الفكرة : Gibson, the Logic of inquiry, London: Routledge and kegan paul, 1963.

٢- Gardner, G. the Aab middle east: some background interpetations, in: Jornal of social issues, 1959, 51, 20-27.

٣- أنظر بصدد النظر - إلى الشرق الأوسط كمنطقة حضارية متميزة :

Van nieuwennuijze, sociology of the middle east, A stocjtaking and interpreation, leiden: E. J. Brill, 1971.

٤- راجع فى روفائيل باتاى الفصول السادس والسابع، حيث يتحدث بالتفصيل عن تأثير الثقافة البدوية على الشخصية العربية.

Patai, R., the Arab minf, op. cit., 73-117.

٥- تأكد هذا الحكم تماما فى حرب أكتوبر، حيث استطاع العرب لأول مرة فى تاريخ الصراع العربى الاسرائيلى استخدام البترول كسلاح فى المعركة.

٦- Imacteod., R. B., the Arab middle east: some social psycological problems, J. of soc, Iss,. 1959, 69-70.

٧- Berger, M. the Arab world today, New york: Anchor books, 1964, 135-165.

٨- راجع بصدد تأثير الثقافة البدوية والاسلامية على الشخصية العربية :

Patai, R., the Arab mind, op. cit. 73-117, 143-155.

٩- راجع الفصل الثانى حيث عرضنا لمفهوم الشخصية المنوالية باعتباره أحد المفاهيم الأساسية التى تستخدم فى دراسات الشخصية القومية.

١٠- نادرا مايعنى العلماء الاجتماعيون فى استعمالهم للمادة السوسيولوجية المنشورة، وخصوصا عن الشعوب المختلفة، بنقد المصادر التى اعتمد عليها الباحثون، ولا بطريقة استخدامهم اياها. فى حين أننا نرى هذه العملية فى حد ذاتها حاسمة، لأنه عن طريقها يمكن وضع حدود صدق التفسيرات والنظريات التى كثيرا مايصوغها العلماء الاجتماعيون، بغير سند موضوعى من الحقائق المجموعة بطريقة علمية، وبغير التفات إلى أهمية تطبيق المنهج التاريخى لتأصيل نشأة وتغير وزوال عديد من الظواهر الاجتماعية.

١١- يقرر لويس كامل وهو بصدد تقييمه للدراسات التى أجريت عن الشخصية البدوية ان بيرجر يقدم «فى تحليله للشخصية العربية عددا من

الفروض يبدو فيها التعميم، وينقصها الدليل الواضح، إلا أنها تستحق أن توضع موضع الدراسة الموضوعية والتجريب».

أنظر كامل (لويس الشخصية البدوية، المرجع السابق.

١٢- Hamady, S., op. cit., Foreword.

١٣- Hamady, s., ibid., Preface.

١٤- «الاخبارى» مصطلح يستخدمه علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية ويعنون به : الشخص الذى يمتلك خبرة شئ ما، ويلجأ الباحث إليه لكى يمده بها. ومن المعروف أن الباحث الانثروبولوجى حينما ينزل إلى مجتمع بدائى لدراسته يعتمد على بعض الاشخاص المقيمين لمعرفة عاداته وتقاليده، وهؤلاء يلطق عليهم أخباريون :

انظر : Winick, C., Dictionary, of anthropology, lowa 1958.

١٥- اعتمد بيرجر على الصفحات الاتية من كتاب حمادى : ٨٧، ٣٧، ٦٧ - ٦٨، ٣٠.

١٦- Khatchadorian, H., the mask and the face: a study of "make- believe" in middle east society, in: middle east forum, 1961, 37, 15-19.

١٧- راجع لهذا الباحث دراساته الأتية :

Melikian, L. H., some correlates of authoritarianism in two cultures, journal of psychology, 1956, 42, 2337-48.

Melikian, L. H., authoritarianism and its correlates in the egyptian culture and the united states, journal of social issues, 1959, 58-68.

ومن الجدير بالاشارة إلى أن الدراسة الأولى ترجمت إلى اللغة العربية، انظر : ميليكيان (ليفون) بعض المتغيرات المرتبطة بالتسلطية فى جماعتين

حضارتيين، فى : كامل (لويس)، قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية، مجلد١ ، ١٩٦٥، ٥٧٢-٥٨٩.

١٨- أنظر فى ذلك : الملاحظات النقدية التى أبداها عبد الستار ابراهيم عل تاثير تطبيق مقاييس التسلطية بالحضارة التى تطبق فيها واشاراته الى بحوث بروثرو وميليكيان : التسلطية وقوة الأنا، فى : كامل (لويس) : قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية، مجلد٢ ، ١٩٧٠، ٢٠٩-٢٣٣.

وراجع لنفس المؤلف نقده لمفهوم التسلطية ذاته، وللنتائج المتضاربة التى تحصلت من الاعتماد عل المقاييس التى بنيت على إساسه، البناء المعرفى والمضمون الايديولوجى للتسلطية، المجلة الاجتماعية القومية، مجلد ٩، عدد ١، يناير ١٩٧٢، ٦٧- ٩٠.

١٩- انظر لروفائيل باتاى مناقشة تفصيلية لسمات اللغة العربية وتأثيرها فى الشخصية العربية.

Patai, R., the Arab minf, op. cit., 41-72.

٢٠- Sanua, V., the national character of the Arabs and its effect on the middle east conflict. (cited in: Beit- Hallahmi, op. cit).

٢١- أنظر على سبيل المثال :

Chegine, Anwar, Arabic language: its signifecance and place in Arab- muslim society middle east journal, 19. 447-70.

٢٢- Beit- Hallahmi, some psychological and cultural in the Arab- Israeli conflict, op. cit.

٢٣- من الجدير بالاشارة أن هاركابى أفرد فى رسالته للدكتوراه ملحقا

خاصا لمناقشة موضوع الذاتية والموضوعية فى دراسة الصراع العربى الاسرائيلى بالرغم من دراساته المتحيزة عن الشخصية العربية، أنظر :

Harkabi, Y., Arab attitudes to Israel, : Ibid., Appendix, the problem of subjectivity, 466-572.

٢٤- Triandis, H. C., Discussion, the international, 1971, 12, supplement 30-13. (cited in: Beit- Hallahmi). op. cit.

هوامش الفصل السادس

١- رهبى (محمد)، أزمة التمدن العربى، بيروت، دار العلم للملايين، سنة ١٩٥٦.

٢- الطيب (مدثر عبد الرحمن)، أزمة المجتمع العربى للمعاصر، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٦١.

٣- أنظر الوردى (على)، دراسة فى طبيعة المجتمع العراقى، مشار إليه فى المرجع التالى.

٤- جابر (عبد الحميد)، الشخصية المصرية والشخصية العراقية، دراسة مقارنة، المجلة الاجتماعية القومية، مجلد ٥، ١٩٦٨، ٢٢٥- ٢٥٠.

٥- اطلعنا - بعد انجازنا لهذه الدراسة - على رسالة دكتوراه للأب يوسف مؤنس، موضوعها :«العناصر البنائية للشخصية اللبنانية». وهى دراسة تتسم بقصور منهجى واضح، مما جعلها تفشل فى معالجة الموضوع.

أنظر :

Mouwanes, J., Les éléments structuraux de la personnalité Libanaise liban: Inst. of scientific studies, 1973.

٦- الرفاعى (عبد العزيز) الطابع القومى للشخصية المصرية : بين الايجابية والسلبية، القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٧٢.

٧- عمار (حامد) الشخصية الفهلوية فى كتابه : فى بناء البشر، دراسات فى التغير الحضارى والفكر التربوى، منشورات سرس الليان، ١٩٦٤.

٨- اسماء المؤلفين على التوالى هى : فؤاد زكريا، السيد يسين، ابراهيم عمار، فؤاد مرسى، عزت حجازى، محمود عوده، حسن حنفى، سيد عويس، على حسن فهمى، محمود رجب، سعد المغربى، رشدى صالح، أمير اسكندر، كاميليا عبد الفتاح.

٩- El - Hamamsy, L. S., the assertion of egyptian identity in historical perspective, paper presented to the burg warestein sympsoium, No. 51. ethnic identity: cultural continuity and chage, september 5-13, 1970.

١٠- عمار (حامد). مرجع سابق.

١١- عويس (سيد)، من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : رسائل إلى ضريح الامام الشافعى، القاهرة : المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية سنة ١٩٦٣.

١٢- اسكندر (نجيب) وقام (رشدى)، التفكير الخرافى، بحث تجريبى، القاهرة الانجلو المصرية، ١٩٦٢.

وأنظر أيضا : غالى (مريت بطرس)، الشخصية المصرية، دراسة تحت النشر، بمجلة السياسة الدولية.

١٣- راجع بصدد تقييم كتاب العظم :

Scudder, L. R., Arab intellectuals and the implications of defeat of 1967, M. A., thesis, op. cit., 137-187.

وانظر أيضا العرض النقدى الممتاز لمندس (هانى) : حول مشكلات النقد بعد الهزيمة: الجماهير والوعى الثروى، مواقف، السنة الأولى، العدد الرابع، ايار- حزيران، ١٩٦٩، ١٣١- ١٤٠.

١٤- العظم (صادق جلال)، النقد الذاتى بعد الهزيمة، المرجع السابق، ص ٦٩.

١٥- العظم، المرجع السابق، ٧٠.

١٦- العظم، المرجع السابق، نفس الموضع.

١٧- عمار (حامد)، فى بناء البشر: دراسات فى التغير الحضارى والفكر التربوى، المرجع السابق ٦٩-١٤٧.

١٨- عمار، المرجع السابق، ص ٧٩.

١٩- عمار، المرجع السابق، ص ٩١.

٢٠- العظم، المرجع السابق، ص ٧٣ ومابعدها.

٢١- أنظر : هيكل (محمد حسنين)، بصراحة : كان العدو يعرف أكثر مما ينبغى، الأهرام، ٢٨ يونيو ١٩٦٨.

٢٢- العظم، المرجع السابق، صفحات ٧٥، ٧٦، ٧٧.

٢٣- العظم، المرجع السابق، ٨٢.

٢٤- العظم، المرجع السابق، ٨٣.

٢٥- العظم، المرجع السابق، ٨٤.

٢٦- العظم، المرجع السابق، نفس الموضع.

٢٧- العظم، المرجع السابق، ٨٥.

٢٨- أنظر أبو حمدان (جمال)، الخروج الثانى، نزوح ١٩٦٧، فلسطينيات، المجموعة الثانية، سلسلة كتب فلسطينية (١٨)، مركز الأبحاث، مارس ١٩٦٩، ١٦٥-٢٢٧.

٢٩- بركات (حليم) ضود (بيتر)، النازحون : اقتلاع ونفى، دراسة اجتماعية علمية، بيروت : منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٨.

٣٠- حبيبى (أميرة)، النزوح الثانى، دراسة ميدانية تحليلية لنزوح ١٩٦٧، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠.

٣١- أنظر : بركات، ضود، المرجع السابق، ص ١٩.

٣٢- المرجع السابق، ص ٢١.

٣٣- المرجع السابق، ص ٤٢، جدول رقم ١٠.

٣٤- المرجع السابق، ص ٤١.

٣٥- المرجع السابق، ص ٤٦.

٣٦- أميرة حبيبى، المرجع السابق، ص ٢٠.

٣٧- حبيبى، المرجع السابق، ص ٣٥.

ومن الجدير بالاشارة أن العينة التى أجرت عليها الباحثة بحوثها بلغ عددها مائة عائلة تحتل حوالى ١٢٠ خيمة، وتأتى هذه العائلات من ٤٥ منطقة فى الضفة الغربية، وكانت كلها من مخيم زيزياء (المرجع السابق، ص ٢٩).

٣٨- راجع بهذا الصدد :

Dodd., P. C., Family honor and the forces of change in Arab society, international journal of middle east studies vol. 4., january, 1973, No. 1, 45-49.

وأنظر أيضا : Patai, R., the Arab mind, op. cit., 90-94.

هوامش الفصل السابع

١- من الجدير بالاشارة أن نجيب اسكندر ورشدى فام حاولا فى كتابهما ربط نتائج بحثهما بحركة المجتمع بوجه عام، وبتطور المجتمع المصرى بوجه خاص فى فصل عقداه بعنوان :«المغزى الاجتماعى والتربوى والنفسى للخرافات»، إلا أن تقييمها للتغير الاجتماعى فى المجتمع المصرى بعد عام ١٩٥٢ يتسم بالعمومية، ويفتقر إلى التحليل السوسيولوجى المتعمق الذى أشرنا إلى مدخله فى المتن.

راجع : اسكندر (نجيب)، فام (رشدى)، التفكير الخرافى، مرجع سابق، الفصل السابع ١٣٨-١٥٧.

٢ – راجع بصدد سيادة بعض الاتجاهات اللاعقلانية فى المجتمع العربى، والقوى الاجتماعية التى تعمل على استمرارها :

ياسين (بوعلى)، الثالوث المحرم : الدين والجنس والصراع الطبقى، بيروت : دار الطليعة، ١٩٧٣.

٣– انظر : حمادى (سعدون)، النكبة العربية وقضية الوحدة العربية، فى دراسات عربية، السنة الثالثة، عدد ١٠، آب ١٩٦٧، ٣–١٥ (مشار اليه فى : طيبى (بسام)، ماذا تعلمنا من النكسة الأخيرة؟. فى دراسات : عربية، ابريل ١٩٦٨، ٢٨– ٥٠).

٤– انظر : حجازى (عزت)، الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية، الفكر المعاصر، العدد ٥٠، أبريل ١٩٦٩، ٤٢ – ٤٩.

٥– انظر : مهندس (هانى)، حول مشكلات النقد بعد الهزيمة، الجماهير والوعى الثورى، مواقف، السنة الأولى، العدد الرابع، أيار حزيران، ١٩٦٩، ١٣١ – ١٤٠.

٦– تبنى بعض الباحثين المصريين منظورا طبقيا فى دراسة الشخصية القومية المصرية، وذلك تحليل المجتمع المصرى على أساس أنه يتسم مما يلى : تعدد التكوينات الاجتماعية (بقايا المجتمع الاقطاعى، قطاع مختلط مصرى وأجنبى، قطاع راسمالى، قطاع عام، قطاع رأس المال الصغير، قطاع تعاونى)، وسيادة ملامحالبورجوازية الصغرية، التى تتمثل فيما يلى : التردد والتقلب، ضيق الأفق، الهرب من الواقع.

أنظر : مرسى (فؤاد)، البعد الاجتماعى للشخصية المصرية الحاضرة، الفكر المعاصر، العدد ٥٠، ابريل ١٩٦٩، ٢٤– ٤١.

٧– تتفق معنا فى هذا الرأى روز مارى صايغ حيث تقرر «أن الاسرة العربية ليست منافسا للولاء للحزب السياسى أو للأمة. وحالة فيتنام واضحة،

فالعلاقات الاسرية فيها وثيقة وتأثير الاسرة على اطفالها قوى غلاب، ومع ذلك فالتضامن الاسرى هناك ينمو فى اتجاه التماسك القومى لابعيدا عنه).

راجع خطتها غير المنشورة التكاملية للمجتمع العربى :

Sayigh, R., A plan of integrated social science research into Arab society and culture, 1972.

٨- يكفى أن نضرب مثلا بثورة التحرير الجزائرية التى استطاعت تجنيد الشعب الجزائرى كله بواسطة تنظيم ثورى خلاق، وكذلك حركة المقاومة الفلسطينية التى استطاعت بعث روح المقاومة بين الشعب الفلسطينى بعد أكثر من عشرين عاما هجعت فيها القضية الفلسطينية وكاد أن يطويها النسيان.

هوامش الفصل الثامن

١- يؤكد هذه الاتجاهات مايرده الادب الصهيونى الدعائى من أساطير عن قدرة الفرد الاسرائيلى سواء فى الانتاج أو فى الحرب، فى العلم أو فى الفن. فى مقابل ذلك يصور الفرد العربى ككائن جاهل، مستكين، متأخر، أهوج.

أنظر : ابراهيم (سعد الدين)، فى سوسيولوجية الصراع العربى الاسرائيلى، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

٢- من بين الأمثلة على هذا النمط من التفسير تصور العلماء الاجتماعيين السوفييت عقب ثورة أكتوبر ١٩١٧ أن الجريمة - باعتبارها حسب تفسيرهم - نتاجا للمجتمع الرأسمالى، فلابد لها أن تنتهى نهائيا عقب قيام المجتمع الاشتراكى غير أنهم - على ضوء الوقائع - رجعوا فيما بعد عن هذا التفسير.

٣- أنظر

Terhune, K. W., From national character to national behavior: A Reformulation, op. cit.

راجع دراسة هذا الموضوع من وجهة النظر الاسرائيلية فى : روفائيل بتاى،

حيث يعرض فى الفصل الخامس عشر لما يسميه «مشكلة العقم العربى»، وفى الفصل السادس عشر لما يسميه «سيكولوجية التغريب».

Patai, R., the Arab mind, op. cit., 247-306.

هوامش الملحق الثانى

١- Bell, J.B., national character and military strategy: the egyptian experience, october, 1973, (memo).

٢- بدأت بعض البحوث التى نشرت فى انجلترا، تدرس وتؤصل هذه التيارات العنصرية فى العلم الغربى، ولهل دراسة الباحث الباكستانى «طلال أسد»، الاستاذ بجامعة «هل» الانجليزية تمثل نموذجا بارزا لهذه البحوث. وعنوان دراسته «صورتين أوروبيتين للحكم غير الأوروبى». ويناقش فيها نتائج بحوث علم الانثروبولوجيا عن المجتمعات الافريقية نمن ناحية، ونتائج بحوث المستشرقين عن الدول الاسلامية والعربية من ناحية أخرى. ويكشف الباحث بجلاء ووضوح عن التحيز الايديولوجى للباحثين الغربيين، الذى أدى بهم فى النهاية إلى تشويه الواقع الاجتماعى فى هذه البلاد، خدمة للمصالح الاستعمارية، وتدعيما للتيار العنصرى ضد العرب.

انظر:

Asad, T., Tow eutopean images of non- european rule, in: economy and society, v. 2, No. 3., 263-277.

هوامش الملحق الثالث

١- راجع فى ذلك، الصفحة ١٠١ من هذا الكتاب.

٢- راجع فى تفصيل هذه المفاهيم الثلاثة، من ص ٤٦ - ٥٦ من هذا الكتاب.

٣- انظر بهذا الصدد كانال (جان سوريه)، المشكلات النظرية لدراسة

المجتمعات الطبقية الأولى فى حول نمط الانتاج الاسيوى، مجموعة دراسات ترجمها جورج طرابيشى، بيروت : دار الحقيقة ١٩٧٢، ١٩ – ٣٩.

٤– اسطنبولى وزغل، (بالفرنسية)، الامة والقومية والدولة القومية فى العالم العربى فى ملتقى حول الذاتية الثقافية والضمير القومى داخل المجتمع التونسى ١٨–١٩ مارس (آذار) ١٩٧٤، ٦٥ – ٧١.

٥– راجع فى هذا روفائيل باتاى، (بالانجليزية) العقل العربى، نيويورك، ١٩٧٣، الفصل الأول.

٦– بيتر ابسمان (بالانجليزية)، جوهر القيم العربية، مجلة هاريرز، فبراير (شباط) ١٩٧٨، ٣٧ – ٥٦.

٧– عبد العزيز الدورى، «مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى» بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٦٩.

٨– سمير أمين، (بالفرنسية)، «الامة العربية : القومية وصراع الطبقات» : باريس: مينوى ١٩٧٦.

٩– ازمة التطور الحضارى فى الوطن العربى، ٧ – ١٢ ابريل (نيسان) ١٩٧٤، جمعية الخريجين، جامعة الكويت، ١٩٧٥.

١٠– جان شارناى، جوانب التفكك الثقافى والتألف القرمى فى ملتقى الذاتية الثقافية والضمير القوى، ٤٥ – ٦٤.

١١– ويليام بولك، الولايات المتحد الامريكية والعالم العربى، لندن : الطبعة الثالثة، ١٩٧٥.

١٢– لويس عوض، تاريخ الفكر المصرى الحديث : الخلفية التاريخية، جزء واحد، القاهرة، كتاب الهلال، ١٩٦٩، ص ٨ – ٩.

١٣– راجع فى تحليل ونقد هذه الكتابات، متن كتابنا هذا.

١٤– حليم بركات، النظام السياسى بين القيم التقليدية والحديثة، فى كتاب «النظام السياسى الافضل للانماء فى العالم الثالث» (لبنان والدول العربية) بيروت : مكتب الفكر الجامعى، منشورات عويدات، ١٩٧١، ص ٨٠ – ٩٤.

١٥- على الوردى، دراسة فى طبيعة المجتمع العراقى : محاولة تمهيدية لدراسة المجتمع العربى الأكبر فى ضوء علم الاجتماع الحديث، بغداد : ١٩٦٥.

١٦- محمد العزب موسى، وحدة تاريخ مصر، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٢.

١٧- البشير بن سلامة، الشخصية التونسية : خصائصها ومقوماتها، تونس : نشر وتوزيع مؤسسات ع. بن عبد الله، ١٩٧٤.

أولا - المراجع العربية

١- ابراهيم (د. سعد الدين)، فى سوسيولوجية الصراع العربى الاسرائيلى، بيروت : دار الطليعة، ١٩٧٣.

٢- ابراهيم (د. سعد الدين)، الصراع الاعلامى بين المثالية والبرجماطية فى كتابه : فى سوسيولوجية الصراع العربى الاسرائيلى، بيروت : دار الطليعة، ١٩٧٣، ١٣٠-١٤٩.

٣- ابراهيم (د. عبد الستار)، البناء المعرفى والمضمون الايديولوجى للتسلطية، فى: المجلة الاجتماعية القومية، مجلد ٩، عدد ١، يناير ١٩٧٢، ٦٧-٩٠.

٤- ابراهيم (د. عبد السُتار)، التسلطية وقوة الأنا، فى : لويس كامل، قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مجلد ٢، ١٩٧٠، ٢٠٩-٢٢٣.

٥- البشرى (طارق)، الحركة السياسية فى مصر (١٩٤٥-١٩٥٢)، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢.

٦- الحبابى (محمد عزيز)، من المنغلق إلى المنفتح)، عشرون حديثا عن الثقافات القومية والحضارة الانسانية، ترجمة محمد برادة، القاهرة : الانجلو المصرية، ١٩٧١.

٧- الرفاعى (د. عبد العزيز)، الطابع القومى للشخصية المصرية : بين الايجابية والسلبية، القاهرة : دار النهضة العربية، ١٩٧٢.

٨- الطاهر (د. عبد الجليل)، التوقعية والقلق فى الشخصية العراقية، المثقف العربى، عدد ١١، كانون أول ١٩٦٩، ٣٤- ٤٤.

٩- الطيب (مدثر عبد الرحمن)، أزمة المجتمع العربى المعاصر، بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٦١.

١٠- اسكندر (د. نجيب)، فام (د. رشدى)، التفكير الخرافى، بحث تجريبى، القاهرة: الانجلو المصرية، ١٩٦٢.

١١- العظم (د. صادق جلال)، النقد الذاتى بعد الهزيمة، مواقف، السنة الأولى، العدد الرابع، أيار - حزيران ١٩٦٩.

١٢- بانيكار (ك.م.) أسيا والسيطرة الغربية، ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٢.

١٣- بركات (د. حليم)، ضود (د. بيتر)، النازحون : اقتلاع ونفى دراسة اجتماعية علمية، بيروت : منشورات مؤاسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٨.

١٤- جابر (د. عبد الحميد جابر)، الشخصية المصرية والشخصية العراقية دراسة مقارنة، المجلة الاجتماعية القومية، مجلد ٥، عدد ٣ سبتمبر ١٩٦٨، ٢٥٥-٢٥٠.

١٥- حبيبى (أميرة)، التزوح الثانى، دراسة ميدانية تحليلية لنزوح ١٩٦٧، بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأحاث، أيلول (سبتمبر) ١٩٦٧.

١٦- حجازى (د. عزت)، الشخصية المصرية بين السلبية والايجابية، الفكر المعاصر، العدد ٥٠، ابريل ١٩٦٩، ٤٢-٤٩.

١٧- حمادى (د. سعدون)، النكبة العربية وقضية الوحدة العربية، دراسات عربية، السنة الثالثة، عدد ١٠، أب ١٩٦٧، ٣-١٥.

١٨- حوا (كميل)، نقطة الانطلاق : ثقافة الاستعمار فى زمن الهزيمة، الثقافة العربية، نيسان ١٩٧٣، ٣-١٦.

١٩- راندال (ج.هـ.)، تكوين العقل الحديث، بيروت : دار الثقافة ١٩٥٨، ج٢.

٢٠- ربيع (د. حامد عبد الله)، فلسفة الدعاية الاسرائيلية، منشورات مركز الأبحاث الفلسطينية، تموز (يوليو) ١٩٧٠.

٢١- ربيع (د. حامد عبد الله)، حول التحليل العلمى لمفهوم الطابع القومى المصرى؛ فى : لويس كامل مليكه، قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية، القاهرة: الهيئة العامة للتأليف والنشر، مجلد ٢، القاهرة : ١٩٧٠، ص ٥١٩-٥٣٦.

٢٢- رمضان (د. عبد العظيم)، تطور الحركة الوطنية فى مصر فى سنة ١٩١٨-١٩٣٦، القاهرة : دار الكاتب العربى، (بدون تاريخ).

٢٣- زريق(د.قسطنطين)، معنى النكبة مجددا، بيروت:دار العلم للملايين، ١٩٦٩.

٢٤- زكريا (د. فؤاد)، الجوانب الفكرية فى مختلف النظم الاجتماعية، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب والأجهزة العلمية، ١٩٧١.

٢٥- سليمان (د. ميشيل)، وسائل الاعلام الجماهيرية والحرب فى : فلسطينيات، المجموعة الثانية، بيروت : مركز الأبحاث، مارس ١٩٦٩، ٩١- ١١٩.

٢٦- سويف (د. مصطفى)، مقدمة لعلم النفس الاجتماعى، القاهرة : الأنجلو المصرية.

٢٧- شرابى (د. هشام)، المثقفون العرب والغرب، بيروت : دار النهار ١٩٧١.

٢٨- طيبى (بسام)، ماذا تعلمنا من النكسة الأخيرة؟، دراسات عربية، أبريل ١٩٦٨، ٢٨ - ٥٠.

٢٩- عزت عبد الكريم (د. أحمد عزت)، العلاقات بين الشرق العربى وأوروبا بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، فى : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة، (باشراف محمد شفيق غربال)، جامعة الدول العربية الادارة الثقافية، (بدون تاريخ)، ١٨١- ٢٠٥.

٣٠- عمار (د. حامد)، فى بناء البشر : دراسات فى التغير الحضارى والفكر التربوى، سرس الليان : ١٩٦٤.

٣١- عويس (د. سيد)، من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : رسائل إلى ضريح الامام الشافعى، القاهرة : المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ١٩٦٣.

٣٢- فانون (فرانز)، سوسيولوجية ثورة، ترجمة : ذوقان قرقوط، بيروت : دار الطليعة، ١٩٧٠.

٣٣- فرج (د. فرج أحمد)، الشخصية القروية المصرية، فى : الحلقة الدراسية لعلم الاجتماع الريفى فى الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة : المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ١٩٧١، ١٩٤- ٢٠٦.

٣٤- كامل (د. لويس)، الشخصية البدوية : قراءات فى علم النفس الاجتماعى فى البلاد العربية (اعداد وتنسيق وتقديم لويس كامل : القاهرة : الهيئة العامة للتأليف والنشر، مجلد ٢، ١٩٧٠، ٥٥٢- ٥٧٣.

٣٥- كانال (جان سوريه)، المشكلات النظرية لدراسة المجتمعات الطبقية الأولى فى: حول نمط الانتاج الاسيوى : مجموعة دراسات ترجمها جورج طرابيشى بيروت : دار الحقيقة، ١٩٧٢، ١٩- ٣٩.

٣٦- مرسى (د. فؤاد)، البعد الاجتماعى للشخصية المصرية الحاضرة، الفكر المعاصر، العدد ٥٠، أبريل ١٩٦٩، ٣٤ - ٤١.

٣٧- مندس (هانى)، حول مشكلات النقد بعد الهزيمة : الجماهير والوعى الثورى، مواقف، السنة الأولى، العدد الرابع، أيار- حزيران ١٩٦٩، ١٣١ - ١٤٠.

٣٨- هاركابى (يهوشفاط)، تيارات فى السياسة والاجتماع العربى بعد حزيران ١٩٦٧، تعريب : فؤاد شابى، تل أبيب : دار النشر العربى، (بدون تاريخ).

٣٩- هلال (د. على الدين)، التطويق الصهيونى للرأى العام الأمريكى، السياسة الدولية عدد ٣٣، يوليو ١٩٧٣، ٣٤- ٤٧.

٤٠- هيكل (محمد حسنين)، بصراحة : كان العدو يعرف أكثر مما ينبغى، الأهرام، ٢٨ يونيو ١٩٦٨.

٤١- وهبى (د. محمد)، أزمة التمدن العربى، بيروت، دار العلم للملايين ١٩٥٦.

٤٢- وورسلى (بيتر)، العالم الثالث، ترجمة حسام الخطيب، دمشق : منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومى، ١٩٦٨.

٤٣- ياسين (بو على)، الثالوث المحرم : الدين والجنس والصراع الطبقى، بيروت : دار الطليعة، ١٩٧٣.

٤٤- يسين (السيد)، الطابع القومى للشخصية، مجلة الفكر المعاصر، العدد ٥٠ أبريل ١٩٦٩، ١٣ - ٢٤.

٤٥- يسين (السيد)، نحو الدراسة التكاملية للصراع العربى الاسرائيلى :
١- الأبعاد الاجتماعية والحضارية والنفسية، دراسة غير منشورة، القاهرة : مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ١٩٧٢.

٤٦- يسين (السيد)، الفكر العربى فى مواجهة الهزيمة، الكاتب، العدد ١٣٦، يوليو ١٩٧٢، ٢٧ - ٣٧.

٤٧- يسين (السيد)، المثقف الاسرائيلى : بين الانتهازية الفكرية والنقد المبدئى للصهيونية، الأهرام، ١٩٧٣/٨/٧.

٤٨- يسين (السيد)، تشريح العقل الاسرائيلى، الأهرام، ١٩٧٣/١١/١٠.

ثانيا : المراجع الانجليزية والفرنسية

1- Alter, R., Pletoric anf the Arab mind, Commentary, 1968, No, 4, 61- 65.

2- Alroy, G. C., patterns of hostility, in: Alroy (editor), attitudes toward jewish statehood in the Arab world, New york,

American Association for peace in the middle east, 1971, 1-69.

3- Amir, Y., Contact hypotheses in ethinc relations, psychological bulletin, v. 71, 1969, 319- 342.

4- Ammer, H., Growing up in an egyptian village, london: routledge and kegan paul, 1954.

5- Aron, R., Les étapes de la pensée sociologique, paris: Gallimard, 1967.

6- Ayrout, H. M., The Egyptian peasant boston: beacon press, 1963.

7- Bouhur. Y., the Arabs in modern hebrew literature, in : New outlook, vol. 7. No. 3 (61), 40-46, p. 58.

8- Baer. G., Studies in the social history of modern egypt, chicago and London: the univ. of Chicago press, 1968.

9- Baer. G., population and society in the Arab east, London: routlidge and kegan paul. 1964.

10- Baer. G., submissiveness and revolt of the fellah, in:

Baer. G., Studies in the social history of modern egypt, 93-108.

11- Ben- Dak, J.D., Time for reorientation : Israeli- Arab conflict, journal of conflict resolution, 14, No. 1., march 1970. 101-112.

12- Beit- Hallahmi. some psychosocial and cultural factors

in the Arab- Israeli conflict: A review of the literature, in : J., con. Res., V. XVI. No. 2, 268-780.

13- Beit- Hallahmi, B., National character and national behavior in the middle east : the case of the Arab personality, international journal of group tensions, vol. 2, No. 3., 1972, 9-28.

14- Berger, M., the Arab world today, N. Y.: Anchor books, 1964.

15- Brecher, M., the foreign policy system of Israeli. setting, images, process, london: Oxford University press, 1972.

16- Carlesson, G., Swedish national character in the twentieth century, in: amer. acad. pol, soc., march 1967. 93-98.

17- Chejine, A., the use of history by modern arabic writers, middle east journal, 1960. (autumn). 382-396.

18- Chejine, A., Arabic: its significance and place in Arab-Muslim soceity, middle east journal, 19. 447-470.

19- Deher, A., Current trends in arab intellectuals thought, the rand corporation, december 1969.

20- De vos. G., national character, in: Int, ency, soc. sc., vol. II. the macmillan free press, 1969, 14-19.

21- Dessouki, A., Arab Intelleetuals and Al- Nakba : the search for fundamentalism. (Unpublished paper).

22- Deutch, K.W., The Nerves of government, New york: Macmillan, the fee press, 1966.

23- Dodd, P.C., Family honor and the forces of change in Arab society, interational journal of middle east studies, vol. 4, january, 1973, No. 1, 45-49.

24- Dufrenoy, M. L., L'orient romanesque en france, paris: editions Beauchemin, 1946.

25- Hamamsy, L. S., The Assertion of Egyptian identity in historical perspective, paper presented to the burg warenstein symposium, No. 51, Ethnic identity: cultural continuity and change, september, 5-13, 1970.

26- Etzione, A., Social psychological aspects of international relations, in : lindzey, G., Aronson, E., The handbook of social psychology, 2nd., vol. 5, massachusetts: addison-wesley, 1969, 538- 601.

27- Eysenck, H. J., National stereotypes and national character, in : uses and Abuses of psychology london: pelican books, 1953.

28- Freyre, G., Brazilian national character in the twentieth century, in : the annals of the american academy of political and social sciences, natioal character in the perspective of the social sciences", March 1967, 52- 62.

29- Friedlander, S., Réflexions sur l'avenir d'Israel. Paris : Editions du seuil, 1969.

30- Fromm, E., Psychoanalytic characterology and its application to the understanding of culture. the bobbs- merill reprint, series in the social sciences.

31- Fromm, E., Marx's concept of man, New york : F. Uncar publishing co., 1970.

32- Formm, E., The application of humanist psychoanalysis to marx's theory, in: fromm, E. (editor) socialist humanism, N. Y., Anchor books, 1968, 228- 245.

33- Gardner, G., The Arab middle east: some back- ground interpreatations, in: journal of social issues, 1959, 15, 20- 27.

34- Garmadi, S., Le nouveau fàce- fàce Arabo- Européen. colloque international de florence, Décember 1972.

35- Gibson, Q., The logic of social inquiry, London: Routledge kegan paul, 1969.

36- Gilsenan, M., Through a glass darkly: images of the middle east conflict, in : masan, (H), (editor), reflecations on the middle zast, paris: mouton, 1970.

37- Glenn, E. S., et al., A cognitive interaction model to analyse culture conflict in international relations, the journal of conflict resolution, vol. XIV, No. 1, March 1970, 35- 48.

38- Gould kolb, A Dictionary of the social sciences, London: tavistok publications, 1964.

39- Hamady, S., Temperament and character fo the Arabs New york: Twayne publishers, 1960.

40- Hanna, S., Islam, socialism and national trials, the muslim world, v. III, 4, (1968), 284- 294.

41- Harakbi, Y., Basic factors in the Arab collapse during the six- Day war, in: Orbis, Quarterly journal of world Affairs, Vol. XI, Fall 1967, No. 3.

42- Harbaki, Y., Arab attitudes to israel, jerusalem: Israel universities press, 1972.

43- Heradvsteit, D., Isreali Elite pereptions of the Arab- Israeli conflict, journal of palestin studies, vol, March 1967, 1-7.

44- Hobel, A., Anthropological perspectives on national character, in: Ann. amer. aced. pol. soc., March 1967, 1-7.

45- Hofman, J., Readiness for social relations between arabs and jews in Israel, J. con. Res., VOI. XVI, No. 2, 241-251.

46- Hottinger, A., The Arabs, London: Thames, 1963.

47- Hourani, A., Arabic thought in the Liberal Age, 1798-1939, London: oxford university press, 1967.

48- Ibrahim, S. M., Interactions, pereptions and attitudes

of arab students toward American, in : sociology and social research, vol. 55, No. 1. october 1970, 29- 46.

49- Ibrahim, S. M., Cross- cultural interaction and attitude formation before and after a major crisis, in: sociological focus, on attitudes, vol. 4. No. 3. spring 1971, 1-16.

50- Kardiner, A., The concept of basic personality structure as an operational tool in the social sciences, in: harring D. G. (editor) personal character and cultural milieu, syracuse university press, 3rd., 1964.

51- Khatchadorian, H., The mask and the face: A study of "Make- Believe" in middle east society, in: Middle east forum, 1961, 37- 15- 19.

52- Lapierre, J. W., L'information sur létatd' Israel dans les grands quotidiens francais en 1968, paris: editions du C.N.R.S., 1968.

53- Laroui, A., L'idéologie arabe contemporain, paris: francais maspero, 1970, 3-11.

54- Laroui. A., Antihistoricisme et hegemonie culturelle: Un aspect des relations Arabo- Occidentales. Colloquenationalc de Florence, Décembere1972.

54- Laroui, A., Antihistoricisme et hegemonie culturelle : un aspect des relations Arabo - Occidentales, Colloque Internationale de Florence, Décembere 1972.

55- La sociologie en U.R.S.S., Moscou : Editions de progrès. 1966.

56- Macleod, R.B., The Arab Middle East : some social psychological problems. j. of soc. iss. 1959, 15, 69 - 75.

57- Martindale, D., the sociology of national character, in : Ann. Amer. Acad. pol. soc. sc., March 1967, 30 - 35.

58- Mead, M., national character, in : anthropology today. London chicago : the university of chicago press, 1957. 642 - 667.

59- Melikian, L. H., some correlates of authoritarianism in two culturess, Journal of psychology, 1959, 42, 237 - 48.

60- Melikian, L. H., authouitarianism and its correlates in the Egyptian culture and the united states. Journal of social Issues, 1959, 15, 58 - 68.

61- Ozanne, H., social character as a sociological concept. Am. soc. Rev., Vol. 8, 519 - 524.

62- patai, R., the arab mind, New york : charles scribner's sons, 1973.

63- peres, Y., Levy, Z., Jews and Arabs : Ethnic group steeotypes in israel, Race, vol. x, no. 4, April 1969.

64- Reisman D., some Questions about the study of american character in the twentieth century, in : Anne, Amer. Acad pol. soc. sc. 36 - 47.

65- Rim, Y., Alonie, R., sterreotypes according to ethinc origin, social class and sex, acta psychologica. 31. 1969. 317-325.
66- Robins, E., Attitudes. stereotypes and prejudices among Arabs and jews, in : New outlook, vol. 15, No. 9 (136) Nov, - Dec. 1972, 36 - 48.
67- Rogers, R., the emotional climate in israeli society Amer. J. Psychiary. 1972. 128. 988 - 992.
68- sarhan, E. A., Interests and cultures, New york : columbia university press. 1950.
69- sayigh, R., A plan of integrated social seience research into Arab society and culture. (memo), Beirut, 1972.
70- sève, L., Marxisme et théories de la personnalité. paris : Editions sociales. 1969.
71- Sehaar, J. H., Escape from authority, the perspectives of erich fomm, N. y. : Harper torch Books, 1961.
72- Seudde. L. R., Arab intellectuals and the implications of Defeat of 1967. unpublished M. A. thesis A. U. B., 1971.
73- sebald, H., studying National character through comparative content Analyses, social forrces, vol. 40, 318 - 322.
74- shamir, S., Arab intekkectuals and the war, in : to Make war or to make peace, New outlook, vol. 12, No. 5- 6, 1969.
75- shouby, E., the influence of the Arabic language upon the

psychology of the Arabs, Middle east journal, 1951. (summer), 284 - 3002.
76- smirnov, G., societ Man, the Making of socialist type of perrsonality, Moscow : progress publishers, 1973.
77- stouffer, S. A., et al., the amerrican soldier, princeton : pr inceton university press. vol. I, 1949.
78- suleiman, M., Arabs and the west : communication Gap, in : II politico, 1967, XXXI, No. 3, 511 - 529.
79- suleiman, M., An Evaluation of Middle East News coverage in seven American Newsmagazines, July - December 1956, Middle East Forum, vol, LXI. No. 2. late Autumn 1965, 9 - 30.
80- suleiman, M., American Mass and the June conflict, in : the Arab - Israeli confronation of June 1967 : An Arab perspective, North - Western university press. 1970.
81- Tamarin, G. R., The Israeli - Arab conflict in terms of Non - communication, in : Alroy, G. C. (editor), Attitudes toward Jewish statehood in the Arab worrld, Amer. Acad. Ass. for pease in the Middle East, 1971, 70 - 87.
82- terhune, K. W., From national character to national behavior : A reformulation, the journal of conflict resolution, vol. XIV, No. 2, june 1970. 203 - 263.

83- triandis, H. C., Descussion, the international psychologist, 1971, 12. supplement. 30 - 31.

84- terry. J., Israel's policy toward the Arab states, in : Abulughod, (I.), (editor). the transformation of palestine, Evanston : Northwestern Unvi. press, 1971, 337 - 359.

85- Van Nieuwennuijze, sociology of he Middle East, A stocktaking and interrpretation, leiden : E. G. Brll., 1971.

86- Weber, A., Farewell to European History or the conquest of Nihilism, London : Koutledge and kegan paul, 1947.

87- Winick, C., Dictionary of Anthropology, lowa, 1958.

88- Virtaner, R., French national character in the twentieth century, in : Ann. Amer. Acad. pol. soc. sc., March 1967, 82-92.

المحتويات

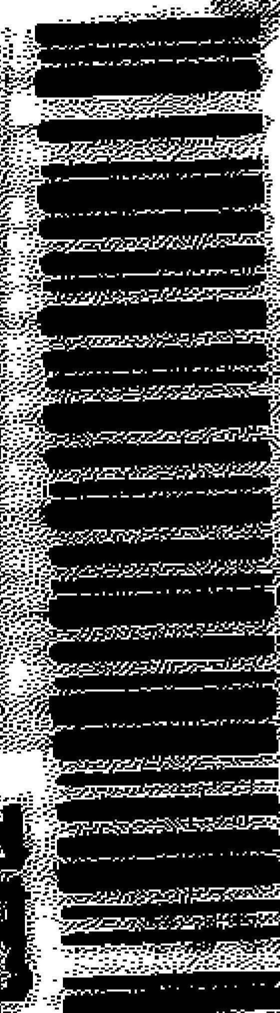
الشخصية العربية

بـيـن

صـورة الـذات ومـفـهـوم الآخـر

يقارب السيد ياسين، فى هذا الكتاب، موضوع «الشخصية القومية» بكل الاشكالات النظرية والعملية التى يثيرها متسلحاً بمناهج البحث فى علوم الانسان وبنظره موضوعية صافية سمحت له بأن يقف خارج ابتزازين شائعين فى أوساط المثقفين العرب الا وهما: تجريح الذات كرد فعل على اخفاقنا فى مواجهة الغرب واسرائيل أو تمجيد الذات كمحاولة للهروب من مواجهة الواقع الحقيقى، الذى نحياه. لذا كان المؤلف قادراً على طرح ومناقشة جملة من الموضوعات الشائكة: بنية الشخصية العربية، مقوماتها، أنماط سلوكها، تصورها للعالم وللآخر، علاقة الأنساق الفرعية بالنسق الرئيسى فى هذه الشخصية أو علاقة الشخصيات الاقليمية بالشخصية القومية العربية.. الخ، وذلك فى سياق نقدى مزدوج لصورة الآخر (الغرب واسرائيل) عن «الشخصية العربية»، وللصورة التى كونها العرب عن ذاتهم.

أخيراً، إذا كان مبحث «الشخصية» يقودنا إلى اكتشاف البعد الحضارى لذاتنا من حيث أن كل تحديد للذات هو نفى للآخر، فإن هذا المبحث يكشف لنا عن أهميته ومحوريته بالنسبة لكافة التحديات التى واجهتنا فى تاريخنا الحديث كجماعة بشرية ومازالت مطروحة على جدول أعمال جيلنا الحاضر بل هى مضمون رسالته التاريخية: تحرير أرضنا وانساننا من كافة أشكال الهيمنة والتبعية والخروج من دائرة التخلف والاستبداد.





مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١
MADBOULI BOOKSHOP 6 Talat Harb SQ. Tel: 756421